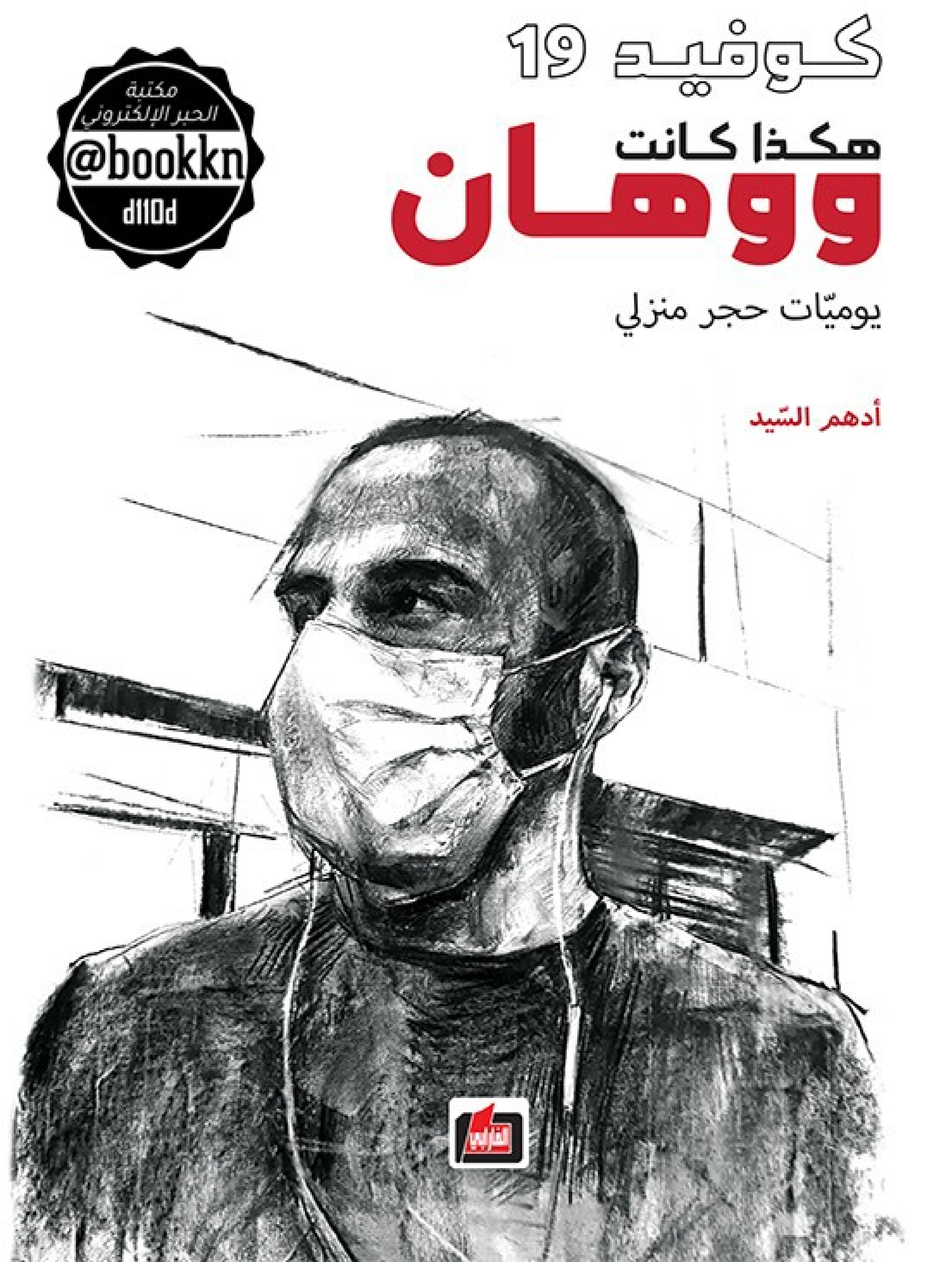


كوفيد 19
هكذا كانت
ووهان
يوميّات حجر منزلي
أدهم السّيد

هكذا كانت ووهان

أدهم السيّد

كوفيد 19

هكذا كانت ووهان

من يوميات حجر منزلي

دار الفارابي

ealpagex0006x

الكتاب: هكذا كانت ووهان

المؤلف: أدهم السيّد

صورة الغلاف: غادة الزغبي

تصميم الغلاف: محمد لمع

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: (01)301461- فاكس: (01)307775

ص.ب: 3181/11- الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

: info@dar-alfarabi.com**e-mail**

الطبعة الأولى: تموز 2020

ISBN: 978-614-485-086-2

إلى كل ضحايا كوفيد 19.

إلى كل من واجه ويواجه فيروس كورونا وفيروس العنصرية.

إلى كل من دافع ويدافع عن الحقيقة.

إلى شعب ووهان وعبره إلى كل الشعوب المناضلة.

أهدي هذا الكتاب.

مقدمة ضرورية

قالت لي صديقة وهي تشجعني على كتابة تجربتي في مدينة ووهان: «يا أدهم، إن لم نكتب تاريخنا بأنفسنا، سيكتبه لنا أعداؤنا».

كانت تحاول إمساكي من «يدي التي توجعني». فعدم خروجي من ووهان كان بهدف نقل حقيقة ما يحصل في هذه المدينة خلال أزمة كورونا، وبالتالي فإنه من الضروري استكمال ما بدأته عبر الإطلالات الإعلامية وصفحتي على «فيسبوك»، بتوثيق كل هذه التجربة في كتاب يصف بتفاصيل أوفى، كيف كانت ووهان.

يعرض هذا الكتاب الفترة الممتدة من 31 كانون الأول/ديسمبر 2019 وحتى 30 آذار/مارس 2020، أي منذ الإعلان الأول عن انتشار فيروس جديد في مدينة ووهان، وحتى اليوم الذي تم فيه فكّ الحجر المنزلي عن السكان. وبالتالي، في المقبل من الصفحات، سيطّلع القارئ على تجربتي مع الحجر المنزلي التي استمرت 68 يوماً، والتي حاولت أن أعرضها بطريقة سهلة تعتمد الأسلوب الروائي في بعض الأحيان والتوثيقي في أحيان أخرى. إلا أنني حرصت دائماً على سرد الأحداث بتسلسلها الزمني، دون التطرق إلى أيّ حدث حصل خارج تلك الفترة، أو القفز بين المراحل. مع العلم أن ذلك كان ليفيد في توضيح بعض القضايا، وخصوصاً السياسية منها.

وعلى الرغم من أن الكتاب يحاول تغطية كامل فترة العزل تلك، إلا أن طول تلك المدة، والأحداث الكثيرة التي جرت خلالها، دفعتني إلى الاكتفاء باختيار المحطات الأساسية فيها.

يضم الكتاب نصوصاً ومعطيات «داتا» كنت قد نشرتها في صفحتي على فيسبوك. وإعادة نشرها هنا، تهدف لنقل التجربة كما عشتها. لذا لم أقم بإدخال أي تعديلات على تلك النصوص حفاظاً

على روحيتها. ومن خلال «الداتا»، يمكن للقارىء المتمعّن، تتبع عملية السيطرة على الفيروس في ووهان بالاستناد إلى الأرقام.

أخيراً، لا يسعني إلا التوجه بالشكر إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل. للرفاق والأصدقاء الافتراضيين والحقيقيين، الذين واكبوني خلال فترة الحجر. للأهل، روح هذا الكتاب، ولكل شخصياته إن كانوا بأسمائهم الحقيقية أو المستعارة.

أما ضحى شمس، فلك مني كل الحب والتقدير، فلولا جهودك ودعمك وتشجيعك لما خضت مغامرة الكتابة هذه.

«يخدعونكم أو لا يخدعونكم ذلك هو السؤال.

إن خدعتم فسيقضون عليكم وإن عرفتم الحقيقة فستعيشون»

ناظم حكمت

كل شيء في هذه الفترة كان صعباً، حتى كتابة هذه الكلمات.

منذ قليل دخلنا يوماً جديداً في مدينة ووهان، فالساعة تشير الآن إلى 3:28 بعد منتصف الليل، وهو اليوم الثاني بعد إعادة فتح المدينة بشكل رسمي (10 نيسان).

كل شيء كان صعباً منذ بداية العام الجديد، أي منذ أكثر من أربعة أشهر. ترددت كثيراً في توثيق هذه المرحلة من خلال كتابة نص كهذا. وإلى الآن، وأنا أبدأ بالكتابة، لا أعلم إن كنت سأستمر حتى الكلمة الأخيرة أو أنني سأتوقف بعد عدة أسطر.

ترددت لأن هذه التجربة متشعبة جداً، كبيرة جداً، وحتى أنها لم تنته ولن تنتهي على الأرجح حين أتوقف عن الكتابة، وبالتالي فإن مسؤولية توثيقها قد تحمل الكثير من المخاطرة. ولكن أليس التوثيق في ذاته واجباً على من هو الآن هنا في مكاني؟ وأصلا، ما هي الحياة من دون مخاطرة؟ أليس بقائي في ووهان مخاطرة في ذاتها؟ ألم أقل لنفسي انني أقدم على مخاطرة كبيرة عندما قررت في أحد أيام صيف العام 2015 أن أترك لبنان، بلدي، وآتي إلى مدينة لم أكن أعرف حتى كيف يلفظ اسمها، لإكمال دراساتي العليا؟ اسم تعلّم معظم الناس في كوكبنا لفظه بشكل صحيح، بعد أن فرض عليهم الفيروس ضرورة التعرف إلى ما يجرى في هذه المدينة.

في هذه اللحظة، والسكون يعم من حولي، وعلى أنغام سمفونية بيتهوفن التاسعة، أسأل نفسي مجدداً: ما الذي سأكتبه؟ هل أكتب تجربة شخص؟ أو شعب؟ أو أن ما سأكتبه يخص البشرية كلها؟ أتفقد عدد الكلمات أسفل الصفحة، أضحك لأنني ما زلت أكتب عن التردد في الكتابة وقد أصبحت الكلمات كثيرة على صفحتي، تتكاثر تحت نقراتي وتبدو كمن يقول لي: هيا، أكمل. أضحك لأنني لم أعد متردداً. فها قد بدأت كتابة قصتي في ووهان.

عام الفأر

لم يكن هناك أي شيء غير عادي في ووهان. كنا قد انتهينا في الحال من الاحتفال برأس السنة الميلادية. وكان هناك تفاؤل لدى الصينيين بهذه السنة الجديدة، لسببين: الأول يعود لأرقام السنة الميلادية أي 2020، وهي تعني بالصينية، بعد شيء من التلاعب بلفظ الكلمة «أنني أحبك». أما الثاني، فهو أن هذا العام، حسب التقويم الصيني، هو «عام الفأر»، الذي يرمز إلى التفاؤل. فالتقويم الصيني الذي يعتمد الحيوانات كرموز، يعطي أيضاً كل حيوان مدلولات تتعلق بالفلسفة القديمة. وبهذا المعنى فإن وجود الفأر في المنزل مثلاً، يدل على وجود الطعام فيه بوفرة. ولنا نحن العرب مقولة مشهورة ترمز إلى المعنى نفسه: «اللهم أشكو قلة الفئران في منزلي».

كنت كباقي الناس هنا، أتهيأ لعطلة الربيع. ومن ضمنها عطلة رأس السنة الصينية، الأهم والأطول بين كل الأعياد والمناسبات في الصين، لأنها تمتد لأسبوعين كاملين: من 18 كانون الثاني/يناير إلى مطلع شباط/فبراير. خلال هذه العطلة تفرغ المدن بشكل شبه كامل، وخصوصاً مدينة ووهان. فالصينييون هم مجتمع ريفي في الأساس، بدأت عملية انتقالهم إلى المدن مع بداية سياسة الإصلاح والانفتاح التي انطلقت سنة 1979، والتي أدت إلى نهضة صناعية كبيرة في الصين. وفي مقاطعة هوبي، تعتبر مدينة ووهان مركز الجذب الأول لكل سكان المقاطعة. لذا، وعلى مدى السنوات الأربعين الماضية، ارتفع عدد سكانها من 5 ملايين نسمة سنة 1980 إلى حوالي 10 ملايين نسمة هذا العام. لكن هؤلاء، وخلال عطلة الربيع هذه، يعود معظمهم إلى قراهم ومدنهم الأصلية، وبالتالي تكاد تفرغ المدينة من سكانها.

لم أكن قد حسمت قراري بعد، أنا الطالب في ووهان منذ أيلول 2015. فهل أعود إلى لبنان أو أبقى في ووهان خلال هذه العطلة. فحتى التاسع من كانون الثاني/يناير 2020 ، كان معظم

الطلاب قد غادروا الجامعة بسبب بدء العطلة في القطاع التعليمي. أما المدينة، فقد كانت لاتزال تعمل بشكل طبيعي. كنت حائراً: أأعود إلى بلدي لقضاء شهر ونصف الشهر، أم أبقى وأستكمل عملي على رسالة التخرج التي كان من المفترض أن أسلمها أواخر شهر شباط/فبراير؟.

في البداية قررت العودة. هكذا، حجزت تذكرة ليوم 21/1/2020. لكنني بعد برهة تفكير، عدت وألغيت الفكرة. فقد كنت أعرف، وبناء على تجربة سابقة، أنني لن أستطيع التركيز على استكمال أبحاثي الجامعية خلال وجودي في لبنان خصوصاً مع ما كان يمر به من أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية أخْرجت الناس إلى الشوارع مطالبين بتغيير النظام الذي انتهت مدة صلاحيته منذ زمن بعيد.

هكذا، بدأت برنامج عمل مكثف لإنهاء رسالة التخرج قبل الموعد الذي تعود فيه الجامعة لتفتح أبوابها مجدداً بعد عطلة الربيع.

ما قبل الحجر

كنا ثلاثة أصدقاء من بلدان مختلفة، أنا من لبنان ورودجر من زمبابوي وزينة من تونس، نذهب يومياً إلى مكتبة الجامعة للعمل على أبحاثنا. وبما أنها العطلة، فقد كانت المكتبة، التي عادة تعج بوجود أكثر من 5 آلاف طالب، فارغة تماماً! أقفلت معظم أقسام المكتبة، ولم يتبق إلّا مبنى واحدا ليستقبل من بقي من الطلاب.

كنا نذهب عند الحادية عشرة صباحاً إلى المطعم الطلابي الوحيد الذي استمر في تقديم الوجبات بعد إقفال المطاعم الثلاثين الباقية. بعدها نتوجه إلى المكتبة، وعند الخامسة عصراً، نعود إلى المطعم نفسه لنتناول الغداء. ثم، من جديد إلى المكتبة، حيث نبقى حتى موعد الإقفال العاشرة مساء.

ولكن يومنا البحثي الطويل لا ينتهي هنا. فبعد إقفال المكتبة كنا نذهب إلى مكان نطلق عليه اسم 24، وهو عبارة عن متجر لبيع المواد الغذائية يفتح ليلاً نهاراً، وإلى جانبه وضعت طاولات للدراسة. فمن المعروف عن الطلاب الصينيين أنهم يدرسون كثيراً. وهو الأمر نفسه بالنسبة لكل صاحب مهنة في الصين. وها نحن، وبسبب طول العشرة، أصبحنا مثلهم. لذا كنا نبقى في هذا المكان المزود بأجهزة التدفئة المركزية، ما يساعدنا على تحمل برد ووهان، حتى ساعات الصباح الأولى ومن ثم نذهب للنوم.

كانت هذه يومياتنا الرتيبة حتى الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير.

«هان-كو» : سارس أو انفلونزا؟

بدأ ذلك اليوم عادياً. كنت قد قررت سابقاً أني سأحصل على يومَي استراحة، أردتهما أن يتزامنا مع «رأس السنة الصينية» في 23 و24 كانون الثاني. لذا، عند السادسة مساءً، ودعت رودجر، وتوجهت إلى منزل كنا قد استأجرناه خارج الجامعة لتمضية هذين اليومين مع عائلة صينية كما جرت عادتنا كل سنة.

بدأ النهار عادياً صحيح، لكن ليلة 22 كانون الثاني كانت من أطول الليالي على الإطلاق. السادسة مساء، كنت خارجاً من المكتبة، وإذ بي أرى عناصر من أمن المكتبة يدخلون إلى حيث كنت أجلس في الطابق الخامس، وقد حملوا معهم الكثير من أدوات التعقيم. أعترف أني صدمت قليلاً. فقد كنت أعلم أن فيروساً ما انتشر في بعض أحياء المدينة. وكنا قد بدأنا باستخدام الكمامات دائماً، وفق تعليمات سابقة. لكن ما كان جديداً، الحديث عن احتمال عزل ووهان. لذا صدمت بمشهد التعقيم. هذا يعني أن الأمور أصبحت فعلاً أكثر خطورة.

في طريقي للخروج من الجامعة متوجهاً إلى «منزل العطلة»، كانت الأسئلة تتسارع في رأسي: ماذا يجري تحديداً خارج الجامعة؟ وأنا الذي لم أغادر بوابتها الرئيسة منذ ليلة رأس السنة الميلادية. هل فعلاً ستغلق ووهان؟ ولماذا؟ وإن بدأ العزل، متى سينتهي؟ ماذا يعني انتشار فيروس؟ هل تكفي التعليمات التي كانت قد عممت علينا من حيث استخدام الكمامة وعدم لمس الوجه وغسل اليدين بشكل دائم؟

كانت كل هذه الأسئلة تعصف بتفكيري. وكأن مشهد المعقمين الذي رأيته في الحال، أخرجني من العزلة التي كانت أبحاثي قد أدخلتني فيها. فبالرغم من علمي بوجود فيروس في المدينة

منذ حوالي شهر، إلّا اني لم أعط أهمية كبيرة لهذا الأمر. كان الأمر جديداً عليّ، فأنا لم أعش تجربة انتشار فيروس من قبل.

قبل الوصول إلى مدخل الجامعة، أخذت أستعيد كل ما أذكره عن خبر انتشار فيروس في المدينة. وكان أول ما خطر ببالي هو اتصال أجريته بصديق لبناني اسمه نعيم يدرس في ووهان للتحقق من حضوره سهرة رأس السنة الميلادية.

كان هذا الاتصال في 31 كانون الأول/ديسمبر 2019، قلت يومذاك لنعيم، ما معناه: «إن كنت ستسهر معنا الليلة هناك شرط: أن تضع كمامة لأنه في منطقتك هناك انتشار لفيروس ما».

كان نعيم يعيش بعيداً من المجمع الجامعي، في منطقة اسمها «هان-كو»، حيث تدرس صديقته سلمى في قسم الطب التابع لجامعتنا ومقره في تلك المنطقة حيث المستشفى التابع للجامعة. وأضفت «يقال إن الحالات المصابة نقلت إلى المستشفى الذي تدرس فيه سلمى».

حي «هان-كو» في ووهان هو من أهم وأقدم الأحياء في المدينة. فاسم مدينة ووهان مشتق من اسم هذا الحي تحديداً وحيين آخرين: وو-تشانغ، و هان- يان. والحي مقصد الأجانب، ففيه تنتشر الحانات على الطراز الغربي، كما يتميز بتنوع العمارة فيه تبعاً للحقبة التي كان مستعمراً فيها، حيث مر عليه الاستعمار الروسي والفرنسي والبريطاني. هكذا، تركت كل حقبة أثرها المعماري الذي لايزال حاضراً إلى الآن. كما أنه في هذا الحي بني أضخم جسر في المدينة العام 1952 خلال مرحلة «بناء الصين الحديثة» بمساعدة الاتحاد السوفياتي. وهذا الجسر الذي يقطع نهر اليانغتسي، يعتبر من أهم معالم المدينة.

شريط الذكريات هذا قادني إلى المعلومة الأولى التي حصلت عليها عن الفيروس. ففي اليوم نفسه صباحاً، وخلال توجهي إلى منطقة «هان-كو» مع مي، وهي إحدى الصديقات الصينيات، وتدير مركزاً لتعليم اللغة الإنكليزية للأطفال، أخبرتني أنها قرأت عن اكتشاف حالات إصابة بفيروس في منطقة هان-كو، ولكنهم حتى تلك الساعة لم يكونوا يعلمون إن كانت تلك الإصابات هي ظهور جديد لفيروس «سارس» الذي سبق أن أصاب الصين، أو أنها مجرد انفلونزا موسمية.. وبالتالي اقترحت عليّ وضع كمامة خصوصاً خلال استقلالي مترو الأنفاق.

وفعلاً، ومنذ ذلك الوقت، بدأت باستخدام الكمامة بشكل يومي وفي كل الأماكن كإجراء وقائي.

لم أكن قد ارتديت كمامة من قبل إلّا لأسباب خارجة عن إرادتي. كان ذلك عندما كنت صغيراً أرافق والدي إلى العمل، فقد كان عمله في الدهان يتطلب استخدام مادة «التنر» لتذويب المواد التي كان يستخدمها لطلاء الجدران. كانت لتلك المواد عند تذويبها رائحة نفاّذة ومؤذية للجهاز التنفسي وكان أبي يجعلني أضع الكمامة.

«أدهم : أخرج فوراً من ووهان !»

قبل وصولي إلى محطة المترو بلحظات، اتصلت بي طالبة جزائرية صديقة اسمها ليلى، تحضّر دكتوراه في الأدب الصيني، كانت قد غادرت ووهان لتمضية العطلة مع عائلتها. جاءني صوتها عبر تطبيق «الويتشات» مرتجفاً عبر الهاتف: «أدهم: أخرج فوراً من ووهان!».

كنت لا أزال غارقاً في التفكير، فلم أتنبه بداية لتلك النبرة المرتجفة، وكأن تركيزي على استنطاق ذاكرتي فيما يتعلق بالفيروس قد شتت انتباهي. كنت مشغولاً بالتساؤل: هل اتخذت إجراءات وقاية كافية في الفترة السابقة؟ لم أخرج من الجامعة في الأيام العشرين الماضية، فهل كان هذا كافياً؟ هل احتككت يا ترى بأحد المصابين؟.

لذلك، عندما هاتفتني ليلى ورجتني الخروج سريعاً من ووهان، أجبتها ببرود «ليه؟ شو في؟». أجابت: «سيقفلون ووهان غداً عند العاشرة صباحاً. أرجوك.. توجه فوراً إلى محطة القطار».

كنت قد وصلت إلى نقطة التفتيش داخل محطة المترو.

في الداخل ثلاث «نساء أمن» يضعن الكمامات. وليلى لاتزال تحدثني عبر الويتشات. ترددت في استخدام المترو، وكان كل ما يشغل بالي هو أن معلوماتي عن وضع كهذا ضعيفة جداً. فأنا عشت أزمات كثيرة في بلادي، من حروب مدمرة وأزمات سياسية واقتصادية، لكن لم أعش تجربة كهذه من قبل. قلت لليلى: «اسمعي، سأكلمك بعد قليل». اتصلت بصديقتي الصينية «مي» وسألتها عما يجري فقالت «يبدو أن الفيروس ينتشر بشكل أوسع، وقد تبين أنه معدٍ، حسب ما قال الخبير بالأوبئة «تشونغ نان شان»، الأول من أمس».

سألتها: «أنا ذاهب إلى حي «نان-خو» هل أستخدم المترو أو التاكسي؟ ما هي أفضل وسيلة نقل تجنبني الإصابة بالفيروس؟». قالت «إن استخدمت المترو، لا تلمس أي شيء، لا تحتك بالآخرين، وضع كمامة».

أنهيت الاتصال وقررت عدم استخدام المترو. خرجت من المحطة واستقللت سيارة أجرة.

كان السائق يبدو شاحب الوجه. كان هو الآخر يضع كمامة ويلبس قفازات. جلست في المقعد الخلفي وأنا أحاول أن لا ألمس شيئاً. وضعت حقيبتي على قدمي وكانت بداخلها بعض الملابس بالإضافة إلى اللابتوب وبعض الكتب والأوراق.

في الطريق إلى «منزل نان-خو»، اتصلت بليلى مجدداً، وكانت استجابتها سريعة جداً، فهي لم تترك الهاتف منذ ساعات، تتصل بأصدقائها، خصوصاً وأن لها مئات المعارف في ووهان، فهي موجودة في هذه المدينة منذ سنة 2011. قلت لها «أخذت تاكسي، المشهد في المترو مخيف ، السكون الذي يحيط بالمحطة أثار فيَّ القلق» .

قالت «أدهم، هناك شاب جزائري وشاب سوداني غادرا الآن إلى محطة القطار، سوف يذهبان إلى مدينة شيآن، وهناك سوف يفكران ماذا سيفعلان.. ما زالت هناك تذاكر متوافرة للقطار. غادر الآن».

فكرت قليلاً، ثم أجبتها: «لكن أخطر ما في حالات الأوبئة هي التجمعات، فكيف أذهب وأستقل قطاراً؟ لا. سأفكر ملياً قبل أن أتصرف».

تصفحت تطبيق «الويتشات»، ورأيت صور الكثير من الأصدقاء من الطلاب الأجانب الذين كانوا يسابقون الوقت لمغادرة ووهان قبل ساعات قليلة من موعد الإغلاق المعلن. لكنني كنت أميل أكثر وأكثر إلى عدم الخروج. خصوصاً أن أهم ما كنت أعرفه عن الفيروس انه ينتقل بالاحتكاك واللمس، وبالتالي فأخطر مكان يحتمل أن تصاب به بالعدوى هو أماكن التجمعات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن واضحاً لي ما الذي يحدث! فحتى إغلاق المدينة لم يكن مفهوماً بالنسبة لي!.

ماذا يعني هذا الإجراء؟ كيف ستتمكن السلطات من عزل مدينة تعادل مساحتها مساحة لبنان تقريباً، ويتجاوز عدد سكانها 11 مليون نسمة؟ هل سيلتزم الناس؟ وكيف سنؤمّن طعامنا وشرابنا؟

هل ستكون المواد الغذائية متوافرة؟ أو أن المواد ستختفي عن الرفوف ثم تعاود الظهور بأسعار خيالية؟ أسئلة ومخاوف كثيرة جداً جعلتني أتروى في اتخاذ أي قرار.

31 كانون الأول

لم أتحدث بأي كلمة مع السائق. هو لم يبادر أيضاً. عادة، كنت ما أن أجلس إلى جانبه حتى أبدأ محاولات مستميتة للحديث معه. فلغتي الصينية ضعيفة جداً، وحتى الكلمات القليلة التي أعرفها وبالرغم من لفظي الصحيح لها، لا يفهمها. فمعظم الصينيين لا يتخيلون حتى أننا نتكلم لغتهم. لكني، وبرغم ذلك، عادة ما كنت أحاول. وكنت أعلم أن السؤال الوحيد الذي سيسألني إياه «من أي بلد أنت؟». وطبعاً كنت سأجد عناء في لفظ اسم لبنان بالصينية. فمع أنه من المتعارف عليه لفظ أسماء البلدان كما هي بلغتها الأصلية، إلّا أنه للصينيين على ما يبدو رأي آخر، وخصوصاً أهل ووهان الذين لا يلفظون حرف «ن» بشكل جيد، فيصبح أقرب إلى «ل». كنت أحترم كثيراً عدم تنمّرهم علينا نحن الأجانب الذين لا يتكلمون لغتهم كما تفعل شعوب أخرى تظن أنها مركز الكون. كانوا يتقبلون عدم إجادتنا للغتهم، لا بل إنهم كانوا يحاولون مساعدتنا لقول ما نريد بالصينية ويصبرون على محاولاتنا الفاشلة إلى أن نيأس.

كان الصمت يخيم إذاً على التاكسي. وفي جو الصمت هذا، كان الهاتف المتنفس الوحيد للهروب من القلق. مئات الرسائل كانت تنهال على الويتشات وخصوصاً على مجموعة السكن الجامعي. فلكل سكن في الجامعة مجموعة على الويتشات للتواصل مع إدارة السكن. كما أن الطلاب يقسمون حسب الدرجة التعليمية على مجمعات سكنية، وبالطبع يحق للطالب السكن خارج الجامعة. أما أنا فقد كنت أسكن في المجمع الخاص بطلاب الدكتوراه، ويضم حوالي 350 طالباً من معظم جنسيات العالم، لذا فإن هذه المجموعة كانت مصدراً جيداً لمتابعة المستجدات، إن كانت معلومات أو حتى إشاعات. بالطبع كنت أفتش عن المعلومة المستندة إلى مصدر موثوق به، وخصوصاً ما فاتني في الأيام التي كنت منشغلاً فيها بأبحاثي عما يحدث في العالم الخارجي. عدت أفتش في رسائلي

التي لم أفتحها وأستطلع الأحاديث التي جرت في الأيام السابقة. كانت تعميمات بمعظمها روتينية، إضافة إلى صور عدّة كانت إدارة السكن قد أرسلتها لتعلم الطلاب أنها ستقدم لهم، ككل عام، هدايا بمناسبة رأس السنة الصينية. وكان من المفترض أن نتسلمها في 23 كانون الثاني/يناير.

لم يكن هناك أي شيء غير عادي حتى وصلت إلى ليلة رأس السنة الميلادية نفسها.«طارت ليلة رأس السنة»، التقطت هذه الجملة بالإنكليزية بين المعايدات التي كان الطلاب يتبادلونها. كان التعليق لصديقة تونسية واسمها رغد، أو بالأصح هي صديقة لصديقتي زينة. كانت رغد وغيرها من الأصدقاء يطلقون علينا زينة ورودجير وأنا وصف «شلة المكتبة»، بالطبع السبب واضح: فقد كنا نمضي معظم وقتنا فيها.

كانت رغد تعلّق على خبر منشور بطريقة «السكرين شوت»، بدا أنه مأخوذ عن موقع تابع للسلطات الرسمية الصينية. وبما أنه كان باللغة الصينية، لم أفهم مضمونه. عدت بالمحادثات، فوجدت خبراً باللغة الإنكليزية، نقلاً عن منصة قناة «سي جي تي أن» CGTN الصينية شبه الرسمية، معنون على الشكل التالي: «الإبلاغ عن 27 حالة إصابة بالالتهاب الرئوي الفيروسي في ووهان». ويبدو أن من نقل «السكرين شوت» كان يحاول تأكيد صحة الخبر من خلال الإشارة إلى أنه أيضاً منشور على موقع رسمي.

وفي تفاصيل الخبر أن «هذه النتيجة أتت بعد مراقبة أقيمت على مستوى المدينة خلال شهر كانون الأول/ديسمبر. وأن 7 حالات من أصل 27 وضعها حرج، بينما الحالات الأخرى مستقرة». كما قال إن هناك مصابين سيخرجون من المستشفى في الأيام القليلة المقبلة. ويضيف إن «معظم الإصابات هي لأشخاص يعملون في سوق محلي للأسماك، وأن جميع العاملين يخضعون الآن للحجر الصحي». كما ينقل الخبر عن «إدارة الصحة في بلدية ووهان» أن عدداً من حالات الالتهاب الرئوي اكتشفت في ووهان وأن مصدرها لا يزال غير معروف». وختم الخبر بأن «فريقاً من اللجنة الوطنية للصحة وصل صباحاً إلى ووهان للاطلاع على الوضع».

هل أنا على هذا الكوكب؟

لم نكن، أنا والتاكسي، قد قطعنا نصف المسافة بعد إلى المنزل. وبعد انتهائي من قراءة الخبر، وضعت عنوانه في محرك البحث باللغتين الإنكليزية والعربية، فوصلت إلى عدد كبير من المقالات باللغتين. بمطالعة سريعة، وجدت أن معظمها كان نقلاً حرفياً للخبر الذي كنت قد قرأته تواً. لكن لفتني موقعان: الأول لمنظمة الصحة العالمية، والثاني موقع قناة «بي بي سي» البريطانية.

rكان عنوان مقالة «بي بي سي» المنشورة في 11 كانون الثاني/يناير، «فيروس صيني غامض: إلى أي مدى يجب أن نقلق بشأنه؟». وبتصفح سريع، وجدت أنه مقال مهم جداً في حينه، حيث إنه كان يطرح أسئلة كنت أسألها لنفسي، ولا شك أن الكثيرين كانوا يفعلون. ثم فتحت الرابط الآخر، فظهر أنه تقرير منشور على موقع منظمة الصحة العالمية بتاريخ 12 كانون الثاني/يناير 2020. كان هذا التقرير بمنزلة كنز بالنسبة لي، فبالإضافة إلى المعلومات التي يقدمها باللغة العربية، كانت فيه إشارة إلى روابط أخرى، وهي عبارة عن تقارير إعلامية صادرة عن السلطات الصحية في ووهان خلال الفترة ما بين 31 كانون الأول/ديسمبر 2019 و 12 كانون الثاني/يناير 2020.

بالإضافة إلى هذه التقارير المتوافرة باللغة الصينية فقط، كان هناك تقرير آخر صادر عن المنظمة باللغة الإنكليزية تحت عنوان «إرشادات السفر الصادرة عن المنظمة بشأن السفر الدولي والصحة في سياق فاشية الالتهاب الرئوي الناتج من الإصابة بفيروس كورونا المستجد في الصين». وهذا ما كنت أحتاج إليه تحديداً في تلك اللحظات من الحيرة لاتخاذ قرار البقاء في ووهان أو الخروج منها.

أرسلت روابط التقارير المنشورة باللغة الصينية إلى صديقتي الجزائرية ليلى، كي تساعدني على فهم المحتوى. وبدأت أقرأ بلهفة التقرير بالإنكليزية الذي كان متعلقاً بالسفر.

ليلة الألف سؤال

وصلت إلى منزل «نان-خو» بعد ثلاثة أرباع الساعة، كنت قد قرأت خلالها تقرير منظمة الصحة العالمية بشأن قيود السفر. لكن هذا التقرير لم يجبني عن سؤالي الأساسي: هل السفر خطر أو لا؟ وبالتالي هل أبقى أو أغادر ووهان؟. كنت متيقناً أني سمعت نصائح بتجنب السفر، لكني لم أكن متحققاً من مصدر تلك النصيحة. لذا أملت إيجاد الجواب في هذا التقرير لكنه كان يقول ببساطة «لا توجد قيود موصى بها»، أي إنه أبقى الخيارات مفتوحة مع التشديد على إجراءات الوقاية خلال السفر.

قلت في نفسي: هذا التقرير صدر قبل أن تتفاقم الأمور في ظل الانتشار السريع للفيروس. سأبحث أكثر.

كانت الساعة قد أصبحت السابعة مساء. لم تصلني أية معلومات رسمية باللغة الإنكليزية تتحدث عن إغلاق المدينة. وبالتالي، ليس هناك ما يدفعني لتغيير مخططاتي في المكوث هنا في هذا المنزل، لليومين المقبلين، أي 23 و 24 كانون الثاني، ثم أعود بعدها كما خططت إلى الجامعة لأستكمل أبحاثي.

خرجت من سيارة الأجرة وأنا متنبه لكل ما أفعله، وخصوصاً لكل ما ألمسه. كانت حواسي مستنفرة وحذرة مما قد يصيبني بالعدوى الغامضة. دخلت إلى المنزل، ومباشرة توجهت إلى الحمّام. وضعت كل ملابسي في الغسيل، وهممت بالاستحمام. لكن، توقفت دقائق أفكر: هل أبدأ بالاستحمام مباشرة أو عليّ أولاً أن أغسل يدي؟ فإن كانت يداي ملوثتين بالفيروس، لا يمكنني أن ألمس وجهي!

ولكن ماذا عن شعري؟ فإن كان هو الآخر ملوثاً ستسيل المياه وتدخل فمي!. ثم تنبهت إلى ما أفعله: إنه الهلع!

لذا زجرت نفسي قائلاً: «ايييه! شو في؟ من شوي كنت عايش طبيعي! غسّل إيديك وفوت أتحمم وخلص الحديث!»

كان هذا الفاصل أول تحدٍ ربحته ضد الهلع.

التاسعة مساءً

وحيداً في المنزل. كان من المقرر أن تأتي الصديقة الصينية مي وعائلتها وكذلك بقية الأصدقاء لسهرة اليوم التالي. أخذت الهاتف لأتصل بها فاكتشفت أن بريداً الكترونياً وصلني من الجامعة منذ ربع ساعة.

كان عنوان الايميل «المعلومات المتعلقة بالوضع الحالي للوباء». وعبره حصلت لأول مرة من مصدر رسمي على معلومات تقول إنه سيتم إغلاق مدينة ووهان أمام الخروج والدخول ابتداء من العاشرة صباحاً في اليوم التالي (23/1/2020).

سريعاً عاودني السؤال-الدوامة: هل أذهب إلى محطة القطار؟

كان الايميل نفسه قد وصل إلى ليلى. قالت حين هاتفتها «قلت لك، سيقفلون ووهان غداً صباحاً. لكني أعرفك: عنيد وراسك يابسة. أخرج الآن من ووهان، وسترى. إن بقيت، لن تستطيع الخروج طوال أشهر، يقولون إن الإقفال سيدوم طويلاً».

أنهيت الاتصال. وبقيت هكذا واقفاً، مستغرقاً في التفكير: أأخرج؟ عليّ القرار بسرعة. لكن إلى أين؟ ولم؟ هل الخروج أأمن من البقاء في مكاني؟.

كالذي لا يعرف ما يريد بقيت واقفاً. الهاتف بيدي. أنظر إليه، لكن عيني تحدقان إلى المجهول. تذكرت بيتين من قصيدة للشاعر المصري أحمد فؤاد نجم يسأل فيهما: «والخوف يجي ليه»؟ ثم يجيب «من عدم الشوف»، أي من قلة الوضوح في الرؤية. حسناً، لم يكن شعوري هو الخوف، فهذا الأخير، على العكس، يدفعك للتهور وليس للتمهل. أما أنا فكنت متمهلاً، لا أرى

بوضوح. كنت «جاهلاً»، بمعنى أن معلوماتي كانت قليلة عن عالم الفيروسات، لذا كنت متردداً في اتخاذ قرار.

تماماً في هذه اللحظة، ازداد الطين بلّة! فقد وصلتني رسالة من أختي حنان في لبنان، تسأل باختصار صارم «أدهم؟ شو قصة كورونا؟».

قلت في نفسي: «يا سلام! هذا يعني أن الخبر لم يصل إلى لبنان فقط، بل وصل منزل أهلي! ماذا أقول لهم؟ القرار الآن أصعب! مازلت غير واثق بخطوتي المقبلة، فكيف أعطيهم جواباً يطمئنهم؟».

كنت أعلم أنهم لن يطلبوا مني الخروج من المدينة ولو أنهم يتمنون بشكل مؤكد أن أفعل. فإن كنت أنا في مركز الحدث ومعلوماتي قليلة عما يحصل، فكيف بهم، ولا معلومات البتة لديهم؟ قد يتصورون أن ابنهم، كما في الأفلام التي تتحدث عن انتشار الأوبئة التي قد يكونون شاهدوها، في الجحيم شخصياً!.

قلت لأختي إن الوضع بدأ يصبح أصعب، وأضفت محذراً «إياك أن تخبري أمي بما سأقوله: لقد صدر اليوم قرار رسمي بعدم السماح لأي كان بالدخول إلى ووهان، وعلى الأرجح سيمنعون الخروج منها خلال يومين على الأكثر. لكن، حتى هذه اللحظة لا يوجد منع».

أردت أن أبقي كل الاحتمالات قائمة، بما فيها خيار البقاء في ووهان. وهو خيار من الصعب تقبله على من هو خارج المدينة، فكيف بالأهل؟. كنت أعلم أنهم سيحترمون قراري مهما كان، ولكن، كان عليّ إيجاد المبررات التي قد تخفف من قلقهم في حال بقائي، فهذه ليلى، وهي حتى ليست بعيدة، نموذج حي عن القلق. كان عليّ اقناعهم. سألتني أختي بريبة: «أنت بخير أليس كذلك؟». حاولت ألّا أجيب عن السؤال مباشرة، فاحتمال إصابتي بالفيروس وارد، ليس فقط في المستقبل، بل حتى في لحظة المحادثة هذه، ولكن لم تظهر عليّ العوارض بعد.

تقترح أختي: «تعال. سندبر لك ثمن التذكرة لتعود وتبقى إلى أن تمر الأزمة فتعود إلى الصين. ما رأيك؟».

هذا ما كنت أتوقعه. لكن هذا الاقتراح كان يضعني تحت ضغط إضافي. حاولت مجدداً تشتيت انتباهها عن السؤال «الجوهري»، مردداً ما كنت أعرفه من معلومات، من أن الفيروس موجود منذ شهر تقريباً، لكنه بدأ الآن ينتشر، وأنه كان بداية محصوراً ببعض الأحياء، وأن المصابين كانوا معزولين «لكن الظاهر أن الفيروس تسرب إلى أماكن خارج الأماكن الموضوعة تحت المراقبة».

أكتشف مع أسئلتها أني لا أعرف الشيء الكثير، فكما قلت سابقاً: كنت منشغلاً في الجامعة خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، لا أتابع الأخبار أو أسأل عن تفاصيل إضافية على الرغم من أنني كنت أضع الكمامة بشكل دائم كموظفي المكتبة والعدد القليل من الطلاب المتبقين. لذا لم أستطع أن ألاحظ تغيرات في حياة المدينة اليومية.

تسأل: ما هو بالضبط هذا الفيروس؟ أقول لها إنه فيروس انتشر مثله سنة 2002-2003. يقال له «كورونا».

فتضيف إلى التعقيد تعقيداً متسائلة «حسناً ما هو تأثيره؟». أجبتها بأنه «يأتي عادة من الاحتكاك بالحيوانات، والجديد انه أصبح معدياً ويصيب خصوصاً الجهاز التنفسي». ثم أرسلت لها أحد الفيديوهات باللغة الإنكليزية، كان قد وصلني من مجموعة السكن الجامعي يشرح كيفية انتقال العدوى، العوارض وأساليب الوقاية. إلّا أن هذا الفيديو لم يكن يتحدث عما أصبح يعرف فيما بعد بفيروس «كورونا الجديد»، بل عن آخر نسخة ظهرت من فيروسات سلالة كورونا، وقد أطلق عليه اسم «ميرس» وكان قد ظهر في الشرق الأوسط سنة 2012.

لكن حنان لم تكن تتصرف إلّا كأخت. فهي فعلياً لا تسأل عن معلومات، بل تحاول أن تطمئن إلى أني بخير وأني سأكون في المستقبل أيضاً بخير. وبالتالي بالنسبة لها الحل الوحيد هو الخروج من ووهان. لذا أجابتني «حسناً، نظم أمورك وتعال. تفقد بكم التذاكر لنتصرف ولكن لا يمكنك البقاء» تقصد في ووهان.

في الحقيقة، لم أكن أعلم وأنا أراوغ أختي، لماذا فكرة البقاء هي التي تدور أكثر في بالي؟ ولماذا كنت أحضّر فعلياً لهذه الفكرة، مع العلم أن احتمال الخروج كان وارداً؟

قلت لها بما معناه أني سأحاول إيجاد تذكرة لخارج المدينة مضيفاً تلك العبارة التي ستساعدني على الترويج لفكرة البقاء، لا بل التي سترجح كفتها حتى عند أهلي «المشكلة تكمن في ازدحام محطات القطار والمطار أيضاً، فتلك الأماكن هي الأكثر عرضة لانتشار العدوى، ربما من الأفضل أن نبقى في أماكننا».

العودة إلى الكنز

ما إن أنهيت المحادثة، حتى عدت لقراءة النصوص التي كنت قد حصلت عليها. جلست أتصفح هاتفي في سريري. فالطقس كان بارداً جداً.

كنت ألتهم المعلومات الواردة في تقرير منظمة الصحة العالمية، ولا أريده أن ينتهي لغناه بالمعلومات. فهذا التقرير بملاحقه، جعلني أطّلع بشكل مفصل على التسلسل الزمني لظهور الفيروس. إضافة لتوثيق استجابة السلطات الطبية الصينية لانتشاره منذ لحظات تشخيصه الأولى وحتى إصدار التقرير[1] . ولأهميته التاريخية، انقل هنا بعض أجزاء النص التي تهمنا في سردنا كما وردت على موقع المنظمة.

«في 11 و12 كانون الثاني/يناير 2020، تلقت المنظمة معلومات إضافية مفصلة من لجنة الصحة الوطنية عن هذه الفاشية. والمنظمة مطمئنة إلى جودة التقصيات الجارية وتدابير الاستجابة المطبقة في مدينة ووهان والالتزام بإطلاعها على كل ما يستجد من معلومات بشكل منتظم.

ووفقاً للتقصي الوبائي الأولي، فإن معظم الحالات لأشخاص إما يعملون في سوق بيع المأكولات البحرية بالجملة (هوانان) وإما يتعاملون معها ويزورونها بشكل منتظم. وقد أُغلقت هذه السوق في 1 كانون الثاني/يناير 2020. ولم تنتقل العدوى في هذه المرحلة بين العاملين في مجال الرعاية الصحية ولا توجد أدلة واضحة على انتقالها بين البشر. وتواصل السلطات الصينية في هذه الأثناء عملها من خلال تدابير الترصّد والمتابعة المكثفة فضلاً عن المزيد من إجراءات التقصي الوبائي.

وقدّمت الصين التسلسل الجيني لفيروس كورونا المستجد في 12 كانون الثاني/يناير، مما يكتسي أهمية كبرى للبلدان الأخرى التي ستتمكن من استخدامه في تطوير أدوات تشخيص محددة.

وقد أُبلغ عن مجموعة الحالات هذه لأول مرة في 31 كانون الأول/ديسمبر 2019، من خلال المكتب القُطري للمنظمة في الصين. فقد اكتشفت السلطات الصينية نوعاً جديداً من فيروس كورونا (فيروس كورونا المستجد) وتم عزله في 7 كانون الثاني/يناير 2020. وأجريت الفحوص المختبرية على جميع الحالات المشتبه في إصابتها بالفيروس خلال مرحلة التقصي الناشط والمراجعة الاستعادية للحالات. وأدّى ذلك إلى استبعاد المُمرضات التنفسية الأخرى كالإنفلونزا وإنفلونزا الطيور والفيروس الغدّي وفيروس كورونا المسبب للمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة (السارس) وفيروس كورونا المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية (ميرس).

ووفقاً للمعلومات التي أبلغت بها السلطات الصينية المنظمة في 11 و12 كانون الثاني/يناير، فقد أشارت التشخيصات الأولية التي أجريت في مدينة ووهان إلى إصابة 41 حالة بفيروس كورونا المستجد... وبدأ ظهور الأعراض بين الحالات الـ41 المؤكدة خلال فترة امتدت من 8 كانون الأول/ديسمبر 2019 إلى 2 كانون الثاني/يناير 2020. ولم يُكشف عن أي حالات إضافية منذ 3 كانون الثاني/يناير 2020.

ولم يُبلغ في الوقت الحاضر عن أي حالة إصابة بفيروس كورونا المستجد في أي مكان آخر غير ووهان.

أوفدت لجنة الصحة الوطنية الصينية مجموعة خبراء إلى مدينة ووهان لدعم تدابير الاستجابة المحلية (...)».

ما لفت انتباهي في هذا التقرير الذي كان قد أصدر قبل 14 يوماً، قضيتان أساسيتان: الأولى أنه إلى حين صدوره، كان هناك تقدير بعدم انتقال الفيروس بين البشر، لعدم وجود أدلة. لكن تبين أن هذا التقدير غير صحيح فيما بعد، وربما يكون قد تسبب بانتشاره الواسع. فعدم ظهور العوارض بشكل مباشر وفي بعض الحالات عدم ظهور عوارض بالمرة، إما أنه قد خدع العاملين الطبيين في ذلك الوقت، وإما أن عمليات التشخيص لم تكن كافية. فضلاً عن احتمال ثالث هو أن يكون الفيروس قد طوّر نفسه وأصبح أكثر فتكاً بمرور الوقت.

أما القضية الثانية، فكانت تقديم الجهات العلمية الصينية للتسلسل الجيني في 12 كانون الثاني/يناير. وهذا كان حسب المنظمة، أمراً مهما جداً ليس فقط للصين، بل لكل الجهات العلمية في الدول الأخرى كي تبدأ «تطوير أدوات تشخيص محددة» حسب تعبير المنظمة.

أما خبر إغلاق سوق بيع السمك بالجملة وعدد المصابين فيه، فقد أثار قلقي. فأسواق السمك الصغيرة والمتوسطة تنتشر في كل مكان في المدينة، وأنا على احتكاك دائم بها. فهل يعقل أن يكون أحد العاملين في تلك الأسواق مصاباً؟ وتذكرت سريعاً: يا إلهي، هناك محل لبيع السمك تماماً أسفل المنزل الذي أوجد فيه حالياً! وسمعت نفسي أقول بصوت عال «هاي علقة».

هكذا أغلقت ووهان

كانت المدينة قد بدأت تعد نفسها لعزل لا أحد يعلم بعد كم كان سيطول. لم تكن لدي فكرة عن طبيعة هذا العزل: هل هو عن العالم الخارجي فقط؟ أي إغلاق للمطار ومداخل المدينة؟ أو أنه سيشمل حركتنا داخل المدينة نفسها؟ وإن كان سيشملها، كيف سيتم ذلك؟ كان الأمر يتجاوز مخيلتي. فأنا لم أعش شيئاً مماثلاً من قبل بالرغم من أني آت من بلاد تتوالى فيها كل أشكال الحروب والنزاعات والكوارث.

صباح 23 كانون الثاني/يناير، لم أكن واثقاً أن ضيوفي سيستعدون للاحتفال الذي كنا برمجناه لرأس السنة الصينية. ومع ذلك، بدأت تحضير المنزل. كان من المفروض أن تأتي عائلة مي الصينية وأصدقاء آخرين. لكن، تبين من الأخبار، أن قرار الإغلاق قد شمل وسائل النقل العام. لم تعد هناك إمكانية لاستخدام الباص أو المترو. تواصلت مع أصدقائي، اعتذر الأصدقاء عن الحضور. أما عائلة مي، فقد اقترحت عليّ أن أنضم إليها في منزلهم الواقع في حي هان-كو، على أن يقلني ابنهم بسيارته الخصوصاً. لكني كنت قد حصلت على بعض التقديرات التي تفيد بأن هذا الحي تحديداً قد يكون الأخطر من حيث انتشار الفيروس. وبالتالي اعتذرت.

حسناً، بما أن سبب وجودي هنا في «منزل نان-خو» قد انتفى، فلا احتفال ولا من يحزنون، فلمَ لا أعود إلى سكني الجامعي؟ تواصلت مع «بيري» مسؤولة الطلاب الأجانب في كلّيتي، وسألتها إن كان من الأفضل البقاء مكاني أو العودة إلى الجامعة؟. فأجابتني دون تردد: ابق مكانك. وبقيت.

حسناً، بقيت. لكني لم أكن أتخيل أنني سأبقى هنا أكثر من أربعة أشهر! كان مفترضاً أن أبقى ليلتين فقط. لكني وجدت نفسي محجوراً في هذا المنزل حتى الآن، وأنا أكتب هذه السطور.

لا. ليس تفصيلاً بسيطاً. فأنا في مكان، عكس السكن الجامعي، لا أعرف أحداً فيه. كما أني لا أعرف الحي بشكل جيد. فلم أكن قد زرته سابقاً إلّا مرات قليلة. إضافة إلى ذلك، كنت قد حملت معي ثلاث قطع من الثياب فقط، إضافة إلى بنطلون واحد وضعته في الغسيل عند وصولي. هكذا وجدت نفسي.. دون بنطلون في يومي الأول، في حين أن الحرارة في الخارج كانت دون الصفر.

كان هذا اليوم يوم الإشاعات والأخبار الكاذبة بامتياز في ووهان. أذكر تماماً كيف بدأ الترويج إلى أن «الطيران الحربي الصيني سيرش ووهان من الجو، بمواد خصوصاً، لأن الأمور خرجت عن السيطرة». أو مثلاً: أن السلطات الطبية «ستنقل المصابين إلى مكان خاص مما سيجعل الفيروس ينتشر في كل مكان». كما تداولت مواقع التواصل الاجتماعي الصينية فيديو مفبركاً على أنه لفتاة كانت تأكل الخفافيش في أحد مطاعم ووهان!! وهذا الفيديو انتشر بشكل كبير وبدا كمحاولة لتوجيه الأنظار إلى مصدر محدد لأصل الفيروس، بعيداً من أية أسباب محتملة أخرى.

كنت أحصل على هذه الأخبار عبر مجموعة السكن الطلابي على ويتشات. كان هناك عدد لا بأس به من الطلاب الأجانب الذين لايزالون في ووهان، عكس الطلاب الصينيين الذين غادر معظمهم قبل هذه الأزمة إلى قراهم وبلداتهم.

طلبت من صديقي رودجر، أن يذهب من أجلي إلى ما كان يطلق عليه اسم «الدكان العربي» للتزود ببعض المواد الغذائية. ففي الجامعة كان يوجد متجران لبيع هذه المواد الخصوصاً بمطبخنا العربي التي لا يمكن أن تجدها في متاجر أخرى، مثل الخبز ومعلبات الفول والحمص والعديد من المنتجات الأخرى. كان قد وصلني أن هذا المتجر سيغلق أبوابه بعد الظهر. وكان من المتوقع أن يشهد إقبالاً كثيفاً من الطلاب المسلمين خصوصاً، حيث أن كل منتوجاته مصنفة «حلال».

كنت أعتقد أني قريباً سأعود إلى الجامعة. وبالتالي ربما أحتاج إلى هذه المنتجات. وعبر اتصال بالفيديو، كنت أوجّه رودجر إلى المنتجات التي يجب شراؤها، فهو ليس عربياً ليعرف أهمية الفول مثلاً، أو لم يهمنا أن نخزنه. لكنه فهم على الأرجح خلال دقائق قليلة، حيث بدأ المتجر يمتلىء بالطلاب. فطلبت منه أن يشتري الكمية التي يستطيع حملها.

أضحكني عندما سأل «لكن لماذا نريد كمية كهذه من الفول؟». حاولت أن أفسر له أني لا أجيد الطبخ وأن الفول سهل التحضير، كما أننا لا نعلم كم سيطول هذا الأمر. وبكل الأحوال كل هذه المنتجات لا تتلف إذا تم تخزينها.

في اليوم التالي، أي 24 كانون الثاني/يناير، بدأت إجراءات العزل تتوسع. تم إغلاق بعض الجسور والأنفاق الرئيسة التي تربط شطري المدينة على ضفتي نهر «يانغتسي». كما أن حركة سيارات الأجرة العمومية بدأت تصبح محدودة جداً. وخلال يومين فقط توقفت عن العمل تماماً، وكذلك بالنسبة إلى الدراجات. وبحلول مساء يوم 25 كانون الثاني/يناير، كانت ووهان قد أقفلت بالكامل. وشمل هذا الإجراء الدخول والخروج من المدينة، واستخدام وسائل النقل العامة وسيارات الأجرة. وبالتالي لم يعد بالإمكان الذهاب أبعد مما قد توصلك إليه قدماك.

الاستثمار في الجهل

كنت وحيداً في منزل يحتوي على أربع غرف: اثنتان للنوم، واحدة للجلوس وأخرى للطعام. وعلى جهتيه الجنوبية والشمالية يوجد شرفات. الجنوبية تشرف على الطريق العام، بينما الشمالية تطل على حديقة داخل المجمع السكني. أسفل هذه الشقة التي تقع في الطابق الأول من مبنى مكون من ست طبقات، كان هناك متجر لبيع الفواكه والخضار يطل مباشرة على الشارع العام. أما مالكوه فقد كانوا يسكنون في الشقة المجاورة من الجهة الشرقية، لذا كانوا يستخدمون باباً داخل المبنى للدخول إلى المتجر ويبقونه مفتوحاً. حيث أنه يمكن الخروج منه مباشرة إلى الشارع دون الحاجة إلى استخدام المدخل الرئيس للسكن.

لمَ أشرح كل هذا؟ لأنه في هذا المتجر كان يباع، بالإضافة إلى الفواكه والخضار، بعض السمك الطازج. فبيع السمك أصبح في ذهني مساوياً لاحتمال الإصابة بالفيروس المستجد. كما أنه منتشر في معظم المتاجر المتوسطة الحجم والتي تديرها عائلات، حيث يضعون بعض الأوعية البلاستيكية أمام المحل، ويعرضون فيها أسماكاً لا تزال حية، يصطادونها يومياً من البحيرات والنهر أو يحصلون عليها من أسواق البيع بالجملة.

كان هذا أمراً غريباً بعض الشيء بالنسبة لي. ففي بلدي لا نشتري السمك حياً. لذا كنت عندما أشتري السمكة، لا أفهم ما الذي عليّ فعله عند وصولي إلى المنزل! فكنت أحياناً كثيرة أنتظر يوماً كاملاً حتى «تموت» وحدها، لأجرؤ على البدء بتنظيفها!

ولنعد إلى متجرنا. بما أن بيع السمك صار مساوياً في ذهني لاحتمال الإصابة بالعدوى، لذا فمن الممكن لهذه العائلة التي تقطن في الشقة المجاورة أن تكون حاملة للفيروس. فإن كانوا يحصلون على الأسماك من السوق نفسه الذي قالت السلطات إن معظم المصابين كانوا من العاملين فيه، أو على احتكاك به، فهذا يعني أن احتمال إصابة هذه العائلة، كبير، واحتمال أن تنتقل إليّ العدوى عند الخروج والدخول إلى المنزل كبير أيضاً.

لكني بعد ذلك استبعدت الاحتمال. فسوق هان-كو بعيد جداً من هنا، وطبعاً هناك سوق لبيع السمك بالجملة في هذا الحي. لكن، مع ذلك، الحذر واجب.

بعد انتشار المعلومات عن سوق السمك، قامت إحدى الوكالات الغربية بإعداد تقرير مصوّر من أمام ذلك السوق الذي أقفلته السلطات، وانتشر هذا التقرير بين أوساط الطلاب الأجانب بشكل كبير. قيل في التقرير إنه وُجد داخل السوق متجر يبيع بشكل غير شرعي لحوم الحيوانات البرية ومن ضمنها الخفافيش. وبناء على هذا التقرير وهذه المعلومات بدأت الأحاديث تتكاثرعن النظام الغذائي للصينيين، كما انتشرت فيديوهات بالمعنى نفسه على مواقع التواصل الاجتماعي الصينية والأجنبية، على أنها مصورة في ووهان، ما جعل هذه الرواية الأكثر رواجاً، ورسخ في الوعي العام العالمي وحتى الصيني، أن سبب انتشار الفيروس هو النظام الغذائي المثير للجدل للصينيين بشكل عام ولسكان ووهان بشكل خاص.

لكن، بما أنني من الشرق الأوسط، ومتمرس بملاحظة آليات البروباغندا وأساليب الترويج للإشاعات والفبركة الإعلامية، فباستطاعتي تمييز الحملات التضليلية ما أن أتابع بعض الأخبار وأتقصى مصادرها وطريقة انتشارها.

فبلادنا تقع في عين إعصار الحروب الإعلامية والنفسية. شككت لدى متابعة هذه الفبركات، من وتيرتها وغموض مصادرها أو تزييفها، بأنها ليست مجرد صدف. كان الأمر أشبه بموجة، موجهة، ومروّج لها. فمن قام بتحريف الفيديوهات وتقديمها على أنها في ووهان مثلاً، لم يكن عمله بريئاً. خصوصاً وأن هذه الأفلام انتشرت بشكل كبير، ولعبت دور أساسياً في تعبئة الرأي العام العالمي ضد الشعب الصيني ومنذ اليوم الأول.

بداية لم أكن أعرف مصدر تلك الفيديوهات، ولكن كنت متيقناً أنها ليست في ووهان. فملامح الأشخاص الذين يظهرون فيها لا تشبه الصينيين، والأهم أنني تقريباً أعرف كل أحياء هذه المدينة، وأكلت في مطاعمها وأعرف نظامها الغذائي وعادات أهلها. كما أني، من الذين يحبون تجربة المأكولات الغريبة. إلّا أني خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في هذه المدينة، لم أر يوماً مطعماً يقدم الخفافيش مثلاً، أو أي سوق يبيعها، أقله بشكل علني، مما يتعارض تماماً مع تلك الفيديوهات التي عرضت أسواقاً متخصصة ببيع الخفافيش بشكل علني. ليتضح بعد ذلك أن هذه الفيديوهات صورت في أندونيسيا وجزيرة بالو (Palau).

لم أكن أستطيع إلّا أن أربط بين هذا التضليل الإعلامي المكثف، وحملات التضليل والتعبئة ضد الصين التي تابعناها خلال الأسابيع القليلة التي سبقت انتشار الفيروس. حيث شهد العالم حملة ممنهجة تتحدث عن اضطهاد السلطات الصينية للصينيين من قومية «الإيغور»، لأنهم مسلمون. مما أوجد حالة من النفور لا بل الكراهية احياناً، تجاه الصين من قبل العرب والمسلمين.

كنت سابقاً قد حاولت نقل الصورة الحقيقية عن واقع المسلمين في الصين، خصوصاً الإيغور، حيث أن العديد من زملائي في الجامعة هم من هذه القومية! كما أن مطاعمهم موجودة في كل مكان في ووهان، وأنا من الرواد الدائمين لهذه المطاعم، خصوصاً أن نظامهم الغذائي مشابه إلى حد بعيد لنظامنا الغذائي، وبشكل خاص استخدام الخبز ولحم الغنم. وبالتالي أقمت علاقات صداقة مع الكثيرين منهم، وأعلم جيداً أن ما يحق لهم في مدينة ووهان مثلاً لا يحق لغيرهم، وهذا الأمر يعرفه كل الأجانب. أذكر مثلاً حادثة حصلت معي ومع صديق سوري في الشهر الأول على وصولي إلى ووهان، حيث كنا نستخدم دراجة نارية غير شرعية لأنها تعمل على «البنزين»، وعندما وصلنا إلى جانب حاجز للشرطة، قالوا لنا قفوا على اليمين، ولكن عندما وصل الشرطي إلى جانبي قال لزميله هؤلاء «شنجان» دعهم يمرون. حيث اعتقد أننا من إقليم شينجيانغ الذي يسكنه الإيغور لأن ملامحنا، بحسب الصينيين، تشبههم وخصوصاً لأن لي لحية. الأمر نفسه ينطبق على باقي الأقليات القومية، التي تحصل على امتيازات خصوصاً لا يحصل عليها الصينيون من قومية «هان» الذين يمثلون 91% من الشعب الصيني (تسهيلات تشجيعية للالتحاق بالجامعات، الحق بإنجاب أكثر من طفل)[2] .

كنت دائماً أربط هذه السهولة في فبركة وترويج أخبار كهذه أو أفلام حول الصين، بجهلنا بمنطقة شرق آسيا بشكل عام. فلأسباب جغرافية ولغوية وأيضاً ثقافية، نحن كعرب لا نعرف الكثير عن هذه المنطقة من العالم. فمثلا، نحن ننظر إلى كل من له ملامح آسيوية على أنه صيني، وبالتالي يصبح الأندونيسي والياباني والتايلندي والكوري والفيتنامي وغيرهم، كلهم في نظرنا صينيين. وبالتالي يصبح جهلنا بهذه المنطقة مادة استثمار مغرية. فكانت الفيديوهات تنشر على أنها في الصين، ولكن تدقيقاً بسيطاً لأي شخص عاش أو زار الصين يمكنه أن يميز، من ملامح الأشخاص في الفيديوهات ولهجتهم وحتى المكان، أن هذه الفيديوهات ليست مصورة في هذا البلد.

لذا، فهمت منذ تلك اللحظة، أننا مقبلون على حملة تشويه جديدة، هي استكمال لحملة التشويه القائمة على أساس ديني، ولكن هذه المرة سيكون عنوانها «فيروس كورونا». حملة لزرع العداء بين الشعب الصيني والشعوب الأخرى، بهدف عرقلة أي دور مستقبلي للصين على الصعيد الدولي.

إنه عالم ظالم

وأنا أحاول التأقلم مع هذا الواقع الجديد، كان عليّ أيضاً أن أتأقلم مع هذا المنزل. فمنذ خمس سنوات وأنا أعيش في سكني الجامعي المؤلف من غرفة واحدة تستخدم للنوم والدراسة واستقبال الضيوف، بالإضافة إلى مطبخ صغير يقع في زاوية من ممر بين غرفتي وغرفة زميل من بنغلادش، وأيضاً حمام خاص بي يقع في الزاوية الأخرى الملاصقة لغرفتي. وعلى عكس هذا المنزل الكبير نسبياً، وشبه الفارغ من الأثاث، كنت قد حولت غرفتي الجامعية إلى ما يشبه المتحف. فملأت جدرانها بالصور. وكان كل من يزورني يمضي وقتاً لا بأس به يتفحص تلك الجدران مستطلعاً الصور والقصاصات التي كانت في الواقع نوعاً من التعبير عن هويتي والقضايا التي أؤمن بها.

في السكن الجامعي يعيش طلاب من مختلف الجنسيات. وأنا أحب أن أتعرف إلى باقي الثقافات، كما أسعى لنشر الوعي بقضايانا المحقة بينهم وخصوصاً قضية فلسطين التي تتعرض لمحاولات مستميتة لتزييف المعلومات عنها وطمسها. لذا فإن معظم الصور والقصاصات كانت متعلقة بهذه القضية: صورة للمناضلة الفلسطينية ليلى خالد وهي تضع الكوفية على رأسها، روزنامة صادرة عن الحزب الشيوعي اللبناني سنة 2015، وكنت أحتفظ بها منذ قدومي أول مرة إلى الصين، وقمت بتثبيتها على شهر حزيران/يونيو حيث توجد لوحة بصور شهداء الحزب الذين تم استرجاع رفاتهم من مقابر الأرقام لدى العدو الصهيوني سنة 2004.

أما الحائط الآخر، الذي يواجه نافذة كبيرة تطل على حديقة السكن، فقد ثبتّ حبلاً من الكتان على شكل حبل الغسيل، ونشرت عليه مجموعة قصاصات وصور، منها لوحة فلسطينية مشهورة

لأحد مناضلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين غسان كنفاني، وإلى جانبها طفل يرفع راية النصر وكتب خلفه «سنخلع الموت من أقدامنا ونمشي حفاة إلى الشمس».

هذه القصاصات كانت منطلقاً لنقاشات طويلة مع زملاء من أطراف الدنيا. كثيرون كانوا يزورونني لأساعدهم في كل ما يتعلق بالرياضيات والإحصاء. حيث إن طلاب الاقتصاد عادة لا يحبون هذه المواد إلّا أنهم مضطرون للتعاطي معها. فالاقتصاد الحديث يعتمد بدرجة كبيرة على تحليل البيانات والعلاقات بين المتغيرات الاقتصادية، وهذا كان مجال تخصصي، خصوصاً أن خلفيتي العلمية هي الرياضيات والإحصاء.

في إحدى الليالي، وعلى أبواب اختبار مادة الاقتصاد القياسي، كنت أدرس مع إحدى الصديقات من البرازيل. قالت معلقة بعد حوار مستفيض حول فلسطين والشرق الأوسط والعلاقات الدولية «لقد أخبرت صديقتي في البرازيل عنك، وهي إسرائيلية. إذا زارتني هنا في ووهان أريدك أن تتناقش معها».

أجبتها «إن كانت إسرائيلية فلا نقاش بيننا».

بدت المفاجأة على وجهها وهي تتعرف إلى شخصيتي الصارمة. فهي تعرفني كشخص لا يتأخر عن تقديم المساعدة لكل من يحتاج إليها، المتسامح إلى أبعد الحدود. عبرت عن دهشتها بقولها «ما هذا التعصب؟ النقاش يساعد على تقريب وجهات النظر، بغض النظر عن خلفياتنا الدينية».

استدركت سريعاً أنها تخلط ما بين الجنسية الإسرائيلية والديانة اليهودية، فسألتها مدققاً: أهي يهودية أم إسرائيلية؟. أجابت «كلا، هي فقط يهودية برازيلية».

أجبت، «إن أتت إلى ووهان لن أقبل إلّا أن أستقبلها بنفسي في المطار، خصوصاً إن كانت جميلة. نحن لا مشكلة لدينا أبداً مع اليهود. صراعنا ليس صراعاً دينياً، بل على العكس. الصهاينة هم من يحاول أن يصوره هكذا. قضيتنا هي قضية أرض تم احتلالها وقتل وتهجير أهلها، قضيتنا قضية وجود. لذا فمن يحمل الجنسية الإسرائيلية هو في نظرنا مستوطن يحتل أرضنا. أما اليهودي في أي مكان في العالم فلا مشكلة لنا أبداً معه طالما أنه لا يدعم إسرائيل التي تحتل أراضينا».

أجابت وهي تستعيد توازنها «ولكن إلّا أن تناقش أيضاً أولئك الذين ولدوا هناك؟ ما ذنبهم؟». حسناً، لقد سمعت هذه الحجة من قبل. قلت لها «تخيلي معي أنك عدتِ إلى مدينتك في البرازيل، ووجدت أناساً من جنسيات مختلفة قد احتلوها وقتلوا أهلك وسكنوا بيتك وزرعوا أرضك وجنوا محاصيلها وطردوك من منزلك. وعندما قلت إنها أرضي وبيتي وبلدي قالوا لك بل بلدنا وأرضنا لأننا من الدين الفلاني وقد سبق أن كنا هنا قبل ألفي عام مثلاً !

تقولين لهم، لا علاقة بين الأرض والدين. الأرض والشعوب التي عليها موجودة قبل الأديان. لا يحق لكم بأن تحتلوا بيتي بعد قتل وتهجير أهلي فقط لأنه في العصور الغابرة ظهر الدين الذي تؤمنون به هنا. وإلا لكان لكل مسيحي في العالم حق بأن يمتلك بيتاً وأرضاً في فلسطين أيضاً. وكل مسلم في العالم حق في مكة. فبم يجيبون محاورهم؟ بكل بساطة: ارحلي وإلا قتلناك».

أضفت، «ماذا سيكون موقفك حينئذ؟ على ماذا سنتحاور بالضبط؟ هم محتلون، لديهم أوطان وجنسيات أخرى، معظمهم من أصول روسية أو أرجنتينية أو أوروبية، وأجدادهم من تلك البلاد، أما اليهودي الفلسطيني، فهو ببساطة فلسطيني وليس إسرائيلياً! هو ابن فلسطين وأجداده من هناك ولا جنسية أخرى لديه، وكان يعيش مع الفلسطينيين الآخرين من مسيحيين ومسلمين ولادينيين منذ مئات السنين وحتى قبل الأديان السماوية. وبالمناسبة، من يتكلم عن الحق التاريخي، يتجاهل أن منطق الدول والحدود نشأ منذ فترة قصيرة تاريخياً، قبلها كانت الشعوب تنتقل بشكل دائم، وأينما تحل يصبح موطنها. لكن الصهاينة وهم بالمناسبة نسخة عن النازيين وأيضاً عن داعش، هم من دمروا العلاقة بين مكونات فلسطين، وجاءوا من كل مكان في العالم واحتلوا الأرض بدعم من الإمبريالية والغرب.

بالرغم من ذلك، حاور عرب كثيرون الصهاينة، لكنهم لم يحصدوا إلّا الخسائر والمزيد من القتل والاحتلال، وما السلطة الفلسطينية الحالية إلّا مثال على ذلك. لم يتبق من فلسطين التاريخية إلّا 3%، وهي مناطق محاصرة بالكامل وتتعرض للاعتداء باستمرار واضطهاد أهلها، ومحاصرتهم بالمستوطنات التي يعتبرها حتى مناصرو إسرائيل غير شرعية. لذا، فالخيار الوحيد في التعامل معهم هو إما أن يرحلوا عن أرضنا، فيعود الروسي إلى روسيا والأثيوبي إلى أثيوبيا والبولندي إلى بولندا..الخ. وإما أن هذه الحرب لن تنتهي أبداً».

قالت بعد أن أنصتت بانتباه «يبدو أن الأمر معقد أكثر مما كنت أتخيل. نحن لا نعرف الكثير عن هذه القضية، فما نسمعه عادة يكون عبر الطرف الإسرائيلي». علقت كمن يحدّث نفسه: «نعم، إنه عالم ظالم».

الصرخة

24 كانون الثاني/يناير

إنه يومي الثاني في هذا البيت. أصوات احتفال كانت تتناهى إليّ من الشقة المجاورة. فحسب التقاليد الصينية، إنه اليوم الذي تجتمع فيه العائلة حول مأدبة الطعام. ويبدو أن هذه العائلة هي أصلاً من ووهان. مزيج من أصوات أطفال وكبار في السن كانت تختلط ببهجة.

كانت الساعة تشير إلى موعد الغداء. وأنا لا أجيد الطبخ، ومعظم الوقت، أرتاد المطاعم الصينية، وهي بالألوف. فالصينيون لا يأكلون كثيراً في منازلهم.

حسناً. فلأطبخ ما تيسر.

توجهت إلى المتجر واشتريت كمية من الخضار. أكثرت خصوصاً من البصل والثوم والبطاطا، الأساسية في أطباقنا، إضافة إلى البيض والطحين والأرز. لاحظت أن المتجر توقف عن بيع الأسماك، وهذا يعود إما لأن الحكومة ضمن إرشاداتها كانت تطلب عدم الاحتكاك بالحيوانات الحية، وإما لأن الأسواق الكبيرة تم إغلاقها جميعاً، وبالتالي لم يعد هناك إمكانية للحصول على السمك.

عندما عدت إلى المنزل، وجدت أن نعيم، صديقي اللبناني، قد أرسل لي عبر الويتشات مذكرة أرسلتها السفارة المغربية إلى مواطنيها في ووهان، وهي تحمل عنوان «إعلان 2»، ما يعني أنه كان هناك رسالة سابقة ربما أرسلت بالأمس. تقول المذكرة «تبعاً للإعلان السابق بخصوص تفشي فيروس كورونا في الصين وخصوصاً مدينة ووهان – إقليم هوبي – تدعو سفارة المملكة

المغربية ببكين عموم الجالية المغربية المقيمة بجمهورية الصين الشعبية الراغبين في مغادرة الإقليم الصيني المذكور أن يبعثوا عبر البريد الالكتروني المعلومات التالية...».

ثم أخبرني نعيم أنه قد سمع أن السفارة العراقية أيضاً ستبتاع تذاكر لمن يريد من مواطنيها الرحيل، مضيفاً برسالته: «أليس لدينا سفارة نحن كلبنانيين في الصين أم ماذا؟».

سؤال وجيه. قلت له «انتظر لأستفسر».

كان الحديث عن احتمال إجلاء الأجانب من ووهان قد بدأ ينتشر خصوصاً بين الطلاب، وكان أول من عبّر عن ذلك قنصلية الولايات المتحدة في ووهان، وتبعتها اليابان وأستراليا. إلّا أنه إلى ذلك الوقت، لم يكن هناك أي تحرك فعلي في هذا الإطار، فلم يمض على إغلاق ووهان إلّا يوم واحد.

أما اللبنانيون في ووهان فلم يكن عددهم كبيراً. فبالإضافة إلى نعيم وأنا، كنت أعرف أن هناك طالبين آخرين. أحدهم سافر إلى لبنان بداية عطلة الربيع، والآخر لم أكن على تواصل معه منذ أن استقبلته في محطة القطار عند وصوله الأول إلى ووهان قبل سنة. أما باقي الطلاب اللبنانيين في الصين فكنا قد تعرفنا إلى بعضهم خلال عطلة الصيف في وطننا. فقد قامت السفارة الصينية في لبنان يومذاك بدعوتنا إلى غداء تعارف. وبعد هذا اللقاء قام الملحق الثقافي الصيني في لبنان بإنشاء مجموعة للتواصل بيننا على «ويتشات».

من خلال هذه المجموعة تحديداً، تواصل معنا الملحق الصيني في لبنان للاطمئنان، وخصوصاً معي لأنه كان يعلم أني في ووهان، كما سألني إن كان هناك أي طالب لبناني قد عاد أخيراً من ووهان إلى لبنان، فأجبته بالإيجاب، حيث يبدو أنهم كانو يتابعون كل من خرج من المدينة. كما أن أحد العاملين الصينيين في السفارة بلبنان، وهو صديق شخصي يتكلم العربية وكنت أعرفه قبل أن يبدأ العمل في السفارة، كان أيضاً قد تواصل معي واطمأن إلى وضعي. حينذاك سألته عن معلوماته حول الوضع. فأجابني بحزم «يبدو الوضع خطيراً، لا تخرج من المنزل أبداً».

كانت الأمور لا تزال غامضة. لذا، كنا بحاجة إلى مصدر رسمي للمعلومات إضافة إلى ما نحصل عليه من الجامعة. كان لا بد من التواصل مع جهات رسمية لبنانية تخبرنا بما يحصل على المستوى الرسمي، وما هي توجيهات بلادنا، خصوصاً وإننا لم نكن قد كوّنا فكرة عما يجري. وعلى الرغم من أنني كنت أميل إلى البقاء في ووهان، وكذلك نعيم، لكن، قلت في نفسي: من غير المقبول أن لا يسأل عنا أحد مجرد سؤال! ماذا أفعل؟. فلأحاول التواصل مع سفارتنا في بكين عبر الفيسبوك!

هكذا كتبت:

«نحن عدد من اللبنانيين موجودون بمدينة ووهان الصينية التي تمر بظروف صعبة جداً على المستوى الصحي منذ حوالي الأسبوعين. منذ أربعة أيام، تم عزل المدينة بشكل كامل، وحتى داخل المدينة تمّ إيقاف كل وسائل النقل العام».

كل السفارات تقريباً تواصلت مع رعاياها، منهم للاطمئنان وهذا أقل الإيمان، ومنهم للمساعدة على الخروج من المدينة (مثل الصورة) من سفارة المغرب.

أما نحن، اللبنانيين هنا، فالحمد لله: لا نعرف إن كان هناك سفير أو سفيرة أو مخلوقات فضائية في السفارة اللبنانية بالصين. ما حدا عذب حالو ورفع سماعة تلفون أو بعت ايميل أقله للاطمئنان.

في المقابل، السفارة الصينية بلبنان، صاروا حاكييني مشكورين ثلاث مرات من أول مبارح لليوم ليطمئنوا عليّ وعلى باقي اللبنانيين.

#يسقط_النظام_اللبناني_المتخلف

٢٤/١/٢٠٢٠

#武汉_加油

أبــي

كان قد مر على آخر محادثة لي مع أبي ما يزيد على 20 يوماً. كان قد أرسل تسجيلاً صوتياً عبر تطبيق واتس أب ينقل لي رأي أحد أصدقائه بمقال كنت قد كتبته منتقداً النموذج الاقتصادي اللبناني.

بعد أن أخبرت شقيقتي حنان أن ووهان متجهة نحو الإغلاق، وطلبت منها عدم إخبار أمي وأبي كي لا يقلقا، كنت على يقين أنها لن تلتزم بذلك. وفعلاً، بعد حديثنا بساعات، اتصلت بي بيسان شقيقتي الكبرى، ثم شقيقتي نورا..ثم كرت سبحة الأخوة والأخوات والأقارب والأصدقاء..الجميع تقريباً اتصل.

اتصلت بحنان معاتباً، فقالت إن الوالد فاجأها وهي تبكي فاضطرت لإخباره. ولكي لا يقلق قالت له إن موضوع الفيروس ليس «اكثر من أهمية الانفلونزا عندنا، فلا تشغل بالك».

أجبتها مستاءً «والآن؟ هل زال قلقهم برأيك؟». فقالت إن الأمر لم يعد مهماً لأنهم «زبطوا الوضع». كانت تعني بذلك أنهم أمّنوا سعر بطاقة عودتي إلى لبنان. فقلت بشكل حاسم «لو كان لدينا مليون دولار، لا يهم. فالمدينة معزولة تماماً. لا أحد يستطيع الدخول أو الخروج». حاولت تهدئتي بقولها إنها قالت لأهلي إن بقائي في ووهان أفضل. هدأت قليلاً ، ثم قلت «جيد، فالمدينة مقفلة». سألت «أهناك من حل؟». حاولت إنهاء النقاش عند هذه النقطة: «أكيد، فقط يلزمنا بعض الوقت».

كنت متيقناً انهم سيعرفون عاجلاً أو آجلاً أن المدينة مقفلة عندما سيبدأ الإعلام بتداول الخبر. طبعاً سيتناوله، أي الإعلام، بكثير من التضخيم، لجذب المشاهدين بالتشويق الرخيص دون مسؤولية كالعادة. كل ما كنت بحاجة إليه هو بعض الوقت لفهم وضعنا واحتمالاته بشكل أفضل. وكنت قد

بدأت بمراجعة ما نعرفه إلى الآن عن هذا الفيروس، وعن فيروسات كورونا السابقة، وأهيئ نفسي لاستكمال هذا البحث بشكل ممنهج أكثر.

حاول أبي الاتصال بي، ولكن دون جدوى، كان هاتفي خارج الخدمة. لذا، ترك لي رسالة صوتية يخبرني فيها أن أختي أخبرته أن الوضع في ووهان دقيق جداً. وطلب مني أن أقدر الموقف فإن كان هناك أي خطر على حياتي عليّ اتخاذ القرار المناسب. أجبته بتسجيل مطول، محاولاً أن أؤسس لأرضية تواصل مع أهلي بعيداً من الهلع العام.

أجابني «حسناً. خذ حذرك، أمك لا تعرف شيئاً حتى الآن، ولن نقول لها. انتبه لنفسك، رجاءً».

وأبي شخص عقلاني جداً، فالحياة القاسية شكلت وعيه منذ الصغر. ففضلاً عن أن والده توفي وهو في التاسعة من عمره، كانت حاله كحال جيله الذي كبر في ستينات القرن الماضي، وهي مرحلة عصفت خلالها بلبنان والمنطقة العربية تحولات سياسية ضخمة، منها هزيمة العام 1967 أمام «إسرائيل»، وظهور «الثورة الفلسطينية» بكل فصائلها. كما أنها كانت مرحلة المدّ اليساري الكبير في لبنان، وتعمق أزمة النظام السياسي اللبناني.

كان والدي قد اختار الانضمام إلى «منظمة الاشتراكيين الثوريين»، التي كانت تنظيماً يسارياً سياسياً لا يؤمن بالنضال الديمقراطي بل بالعمل المسلح. ونفذوا فعلاً العديد من العمليات العسكرية والأمنية قبل اندلاع الحرب اللبنانية، أشهرها «عملية بنك أوف أميركا» التي عادت إلى الذاكرة اللبنانية النضالية أخيراً مع أزمة الاقتصاد اللبناني التي هزّت وما زالت البلاد، واستعادها شباب صغار كمثال على كيفية التعاطي مع مافيا المصارف. حمل السلاح باكراً جعله يبتعد تدريجاً عن الدراسة التي كان من المتفوقين فيها، فبعد أن أنهى المرحلة الثانوية لم يلتحق بالجامعة، وهذا الأمر أثر كثيراً في كامل نظرته إلى الأحزاب بشكل سلبي. فأصبحت الأخيرة تعني له الفشل على المستوى الشخصي.

كانت منظمته تعتبر «ماوية»، نسبة إلى الزعيم الصيني «ماو تسي تونغ». وهذا ما جعله ينظر بإعجاب إلى التجربة الصينية، وخصوصاً أنها تمكنت من بناء قوة اقتصادية ضخمة وتحسين

أوضاع مواطنيها في حين أن «جماعتك السوفيات» لم يصمدوا كما كان يحب ان يقول لي.

و«جماعتك السوفيات» كان أبي يقصد بها النهج السياسي-الفكري الذي أنتمي إليه حالياً، لأنه كان مؤيداً للسوفيات. لذا كان يعيّرني بهم عندما يقارنهم بالتجربة الصينية.

كان لهذه المنظمة أعداء كثر في كل مكان، من أجهزة الدولة إلى المنظمات اليمينية وحتى في أوساط اليسار. ومع انطلاق الحرب اللبنانية سنة 1975، شارك كغيره من أبناء جيله في هذه الحرب، التي أغرقتهم بعد سنوات قليلة في وحولها.

كان أبي يمضي عقوبة لمدة سنة في السجن عندما أنجبت أمي شقيقتي بيسان سنة 1980. كان قد اعتقل بسبب إشكال أدى إلى قتل أحد المسؤولين في تنظيم سياسي. بعد خروجه من السجن، هاجر، كحال الكثيرين ممن شاركوا في المرحلة الأولى من الحرب، إلى السعودية باحثاً عن عمل. واستقر هناك مدة طويلة جداً، حتى أنني أذكر جيداً أنه في طفولتنا لم نكن نراه كثيراً، فقد كان يأتي إلى لبنان لشهر فقط كل ستة أشهر.

ظروف حياته هذه، وخصوصاص الموقف السلبي من الأحزاب، أثر في علاقتنا في بداية شبابي. كنت قد بدأت التقرب من الأفكار الشيوعية، وهو كان يعتبر أن الانتماء إلى الأحزاب يعني ضياع مستقبل الشخص. فكيف إن كان حزباً شيوعياً في بلد يختلف فيه أركان السلطة على كل شيء ويتفقون على كراهية الشيوعيين؟ إضافة إلى ذلك، كان يعتقد أن الانتماء إلى الحزب الشيوعي سيؤدي بي إلى حمل السلاح والتوقف بالتالي عن استكمال دراستي.

أذكر في أحد الأيام، أنه كان عائداً من زيارة لأحد أصدقائه، والتقى أحد أعضاء الحزب، فبادره هذا الرفيق الثرثار قائلاً «كيف حال الرفيق أدهم؟».

كنت اخفي أي معلومة عن علاقتي بالحزب منعاً للاصطدام بأهلي، فكان عملي الحزبي أشبه بالعمل السري. عندما عاد إلى المنزل، سألني «تعال أخبرني: ما اسمك الحركي؟ ما اسم مجموعتكم العسكرية؟». كنت أنظر إليه مذهولاً لهذه المصطلحات التي كنت أسمعها للمرة الأولى.

لم يكن يستطيع النظر إلى الأمر بغير هذه الطريقة. ولكن خلال السنوات اللاحقة وبعد أن أنهيت عامي الدراسي الأول في واحدة من أصعب كليات الجامعة اللبنانية، بدأ يغيّر نظرته وقلبه

يطمئن.

وفي إحدى الجلسات عند رفيق قديم له، كنت أتحدث في موضوع سياسي لم أعد أذكره الآن. فقاطعني ذلك الرجل قائلاً ما معناه «هذا الأسلوب يوصل إلى طريق مسدود.. قلنا هذا الكلام قبلكم»، فأجابه والدي، وكانت تلك المرة الأولى التي يعبّر فيها عن موقفه من نشاطي السياسي «دعه وشأنه، تجربتنا غير تجربتهم». ثم توجه إلي قائلاً: «طريقك صحيح. لا تتوقف».

منذ ذاك تأسست بيننا علاقة احترام متبادل للآراء. هذه العلاقة كانت دائماً مبنية على الإقناع. لذا لم يكن قرار البقاء في الصين شاذاً عن هذه القاعدة.

توضيح

صباح الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير، وصلتني رسائل كثيرة عبر الفيسبوك والويتشات، يخبرني فيها مرسلوها أن القنصل اللبناني في الصين يريد أن يتواصل معي. كان صدى النداء الذي أطلقته قبل يوم على الفيسبوك قد وصله.

كان لنشر هذا النص الكثير من الإيجابيات، لكنه لم يخل من السلبيات. فعبره تعرفت إلى الكثير من اللبنانيين المقيمين في الصين، وخصوصاً في المدن التي تشتهر بالتجارة، مثل غوانزو وايوو. حتى أنني تعرفت إلى عائلة لبنانية تعيش في ووهان منذ العام 2003، وكان هذا الأمر مفاجئاً كوني هنا منذ خمس سنوات ولم أكن أعرف أنه هناك فتاة لبنانية متزوجة بشاب أجنبي تعيش في ووهان، مع والدها أيضاً. كما تواصل معي عدد من الطلاب اللبنانيين الذين يعانون مثلي مشكلة عدم التواصل مع السفارة.

اتصل بي القنصل، وأعطيته ما أملك من تفاصيل حول اللبنانيين في ووهان، واتفقنا على آلية متابعة. ومن ثم اتصلت بي السفيرة اللبنانية في الصين، واطمأنت إلى صحتي وصحة باقي اللبنانيين. سألتني: «هل أنت مريض؟» كنت على وشك الإصابة بالزكام، وكان ذلك واضحاً من صوتي. قلت لها «اليوم صباحاً شعرت بأنني سأمرض، ولكن سأقاتله، لن أسمح له بالتمكن مني».

وبطريقتها الدبلوماسية عاتبتني على المنشور الذي نشرته على صفحتي. لكننا اتفقنا على أن الأهم في تلك الفترة أن نسخر كل جهودنا لتجاوز هذه الأزمة. لذا، وبعد أن سارت الأمور كما يجب، وبعد أن لقي صوتنا آذاناً صاغية في سفارة لبنان، نشرت نصاً جديداً أخبر المهتمين فيه أن الأمور تسير كما يجب. إلّا أن العديد من وسائل الإعلام في لبنان لجأ للاستثمار السياسي السلبي للمنشور،

حيث استغله لفتح مواجهة مع الطرف السياسي الذي تنتمي إليه السفيرة، ما دفعني لاحقاً إلى إصدار توضيح جديد أقول فيه إن صرختنا وصلت وأصبحنا على تواصل مع السفارة وكل استغلال سياسي لوضعنا مرفوض رفضاً قاطعاً.

وفي ما يلي ما نشرت على صفحتي يوم 25 كانون الثاني/يناير:

استكمالاً للبوست عن اللبنانيين في ووهان (أمس)..

أولاً، اليوم تم التواصل معنا من قبل السفيرة اللبنانية في الصين (بكين) ومن قبل القنصل في السفارة، وتم وضع آلية للمتابعة في ظل الأوضاع الطارئة.

ثانياً، عدد اللبنانيين بمدينة ووهان ليس كبيراً، وحتى اليوم الكل بخير. هناك إجراءات مشددة جداً لمواجهة الفيروس، ونحنا كغيرنا نتبع الإجراءات الرسمية.

نتمنى السلامة للجميع، والتوفيق للحكومة الصينية في حربها ضد هذا الفيروس.

شكراً لكل من اتصل وسأل وعلق وشارك، وطبعاً من واجبنا (لأننا كتبنا أمس نداء) نحيّي السفيرة والقنصل على التواصل السريع اليوم، بغض النظر عن أسباب التقصير السابق، الوضع اليوم لا يتحمل عتاباً، وهدف البوست السابق كان أن نتوصل لهذا التنسيق لما فيه مصلحة للبنانيين الموجودين هنا أو أي مكان آخر.

#武汉_加油

ترامب: نقدر شفافية الصين

أصبح أبي أحد مصادري لمتابعة الأخبار الغربية عن الفيروس. فقد كان يرسل لي كل يوم صباحاً بتوقيت لبنان (بعد الظهر بتوقيتنا) كل ما يسمعه أو يقرأه عن ووهان. عبره، كنت أستطيع أن أقدر مدى التهويل الذي يحصل خارج الصين. كما أنه كان بالنسبة لي، عينة عن كيفية تفاعل الناس مع هذه الأخبار. تفاءل مثلاً عندما عرف بأنه تم البدء ببناء المستشفيين التخصصيين في مدينة ووهان، وقد كان من المخطط أن تنتهي الأعمال فيهما خلال عشرة أيام.

عاوده فخر شبابه بالصين، فقال في اتصال «يا لهذه الصين العظيمة!».

ولرفع معنوياته ومستوى تفاؤله، أرسلت له شرحاً تفصيلياً حول هذا الموضوع «هذا نموذج عن كيف يشتغل الصينيون»، قلت له، وأضفت «مخططات هذا المستشفى مصممة العام 2003، وهي نسخة طبق الأصل عن المستشفى الذي أنشأوه تلك السنة في بكين لمواجهة فيروس «سارس». فبعد نهاية الأزمة، قاموا بتقييم لتجربة التصدي لذلك الفيروس، وتوصلوا لاستنتاج أن مستشفى كهذا هو واحد من مفاتيح الانتصار على أي وباء في المستقبل».

كان أبي قد سمع أن الفيروس بدأ يصل إلى عدد من البلدان، فكان يقول مثلاً: «الآن أسمع الأخبار، في ماليزيا إصابة، فرنسا ثلاث إصابات، استراليا إصابتان»، ويضيف كمن يقف على منبر ويخطب في الجماهير «ترامب يشيد بجهود الصين لمكافحة هذا الوباء». كان يقصد بذلك التغريدة التي نشرها الرئيس الأميركي على حسابه في تويتر في 25 كانون الثاني/يناير قائلاً:

«الصين تعمل بجدّ لاحتواء فيروس كورونا، تقدر الولايات المتحدة جهودها الكبيرة وشفافيتها في التعامل مع الفيروس، مما سيجعل الأمور تسير على ما يرام، نيابة عن الشعب الأميركي أريد أن أشكر الرئيس شي !».

تغريدة ترامب جاءت بعد أن اتصل الرئيس الصيني ذلك اليوم بالعديد من رؤساء دول العالم ومنهم ترامب، ووضعهم في صورة مستجدات الإجراءات الجديدة وخصوصاً إغلاق ووهان. مع العلم أنه بالاستناد إلى ما عرضناه سابقاً كانت الصين ترسل تحديثات دائمة للمعلومات الجديدة حول الفيروس إلى منظمة الصحة العالمية وعبرها إلى الدول المعنية.

كما كان الرئيس الصيني قد ترأس في 25 كانون الثاني اجتماعاً للمكتب السياسي في الحزب الشيوعي الصيني، تزامناً مع احتفالات رأس السنة الصينية، حيث تم اتخاذ قرارات أهمها إلغاء كل الاحتفالات العامة في البلاد. كما تم إغلاق المراكز السياحية الأساسية مثل «المدينة المحرمة» و سور الصين العظيم في بكين. هذه الإجراءات كانت مؤشراً على التقدير الرسمي الصيني لخطورة الوضع، والذي لم يخفه الرئيس الصيني في تصريحه الإعلامي عقب الاجتماع، حيث حذر من أن الصين تواجه وضعاً خطيراً، موجهاً رسالة واضحة أن هذا الفيروس «يتفشى بشكل متسارع»، معرباً عن ثقته أن بلاده ستنتصر في هذه المعركة، داعياً الناس إلى الالتزام بالإجراءات وتفادي الهلع.

كانت الإجراءات الصارمة قد شملت معظم البلاد وليس ووهان فقط. مددت عطلة الجامعات والمدارس في البلاد كافة، كما تم تعطيل الموظفين الحكوميين والمؤسسات العامة والخصوصاً كافة. وطلب من السكان عدم الخروج إلّا عند الضرورة، واستخدام الكمامات عند الخروج من المنزل. كما أوصت السلطات المواطنين بإلغاء السفر إلى الخارج.

كانت بكين قد علقت الرحلات المنظمة داخل البلاد وإلى الخارج. أما في ووهان فقد تم إلغاء كل الرحلات المحجوزة مسبقاً لأن المدينة تحت العزل وهذا كان يشمل مطارها أيضاً.

أما الأشخاص الذين خرجوا من ووهان قبل إغلاق المدينة، فوضعوا تحت المراقبة الصحية لمدة 14 يوماً، على أن يلتزموا الحجر المنزلي ولا يخرجوا أبداً. ثم قاموا بتتبع كل شخص خرج من

المدينة خلال الفترة السابقة. وقد سخرت في سبيل ذلك كل الإمكانات العلمية التي تملكها الصين، خصوصاً تقنيات تحليل البيانات الكبرى «Big Data»» هذه الإجراءات لاقت انتقادات على وسائل التواصل الاجتماعي، ومن قبل بعض وسائل الإعلام الغربية، فصحيفة «وول ستريت جورنال» اعتبرت أن استخدام البيانات الضخمة يعتبر انتهاكاً لخصوصيات المواطنين. حسناً: أيهما أهم؟ خصوصيات المواطنين أو حياتهم؟ وكيف يمكن تتبع تحركات شخص مصاب لتحديد الأشخاص الذين احتك بهم دون سؤاله عن تلك المعلومات؟ ومن ثم كيف يمكن أن نستفيد من تلك المعلومات إن لم نقم بتحليلها مستخدمين آخر ما توصل اليه العلم في هذا المجال، خصوصاً في بلد عدد سكانه يقارب المليار ونصف المليار.

تخبرني ليلى، وهي التي تتبع أحوال الأصدقاء داخل وخارج الصين، أن السلطات الصينية اتصلت بزميلينا اللذين أخبرتني سابقاً أنهما توجها ليلة إغلاق ووهان إلى مدينة شيآن، ومنها في ما بعد إلى بلادهما. قالت وهي مندهشة «تصور، لقد حددوا مكانهما في القطار الذي كانا قد استقلاه، وطلبوا منهما أن يلتزما العزل المنزلي مدة 14 يوماً ويراقبا حرارتهما». أضافت «قالوا لهما إنه تبين بعد فترة أن شاباً كان يجلس قريباً منهما في القطار، وأنه كان مصاباً بالعدوى». وأضافت مذهولة «ما هذا! كيف يستطيعون التواصل مع كل تلك الملايين؟ حتى أنهم يتصلون بمن أصبحوا خارج الصين!».

كنا يوماً بعد يوم نكتشف مدى ضخامة الإمكانات التي تملكها الصين. ولكن الأهم، وهذا ما كان يجلب الطمأنينة لنا نحن الموجودين داخل ووهان، أنه يتم تسخير هذه الإمكانات لخدمة الناس، ولخدمة المعركة الأساسية التي يواجهها الناس حالياً وهي الفيروس. ففي سبيل النصر عليه، كانت السلطات مستعدة للقيام بأي شيء.

هذه الإجراءات خففت من نسب انتشار الفيروس خارج مقاطعة هوبي ومن ضمنها ووهان. فالاستجابة السريعة، وتنفيذ سياسات التباعد الاجتماعي والعزل المنزلي في كل مدن الصين، قطع على الفيروس إمكانية استكمال انتشاره السريع. ولكن كل هذه النتائج كانت تحتاج إلى وقت كي تبدأ بالظهور.

في هذا اليوم، 25 كانون الثاني/يناير، بدأ يتزايد الحديث عن إجلاء الأجانب من ووهان، حيث ذكرت صحيفة «وول ستريت جورنال» أن «الولايات المتحدة ستعمل على إجلاء المواطنين والدبلوماسيين الأميركيين من مدينة ووهان يوم غد». وكذلك تم الحديث عن أن الأردن واليابان وفرنسا ستعمل على إخراج رعاياها. وكان هذا الحديث متداولاً على نطاق واسع بين الطلاب الأجانب، كل يستفسر عن بلد الآخر إن كان سيقوم بالإجلاء أو لا.

بالرغم من ذلك، كان متحدث باسم منظمة الصحة العالمية قد أكد أن لا ضرورة لإجلاء الأجانب من ووهان. وكذا فعلت السلطات الصينية. أما القنصل اللبناني الذي كنا قد أصبحنا على تواصل يومي معه عبر مجموعة على ويتشات، فقد أخبرنا أنه «إلى الآن لا يوجد شيء جدي في هذا الإطار. وبكل الأحوال نحن على تواصل مع باقي السفراء العرب هنا في بكين، ومن يريد من اللبنانيين الخروج من ووهان عليه أن يخبرنا بأسرع وقت. فعلاقة السفارة جيدة مع جميع الدول العربية، وخصوصاً الأردن، لذا في حال تم إجلاء الطلاب الأردنيين، ممكن أن نؤمن من يريد الخروج منكم معهم».

حتى ذلك اليوم، كان هناك طالب لبناني واحد يريد الخروج. أما نعيم، صديقي، فقد أجاب مباشرة أنه سيبقى. لكني لم أجب، كنت أحاول أن أستكمل تقييم الوضع قبل أي قرار.

الاستعداد للحرب

كان التطور المتسارع للأحداث بالإضافة إلى بداية انشغالي بالرد على رسائل المستفسرين عن الوضع المستجد في ووهان، يجعلانني أتأقلم أكثر فأكثر مع الواقع الجديد. لم أشعر فعلياً أنني في العزل. كان الوقت يمضي بشكل سريع جداً. فخيار الخروج الطوعي من ووهان قد انتهى، أما الآن، فالمعروض هو الإجلاء. وبما أنني أؤمن بالاحتمالات، وبأن لكل احتمال نسبة نجاح ولو كانت ضئيلة، لذا كان عليّ درس الخيارات من كل الجوانب. الخيار الأصعب الذي يحتاج إلى التبرير أولاً لنفسي وثانياً للآخرين كان قرار البقاء. إن قراراً كهذا لن يكون مبرراً إلّا في حالة واحدة: أن أستطيع المساهمة في هذه المعركة بأي شكل من الأشكال، وإلا لم سأبقى؟.

صوت عربي في المعركة

لكن، كيف أكون جندياً، وبأي ذخيرة؟ أي دور أستطيع لعبه في هذه الحرب التي تخوضها الصين؟ قلت لنفسي بعد تفكير: إن كان سيكون لي دور ما في هذه المعركة، فلن يكون إلّا صوتي. صوت ناطق بالعربية من الميدان ينقل حقيقة ما يجري في ووهان إلى عالمنا العربي. أن أكون مصدراً للأخبار الصحيحة، بالصوت والصورة والمعلومة الجادة المستقصاة. ففي معارك مثل هذه، تماماً كما في المعارك الكلاسيكية، هناك ما يسمى الحرب بالبروباغندا، واستغلال الكوارث والظروف لتحطيم المعنويات وتشويه الخصم. وقد كان خصوم الصين كثراً، كما بدا منذ بداية الأزمة، خصوصاً وأن الكارثة الصحية حصلت في سياق الحرب الاقتصادية التي تشنها الولايات المتحدة وحلفاؤها على من تعتبرها تهديداً لزعامتها على العالم، أي الصين.

وواقعياً؟ كنت قد بدأت فعلياً بذلك.

ففي العزل المنزلي، لا يمكن القيام إلّا بهذا الدور الذي يشبه دور المراسل. وبما أنني لست إعلامياً، فإن ذخيرتي لا يمكن أن تكون إلّا المعلومة الموثقة مقابل موجات الإشاعات إن كان مصدرها عدواً أو جاهلاً، أو مجرد خائف.

أمام هذا التحدي، كانت نقطة البداية أن أقول لنفسي إني لا أعرف شيئاً عن عالم الفيروسات، وهذا يعني أنّ جهداً كبيراً يجب أن يبذل.

كنت قد بدأت أكتسب كمية معلومات لابأس بها، إن كان عبر ما أرسلته لنا الجامعة أو من خلال متابعتي، لكنها لم تكن كافية أو ممنهجة. كنت قد بدأت أحضر لبحثي المقبل الذي استمر طوال فترة الحجر المنزلي. حتى إن الكثيرين فيما بعد اعتقدوا أنني أدرس الطب أو علم الأحياء.

البحث في مجال جديد كهذا، وفي وقت أزمة، كان مهمة صعبة صحيح، لكن ممتعة. كنت كالجائع أمام مائدة عامرة. هكذا، انقضضت على المراجع أدقق كل معلومة. حتى تلك التي كانت تبدو خيالية بعيدة من التصديق، تتبعت مصدرها. وخلال ساعات كنت قد وجدت ما أحتاج إليه من ذخيرة لأكون جزءاً من هذه الحرب، فأستطيع البقاء على جبهات القتال في ووهان دون أن أكون مجرد شخص يرمي بنفسه في النار فاقداً كل أمل في النجاة أو النصر.

منحنى الأمل

في اليوم الرابع للحجر، كان نمط حياتنا اليومي بدأ يستقر على محطات جديدة. كانت الجامعة قد طلبت من كل الطلاب أن يقوموا بالتصريح عن وضعهم الصحي يومياً بين الساعة الواحدة والساعة السابعة مساء، وذلك عبر مجموعة السكن الجامعي. أما إذا امتنع أحد الطلاب عن التصريح في هذا الوقت، فقد كان موظفو السكن يقصدون فوراً غرفته للاطمئنان إلى وضعه. أما من كان يسكن خارج الجامعة، فقد كان عدم التصريح في الوقت المنشود، بمنزلة تأخر عن التوقيع للحصول على قسط المنحة، وتكرار عدم التبليغ ليومين متتاليين سيحرمه من معاشه الشهري.

آه..نسيت أن أقول لكم: أنا في ووهان بموجب منحة جامعية لنيل درجة دكتوراه في مجالي. والتوقيع على سجل الحضور شهرياً، كان إجراء روتينياً للحصول على المعاش الشهري المخصص لطلاب المنح.

حسناً. عمّ كان يجب أن نصرح يومياً؟

كان العارض الأساسي الذي يجب الإبلاغ عنه هو ارتفاع الحرارة. كما عمم علينا عدم الذهاب إلى المستشفى إلّا بعد الاتصال بمكتب الطلاب الأجانب. خصوصاً وأنه في الليلة الأولى على الإغلاق، توجه طالبان، باكستاني وعراقي إلى المستشفى بعد أن ارتفعت حرارتهما. في ذلك الحين كانت مستشفيات ووهان تعج بالناس، وبذلك تعتبر مكاناً نموذجياً لنشر العدوى. خصوصاً وأن الناس في تلك الليلة كانوا لا يزالون تحت تأثير الصدمة والخوف، كما أن المستشفيات لم تكن لتستوعب أعداد قاصديها الكبيرة لإجراء فحص. وحين أقول كبيرة، لا تنسوا: نحن في الصين.

روى الطالبان، عبر مجموعة الويتشات، ما جرى معهما. قال العراقي إنه توجه إلى المستشفى بعد أن وجد أن حرارته كانت 37.5. عندما وصل انتظر في غرفة أربع ساعات مع مجموعة كبيرة من الأشخاص، بعضهم ظهرت عليه عوارض واضحة كالسعال الجاف. وعندما أتت الممرضة ووجدته ينتظر بالداخل جنّ جنونها، وطلبت منه المغادرة فوراً، لأن حرارته كانت 37 درجة فقط. لكنهم أخذوا منه عينة من الدم وإفرازات الأنف، وعاد إلى الجامعة. ولقد روى الباكستاني السيناريو نفسه.

ومنذ تلك الليلة، عمّمنا بعضنا على بعض الامتناع عن الذهاب إلى المستشفى إلّا إن كانت هناك عوارض واضحة ليوم كامل. ثم قامت السلطات بالتعميم نفسه. بعدها بفترة قصيرة، تشددت السلطات بالإجراءات فأخذت ترسل فرقاً طبية خصوصاً لنقل المشتبه في إصابتهم إلى المستشفى، بعد أن يجري تقييم وضعهم من قبل فرق طبية في الأحياء التي يقطنونها.

من ضمن الروتين اليومي الجديد، كنت قد بدأت بتجميع الداتا حول أعداد الإصابات والوفيات وحالات الشفاء في ووهان أولاً، والصين ثانياً، وعلى المستوى الدولي، مع العلم أنه إلى حينه كانت معظم الإصابات تتركز في ووهان. ففي اليوم الذي أغلقت ووهان، كانت هناك 574 حالة إصابة مؤكدة و 25 حالة وفاة. بينما سجل في باقي دول العالم 15 إصابة مؤكدة، ومن بينها واحدة في الولايات المتحدة الأميركية.

هكذا، ما أن كنت أفتح عيني- وأحياناً عيناً واحدة فقط حين أكون شبه نائم- حتى أشغل محرك البحث الصيني «بايدو» Baidu على هاتفي، وهو تطبيق كان يوفر الداتا التي تنشرها اللجنة الوطنية للصحة في الصين بشكل يومي، ثم أقوم بحفظ المعلومات. بعدها أقوم بتعبئة استمارة الوضع الصحي اليومي للجامعة.

عندما أنهض، كان أول ما أقوم به هو إدخال تلك المعلومات إلى حاسوبي، في الجداول التي كنت أعددتها لمراقبة مسار الحالات. لم يكن هذا تفصيلاً بسيطاً، فعبر استقراء هذا المسار الذي

تسلكه الإصابات، كنت أستطيع أولاً أن أفهم سلوك الفيروس في المدينة، وثانياً إن كنا نسير في مسار الانتصار عليه أو العكس. تلك الأرقام والجداول، تلك المتابعة، كانت طريقتي في بناء سور الأمل.

كنا قد فهمنا تماماً أن الحل الوحيد للسيطرة على الفيروس يبدأ بالعزل المنزلي. عزل، من شأنه وحده، قطع سلسلة انتشار الفيروس. وبالتالي بدا مفهوماً الاستنتاج أن عدد الإصابات سيستمر في الارتفاع، حتى نتجاوز مدة 14 يوماً من العزل وهي فترة حضانة الفيروس داخل جسم الإنسان. وقتئذ، من المفترض أن نكون قد وصلنا إلى قمة المنحنى، لتبدأ بعدها آثار العزل تتضح.

فالفيروس يحتاج للاحتكاك بين الناس ليستمر في الانتشار. وبالتالي ابتداءً من اليوم الخامس عشر للعزل، يفترض أن يبدأ عدد الإصابات اليومية بالتراجع، وهذا يعني أن المنحنى البياني لهذه الإصابات سيتخذ مساراً تنازلياً.

طبعاً هذا السيناريو يكون ممكناً في حال العزل المنزلي الكامل، وأي خرق لهذا العزل سيلغي إمكانية أن يكون هناك منحنى صاعد ثم هابط لعدد الإصابات، بل خط صاعد باستمرار كارثي.

هذه الطريقة كانت سبيلاً علمياً للتحقق مما إذا كانت الداتا الصادرة عن الجهات الرسمية الصينية، صحيحة أو مضللة. فتوافق الداتا مع المسار المتوقع نتيجة الالتزام بالعزل، كان كفيلاً بالقول ان هذه الداتا صحيحة.

هذا من دون الحديث عن حالات الوفيات وحالات الشفاء، لأن معايير أخرى تتحكم فيها. أساسها العزل، صحيح، لكن يضاف إليها تطوير القدرات الطبية من عاملين طبيين وقدرة استيعابية للمستشفيات، كما تدخل طرائق العلاج وتوفير أدوية فعالة في صلب عملية الشفاء وتخفيف عدد الوفيات.

كان هذا الأمر واضحاً جداً لي، لأنه مجال دراستي بالضبط: تحديد مسار الظواهر بناءً على الداتا. كما كنت أقيّم فاعلية الإجراءات الحكومية من خلال قراءة هذه الأرقام. وبالتالي كانت واحدة من أقوى أوراق معرفتي بما يجري وكيفية تفسير الوضع الحالي وأيضاً استقراء المقبل، تتم عبر هذه الداتا.

هذه الآلية رسمتها مع أرقام متوقعة. كنت أنظر إليها، وكل ما يهمني هو شكل الخط البياني إن كان سيصبح منحنى أو لا. كان من المفترض أن تبدأ نتائج العزل بالظهور ابتداءً من أواسط شباط/فبراير. وكنت قد وضعت أمام كل حالة سجلت في يوم ما، التاريخ المفترض للإصابة. فمثلاً إن كنا نتحدث عن حالات سجلت يوم 20 كانون الثاني/يناير، فهذه الحالات من المتوقع أنها أصيبت بالعدوى في 6 كانون الثاني/يناير، أي قبل 14 يوماً، هي مدة حضانة الفيروس. هذا المنحنى الذي أحتفظ به إلى الآن، علقته أمام المكتب، وأسميته «منحنى الأمل».

من الإنسان إلى الإنسان

لم يكن ممكناً أن تبحث حول فيروس كورونا الجديد في الصين في ذلك الوقت دون أن تصل إلى شخص يدعى «تشونغ نان شان» (Nanshan Zhong) كانت صورته تظهر أمامي بشكل يومي على تطبيق «بايدو» .

لست متضلعاً من اللغة الصينية التي لم أدرسها، لكني كنت أستطيع أن «أخلّص حالي». وكنت أحفظ بعض الرموز، ففي اسم هذا الرجل، الرمز الأخير هو رمز الجبل (Shan 山) وكنت كلما نظرت إلى صورته وملامحه القاسية أقول كم يشبه هذا الرجل الجبل.

حَفظت صورته، وأرسلتها إلى مي. «من هو هذا الرجل؟» سألتها.

أجابت مستغربة «ألا تعرفه؟! إنه تشونغ نان شان أحد أهم علماء الجهاز التنفسي في الصين، وهو من قاد الصين إلى النصر في معركتها ضد فيروس سارس سنة 2003». وأضافت «إنه محبوب الصينيين، الكل يحترمه، إنه أحد أبطالنا القوميين».

ثم أضافت «هو صلب جداً، ولا يخشى شيئاً، وكل المسؤولين يحترمونه ويأخذون برأيه. سنة 2003 اكتسب مصداقية كبيرة جداً في الصين والعالم، فقد أبلغ عن وجود فيروس خطير إلى الجهات كافة وكذلك للشعب فور تحققه من ذلك. ثانياً عمره 83 سنة».

ثلاثة وثمانون عاماً؟! تجيب عن دهشتي بمزيد من التفاصيل «نعم، عمره 83 سنة، وهو يمارس الرياضة يومياً ثلاث ساعات». ثم تضيف «لقد كان في ووهان منذ أسبوع. لقد قلت لك إنه

كان هنا؟ ألا تذكر؟». تذكرت، صحيح. كان ذلك في الاتصال الذي جرى بيننا وانا قادم إلى منزل « نان-خو».

لم أكن مخطئاً إذاً، مدخل معرفتي بما يفعله الصينيون لمواجهة الفيروس سيكون هذا «الجبل».

لذا، طلبت من مي أن ترسل لي كل ما لديها من مداخلات له وخصوصاً تلك التي أدلى بها في ووهان. فأرسلت بعض التصريحات وأهمها تصريح أجراه في ووهان في 18 كانون الثاني/ يناير، حيث تم إرساله لتقدير الموقف، وأعتقد أنه هو من كان خلف اقتراح إغلاق ووهان تماماً. كما أرسلت مي، رابطاً لمؤتمر صحفي عقده الرجل في بكين بعد يومين من زيارته الاستطلاعية لمدينتنا.

خلال زيارته للمدينة المنكوبة، تفقد «الجبل» مستشفياتها وعقد اجتماعات مكثفة مع المسؤولين الطبيين. كما اطّلع على التقارير المتوافرة، ومن على باب المستشفى، توجه إلى مواطنيه بالقول: «بعد اطلاعي على التقارير اللازمة كافة، أنا متيقن أن هذا الفيروس ينتقل من الإنسان إلى الإنسان». كما قام بإعادة الكلام نفسه من بكين بعد أن اجتمع باللجنة الصحية الوطنية هناك. كان هذا التصريح يشير إلى شيء مهم جداً: فإلى حينه، لم يكن محسوماً بالنسبة للسلطات، إن كان هذا الفيروس معدياً أو لا. فبالعودة إلى تقرير منظمة الصحة الذي صدر قبل تصريح «الجبل» بستة أيام، أشار التقرير مراراً إلى أنه لا دليل على انتقال الفيروس من الإنسان إلى الإنسان. وجاء تصريح «الجبل» الصارم كعادته ليضع حداً لهذا الجدل، الذي أثبتت الأحداث اللاحقة صحة كلامه.

إن اختيار هذا الشخص تحديداً من قبل بكين لإرساله إلى ووهان وتقييم الوضع هناك لم يكن عبثياً. فخبرته وثقة الناس والمسؤولين به، جعلاه الشخص المناسب لاقتراح الإجراءات الواجب اتخاذها. بعد ذلك، وفي مؤتمر مشترك مع يوين كواك يونغ (Yuen Kwok-yung) أحد أهم علماء الميكروبيولوجي في هونغ كونغ والذي عمل سابقاً على إنتاج عقار لمواجهة فيروس ميرس (وهو أيضاً من عائلة كورونا وظهر بشكل أساسي في الشرق الأوسط وخصوصاً السعودية)، قال

«تشونغ نان شان» الذي سنشير إليه من بعد بلقب الجبل، بلغته العلمية الصارمة التي لا تراعي إلّا مصلحة الشعب، «إن المسؤولين الصينيين كانوا شفافين في التعامل مع فيروس كورونا الذي انتشر في ووهان، وما مشاركة يوين كواك يونغ من هونغ كونغ، إلّا دليل على أن بكين ليست لديها أسرار لتخفيها». من الواضح أنه كان يستخدم مصداقيته ليؤكد أمراً لم يكن قد طرح بعد. لكنه كان يدرك من خبرته، أنه سيطرح. وأضاف «نحن نعمل معاً لنفهم أكثر كيف انتشر الفيروس في الصين». أما المعلومة الأهم في كلامه فقد كانت ما يلي «في المرحلة الأولى انتقل الفيروس من الحيوان إلى الإنسان، ونحن الآن في المرحلة الثانية حيث ينتقل الفيروس من الإنسان إلى الإنسان».

كل ما نحتاج إلى معرفته

خلال قراءتي لتقرير منظمة الصحة، قمت بتدوين ملاحظتين: الأولى تتعلق بانتقال الفيروس من الإنسان إلى الإنسان، وها قد أجابني عليها «الجبل». أما الثانية فكانت نشر الصين للتسلسل الجيني للفيروس. وبما أني كنت أنظر إلى الأمور من كل الجوانب، ومنها الجانب السياسي، أردت أن أتعمق أكثر في المسألة التي أشار إليها «الجبل» باكراً. وأعني قوله «بكين ليس لديها أسرار لتخفيها»، فكان سؤالي لنفسي: لكن؟ كيف نستطيع أن نؤكد ذلك؟.

عدت مجدداً إلى محرك البحث، وكتبت «التسلسل الجيني لفيروس كورونا الجديد». ظهر أمامي مقال بعنوان «فيروس كورونا الصيني: 6 أسئلة يطرحها العلماء»، نشرته مجلة «نايتشر» Nature العلمية المعروفة بتاريخ 22 كانون الثاني/يناير 2020. ولكن في النسخة العربية التي تم نشرها لاحقاً، تم تعديل العنوان ليصبح «ما يريد العلماء معرفته عن تفشي فيروس كورونا». أعتقد أن سبب تغيير العنوان كان نابعاً من رفض المجتمع العلمي لربط ظهور أي فيروس ببلد أو عرق معين. استناداً إلى المبادئ التوجيهية التي أصدرتها منظمة الصحة العالمية سنة 2015. لاحقاً، اعتذرت مجلة Nature رسمياً عن هذا الخطأ في افتتاحية عددها الصادر في 7 نيسان/أبريل 2020.

كان هذا المقال كافياً حينذاك لأفهم أكثر هذا الفيروس. فقد جمعت المجلة الأسئلة الملحّة التي كان يطرحها العلماء، وهي أسئلة أكثر من كافية لشخص غير متخصص مثلي، وقد تمكنت من تكوين أرضية ثابتة من الإجابات عن تلك الأسئلة، مكنتني لاحقاً من البناء عليها وتطوير فهمي لمسار مواجهة هذا الفيروس.

أسئلة وأجوبة

كان السؤال الأول الأكثر إلحاحاً بحسب رأي العلماء، كيفية انتشار الفيروس. أما الجواب فكان قد أصبح واضحاً كما أسلفنا سابقاً، فهذا الفيروس ينتقل من الإنسان إلى الإنسان حسب تأكيد السلطات الصينية.

انطلاقاً من هذه الإجابة، نصبح أمام قضية جديدة مرتبطة به وهي عدد الأشخاص الذين يمكن أن تصيبهم العدوى. وحسب المقالة «هذا العدد يسمى: عدد التكاثر الأساسي، وإذا زاد هذا العدد عن (1)، فهذا يعني أنه لا بد من اتخاذ إجراءات مضادة، كالحجر الصحي، لاحتواء انتشار الفيروس». أكدت هذه الإجابة صحة القرار بإغلاق مدينة ووهان. فعدد التكاثر الأساسي المقدر في حالة فيروس كورونا الجديد كان ما بين(1.5) و(2.5)، وهو بكل الأحوال أعلى من (1).

يمكن قياس صحة هذه الإجراءات بالمقارنة بحالات مشابهة. فمثلاً، هذه القيم تماثل تقديرات «عدد التكاثر الأساسي» للسلالة الجديدة للإنفلونزا «««H1N1 التي سببت جائحة في عام 2009 انطلقت من الولايات المتحدة الأميركية. ولكن على الرغم من تقارب هذه القيم المقدرة، إلّا أنه لم يتم فرض أي حجر على أي مدينة أميركية، ما يعتقد أنه كان السبب في الانتشار الكبير للفيروس حينذاك، وهو تسبب لذلك بإصابة حوالي مليار إنسان حول العالم. وعلى الرغم من أن هذا الفيروس غير قاتل، حيث أن معدل الوفيات كان متدنياً (0.02) مقارنة بكورونا الجديد (3.4)، ولكن عدم اتخاذ إجراءات في بداية الانتشار كالحجر، والتي كان من الممكن أن تقلل عدد الإصابات، وبالتالي الحد من انتشار الفيروس، أدى حسب تقديرات مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها (CDC) إلى

وفاة ما بين 152 و 575 ألف إنسان حول العالم خلال العام الأول لانتشار الفيروس. و80% من الوفيات كانت لمن عمرهم أقل من 65 سنة.

ومن بين الأسئلة المهمة الأخرى التي يطرحها المقال: هل يمكن للأشخاص المصابين بالفيروس، ولكن لم تظهر عليهم الأعراض، أن ينقلوا العدوى إلى الآخرين؟ وما مدى انتشار ذلك؟

حتى تاريخ نشر هذه الدراسة، لم يكن هناك من جواب حاسم بعد لهذا السؤال، رغم الأبحاث المكثفة التي كانت تجري في الصين وباقي الدول. فبحسب تقرير لمجلة Nature، فقد نشرت خلال شهر كانون الثاني/يناير 2020 وحده، ما لا يقل عن 54 ورقة بحثية في أهم المجلات العلمية التي تصدر بالإنكليزية (لانسيت/نايتشر الخ..) إضافة إلى 23 ورقة بحثية في مجلات علمية تصدر باللغة الصينية. وهذا رقم كبير جداً، يشير إلى أن الوسط العلمي كان يعمل بفاعلية عالية وسريعة لفهم كيفية انتشار الفيروس وطريقة السيطرة عليه.

بالعودة إلى السؤال، أشار تقرير نشر في مجلة «لانسيت» في 24 كانون الثاني/يناير 2020، إلى دراسة أجريت على ستة مصابين في أسرة واحدة في مدينة شنغن الصينية، إلى إصابة طفل بالفيروس دون أن تظهر عليه أيّة أعراض.

من الأسئلة التي كانت تشغل بال الكثيرين في ذلك الوقت، «هل سنموت قريباً بسبب هذا الفيروس؟» بمعنى آخر: ما مدى ضراوة هذا الفيروس؟ هذا السؤال طرحته الدراسة. وبحسب المعطيات التي كان وفرها الجانب الصيني، استنتج العلماء أن هذا الفيروس «أقل فتكًا من فيروس «سارس» الذي أودى بحياة 10% من الحالات المصابة، لكنّ نيل فيرغسون -عالِم النمذجة الرياضية للأوبئة بالكلية الملكية في لندن- كان يرى أنه «من السابق لأوانه أنْ نكون متفائلين بشأن مدى ضراوة الفيروس».

إن أهمية هذه الأسئلة هو أنها كانت تطرح باكراً جداً، والأجوبة التي كانت تقدم، وحتى لو أنها أولية، إلّا أنها كانت تساعد السلطات في الصين وكذلك في كل دول العالم على مواجهة هذا الفيروس.

مِنْ أين جاء الفيروس؟ هذا السؤال كان عنواناً لخلافات كبيرة حصلت لاحقاً، خصوصاً بعد أن تم ما يمكن وصفه بعملية «تسييس الفيروس». ولكن في حينه- نتكلم عن مطلع كانون الثاني- كان طرحه من قبل العلماء لأهداف محض علمية. فبحسب مقالة «Nature» يرى الباحثون أن التعرف إلى الحيوانِ مَصْدَرِ الفيروس قد يساعد على السيطرة على التفشي الفيروسي الحالي، وتحديد حجم المخاطر، وربما منْع ظهور أوبئة مستقبَلًا.

الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة من دون معرفة التسلسل الجيني للفيروس، وهذا ما كانت الصين قد نشرته في 12 كانون الثاني/يناير، وبالتالي هذا يجعلنا نستذكر عبارة «الجبل» حول أنه «ليس لدى بكين أسرار لتخفيها»، فمن ينشر التسلسل الجيني كمن يسلم كل ما يملك من معلومات للآخرين، فمن خلاله يمكن تقدير كل شيء تقريباً. مثل متى ظهر الفيروس لأول مرة؟. فهل ستستطيع الصين أن تخفي معلومات أو أن تضلل العالم بعد نشر التسلسل الجيني؟ الإجابة الأولية حسب علماء صينيين هي لا. لأنه بعد نشر التسلسل الجيني، كل ما يحتاج إليه العلماء والدول أصبح بين أيديهم، ولا يمكن تضليلهم إلّا أنهم ضللوا أنفسهم.

استطاع العلماء من خلال هذا التسلسل الجيني الحسم بأن هذا الفيروس ينتمي إلى عائلة فيروسات كورونا المنتشرة بين الخفافيش، بما فيها فيروس «سارس» وأقاربه من العائلة نفسها. لكنْ يحتمل أن تنقل الثدييات الأخرى هذه الفيروسات.

وللتأكيد على الأهمية الحاسمة لنشر التسلسل الجيني، تطرح الدراسة سؤالها الخامس: ما الذي يمكن أن نستفيده من التسلسل الجيني للفيروس؟ إنه يقدم بعض الدلائل على أصول الفيروس، وانتشاره. وعن إتاحة هذه البيانات للجمهور بشكل مبكر، يقول تريفور بيدفورد، عالِم الوراثة التطورية بمركز فريد هاتشينسون لبحوث السرطان في مدينة سياتل بولاية واشنطن، الذي يحلل التسلسلات الجينية: «هذا أمر رائع، فهناك تميُّز، وسرعة في مشاركة البيانات».

وبحسب مجلة Nature، كان بيدفورد وغيره من علماء الوراثة، يستخدمون هذه البيانات ليحددوا مبكراً موعد ظهور الفيروس، والتي كانت تشير إلى أنه قد يكون ظهر في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019. وبالتالي أصبح من المستحيل على الصين أن تخفي معلومة كهذه. فإن تحديد متى ظهر هذا الفيروس للمرة الأولى سيجعل من أي شخص في العالم قادراً على أن يقارن بين تاريخ الظهور هذا وتاريخ تبليغ الصين عن وجود الفيروس. وبالتالي فاستناداً إلى ذلك فإن الصين أبلغت

عن وجود حالات إصابة بفيروس جديد في 27 كانون الأول/ديسمبر 2019، أي بعد 19 يوماً من اكتشاف أول حالة إصابة والتي كانت في 8 كانون الأول/ديسمبر، وبعد حوالي شهر من التاريخ الذي قدره العلماء في هذه الدراسة. وبالتالي فإن الصين بالاستناد إلى هذه المعطيات، لم تتأخر قط في التبليغ، فمدة العشرين يوماً من أول إصابة إلى أول تبليغ هي طبيعية جداً، ويحتاج إليها أي بلد لا بل يحتاج إلى أضعافها لكي يشخص أن هذه الحالات هي فيروس جديد.

لقاح، ولكن..

في اليوم نفسه الذي كنت أقرأ هذه الدراسة، وبعد مؤتمر صحفي لوزير الصحة الصيني، نشرت بعض وكالات الأنباء خبراً يقول إن الصين توصلت إلى دواء يمكن من خلاله السيطرة على الفيروس ونسبت هذا التصريح إلى الوزير. أرسل لي أبي رسالة صوتية مهنئاً، كما أن وسائل التواصل الاجتماعي ضجّت بهذا الخبر.

علق نعيم على صفحة مجموعة اللبنانيين في ووهان: «لقد سمعت خبراً مفاده أن السلطات الصحية سوف تبدأ في الساعات القليلة القادمة بإعطاء دواء بعد اكتشاف علاج للمصابين .. لا أعرف إن كان هذا الخبر صحيحاً».

أجبته مشككاً: «هذا الخبر منشور فقط في لبنان؟».

قال لبناني آخر «إذا كان صحيحاً خبر الدواء فهو سوف يوزع مجاناً لا شك. قد يكون على الأرجح لقاحاً».

قلت: «نتمنى ذلك».

أضاف نعيم، «أعتقد أنه لقاح مرض «HIV» (الإيدز) نفسه مع تعديلات بسيطة».

كنت شبه متيقن أن هذا الخبر غير صحيح، حتى قبل أن تقوم تلك الوكالات بسحب الخبر من التداول. فبالاستناد إلى هذه الدراسة التي كنت قد انتهيت تواً من قرائتها، لا يمكن أن يتم إنتاج لقاح بهذه السرعة. فالسؤال الأخير الذي كانت تطرحه الدراسة كان في صلب هذا الموضوع. هل يمكن تطوير عقار لعلاج فيروس كورونا؟ والجواب كان إن ذلك ممكن، ولكن يحتاج إلى وقت. وإن

المختبرات الصينية تعمل بجهد كبير على ذلك. أما سبب اللغط الذي وقعت فيه الوكالات، فهو ناتج من واحد من اثنين: إمّا أن هناك خطأ في ترجمة ما قاله الوزير الصيني، وعلمت فيما بعد أن واحدة من أهم الوكالات وقعت في هذا الخطأ. وإمّا أنه تم تفسير الخبر التالي بشكل خاطئ أو مبالغ فيه، خصوصاً إذا ربطناه بالمعلومة التي قدمها نعيم. فوفقاً لبيان صَدَرَ في ذلك اليوم عن فرع لجنة الصحة الوطنية الصينية، فإنه يجري إعطاء عقارَي ريتونافير، وليبونافير، المعتمَدَين لمعالجة فيروس نقص المناعة البشرية للمرضى الذين يعانون الالتهاب الرئوي الناتج من فيروس كورونا.

لن أخرج من ووهان

كان نعيم والفتاة اللبنانية المقيمة في ووهان قد قررا البقاء في ووهان كل لأسبابه. أما أنا، وبرغم قراري الضمني بالبقاء، لكني لم أكن قد أعطيت جواباً. لم أكن حينذاك مضطراً أصلاً للإجابة، فكل الحديث عن إجلاء الأجانب كان لا يزال تكهنات. وبالتالي كان لدي الوقت كي أفكر أكثر وأدرس الأمور من كل الجوانب.

مساء 26 كانون الثاني/يناير، أخبرنا القنصل اللبناني أن وزارة الخارجية الصينية دعت كل السفارات الأجنبية الموجودة في بكين إلى اجتماع من أجل أن تضعهم في تفاصيل الإجراءات التي تقوم بها. وكان تقدير القنصل أنه خلال الاجتماع سيتم التطرق إلى موضوع الإجلاء من ووهان. لذا، وبما أنه يتواصل معنا نحن اللبنانيين في ووهان، وعدنا بأن يبلغنا بنتائج الاجتماع فور انتهائه.

في صباح اليوم التالي، وكان يومنا الخامس في العزل، كان أبي لايزال متمسكاً بالخبر حول العلاج، وكأنه لا يريد أن يتقبل فكرة عدم صحته. قال لي «الخبر على كل الوكالات، الصين تحصل على علاج، كل الوكالات، من (قناة) روسيا اليوم إلى (قناة) المنار.. لا أعرف ما الجديد عندكم؟ انشالله خير، كلمنا عندما تستطيع».

أجبته برسالة «رئيس الوزراء اليوم عندنا في المدينة. والقنصل اللبناني لديه اجتماع مع وزارة الخارجية الصينية».

أجاب بحماسة «وصل إلى ووهان؟ أكيد هم يؤكدون أن الدولة موجودة وستواجه الوضع». وختم متسائلاً «ألم يقولوا شيئاً عن العلاج؟».

أخبرت أبي أن سفارتنا قالت لنا إن الأردن يمكن أن يجلي رعاياه، ويمكننا الذهاب معهم. لكن على من يخرج من ووهان أن يبقى في الحجر أسبوعين في أحد المستشفيات بالأردن تحت المراقبة. وأضفت «لكن الأمر غير مؤكد بعد بانتظار موافقة الصينيين».

قال أبي «صحيح، سمعت أن الأردنيين والفرنسيين والأميركان سوف يرسلون طيارات لإجلاء رعاياهم. أنت وضعك كيف؟». قلت له إن وضعي مستقر: «كل الناس في بيوتهم، نخرج فقط للضرورة، لشراء الطعام وما شابه، غير ذلك لا أحد يخرج».

كنت مضطراً لأن أناور في الكثير من المناسبات لأنني لا أريدهم أن يقلقوا. سألني ماذا آكل؟ وسألني إن كان هناك «أحد معك في الغرفة؟». كان أبي لا يزال يعتقد أني في غرفة السكن الجامعي، فلقد تجنبت أن أذكر لهم أني خارج الجامعة لئلا يزداد قلقهم. سألني أيضاً، وكأنه يحاول الاطمئنان إلى أني لست وحدي الذي أخذ هذا القرار « الجنوني» بالبقاء «هل هناك لبنانيون معك؟ طلاب عرب؟ الفرنسي صديقك لا يزال هناك؟ هل تراه؟».

طبعاً ركز أبي على الفرنسي بسبب نظرتنا إلى الغرب، فبخلفياتنا هم دائماً يأخذون الخيارات الصحيحة. وعلينا أن نفعل مثلهم. أجبته: «الفرنسي لا أراه لأن كلاً منّا في غرفته، لكنه هنا هو والفلسطينية-الأردنية (صديقتي نادية)، أما جاري البنغلادشي فقد سافر إلى بلاده قبل هذه القصة».

كنت قد تواصلت فعلاً مع نادية صباح هذا اليوم كي أسألها حول موضوع الإجلاء من ووهان، وأكّدت لي أنهم يجهزون أنفسهم لذلك، لقد طُلب منهم تهيئة أمتعتهم. مع العلم أنها لم تكن تنوي الخروج، وتفضل البقاء، ولكن كانت تخشى أن يؤدي قرارها إلى إلغاء الإجلاء كاملاً، مما يؤدي إلى حرمان بعض الطلاب وخصوصاً صغار السن من الرحلة، فقد كانوا يعيشون وأهاليهم حالة خوف وقلق.

كنت قد حسمت أمري. لن أخرج من ووهان. فهذه الحرب التي أصبحت متسلحاً بكل ما أحتاج إليه للمشاركة بشكل فاعل. هي حربي، كما هي حرب كل البشرية. وقدر لنا، نحن الموجودين

في ووهان أن نكون على الخطوط الأمامية لهذه الحرب. إن كل ما أحتاج إلى معرفته أصبح في متناولي، وأنا أعمل على تطوير هذه المعرفة يومياً. كما أن المعلومات التي اطّلعت عليها تؤكد أن الصين قادرة على التصدي لهذا الفيروس. وهي تقوم بجهد جبار على كل المستويات، علمياً، سياسياً، طبياً، اقتصادياً، و طبعاً شعبياً. لذا نحن نسير على أساس خطة وضعها علماء لديهم خبرة، ويتم ضخ إمكانات كبيرة من أجل تنفيذها، وهناك شعب يلتزم إلى الآن، وجنود طبيون أظهرت المشاهد التلفزيونية كيف أن أدوات الوقاية وخصوصاً الكمامات حفرت في وجوههم نياشين فخر لن يمحوها الزمن إلى أجيال.

اجتماع وزارة الخارجية مع السفارات

عاد أبي وأرسل تسجيلاً صوتياً. كان يتردد في قول ذلك لكنه قالها «إذا نسقت السفارة (اللبنانية) مع الأردن، أترجع معهم؟»

أجبته «أنا لا أثق ببلادنا، إذا تبين أني مصاب لن يعرفوا كيف يتصرفون. من هم هنا لديهم خبرة أكبر. والأهم، لقد دخلت الصين من الباب، ولن أخرج من الشباك. أخرج من ووهان في حالة من اثنتين: إذا قال الصينيون على الأجانب الخروج، أو، وهذه هي الحالة الثانية، عندما تفتح المدينة وترجع إلى طبيعتها. أخرج عندئذ من المطار برحلة طبيعية كما دخلت. عمليات الإجلاء هي بمعظمها ضغط سياسي من بعض الدول ليشوهوا صورة الصين، ويقولوا إنها غير قادرة على السيطرة على الموضوع». كنت وبعد أن حسمت قراري بالبقاء، أقدم موقفاً سياسياً وليس صحياً فقط.

أجاب وقد وصلته الرسالة واضحة «حسناً بني، انتبه على حالك وخلينا على الاحتياطات نفسها، صوم وحبس».

كان أبي قد روى لي تجربته مع الحبس، وكيف أنه بقي 11 شهراً في غرفة تحت الأرض، وكيف كان يأكل الطعام نفسه كل هذه المدة. طبعاً كان يريد شد عزمي في الأيام الأولى، وحثّي على عدم تعريض نفسي للخطر.

كنت قد دوّنت بعض الملاحظات على صفحة المجموعة، حول عملية الإجلاء والشروط المرافقة لها، خصوصاً أن السلطات الصينية كانت تشترط أن يخضع كل من سيتم إجلاؤه للعزل مدة

14 يوماً في أول مكان يصل إليه. وبالتالي إن تم إجلاء اللبنانيين مع رعايا أي دولة أخرى، فهذا يعني أنهم سيخضعون للحجر في هذه الدولة. وهذا كان واحداً من الإجراءات الصارمة التي حاولت السلطات الصينية فرضها لمنع انتشار الفيروس خارج ووهان، أو في العالم. ولهذا تأخرت الصين في إعطاء موافقتها على إجلاء الرعايا الأميركيين والذي كانت تصر عليه الولايات المتحدة.

كنت قد كتبت أيضاً أنه إذا كان هناك احتمال أن أكون مصاباً بالفيروس، فإني أفضل البقاء في الصين للعلاج وليس في أي مكان آخر.

هكذا، علّق القنصل اللبناني على ما كتبته بالقول «أعتذر على تأخري بالرد هنا، فقد سبق وأوضحت الأمور على صفحة المجموعة الكبيرة». يقصد صفحة مجموعة أخرى كبيرة للبنانيين في الصين تضم حوالي 200 شخص من كل المدن. ولخص قائلاً «أجوبتي تتناسب مع طروحاتك، الحق معك مئة بالمئة، الحالة لا تستدعي الإخلاء، ولقد أوضحت إجراءات الحكومة الصينية، وما من داعٍ للإخلاء أو الهلع، وحالات الإصابة بالفيروس يُفضل معالجتها في مكانها. يبدو أن الجماعة مسيطرون على الوضع» يقصد السلطات الصينية.

كان ذلك أول تعليق رسمي لبناني يصلنا عبر سفارتنا. فقد كان من الهام جداً بالنسبة لنا أن نقاطع المعلومات التي جاءت فيه مع ما نعرفه ونعيشه في ووهان. حتى اللبنانيون في باقي المدن كانوا مهتمين بهذه المعلومات، إلّا أنهم إلى حينه لم يكونوا بعد في خطر من حيث انتشار الفيروس في مناطقهم.

وبواسطة مجموعة من التسجيلات الصوتية، لخص القنصل اجتماعه والسفراء الأجانب مع وزارة الخارجية الصينية في اليوم الخامس للعزل، فقال: «خرجنا في الحال من الاجتماع الذي حضره أكثر من 100 شخص. كان اجتماعاً مطولاً استمر أكثر من أربع ساعات». وأضاف أن السلطات الصينية شرحت لهم كل ما قاموا به منذ بداية الأزمة من عزل للمناطق وتخصيص فرق طبية وإشراك الجيش في تطبيق الإجراءات. كما شرحوا استراتيجية الصين في معالجة الأمور، وأضاف «هناك ثلاث نقاط علينا، حسب وزارة الخارجية الصينية أن نبلغكم إياها لأهميتها. أولاً: لا داعي للهلع بتاتاً، فالأمور تحت السيطرة بالرغم من تزايد الإصابات، فقد أصبحت أسبابها ومخاطرها معروفة. ثانياً، الوقاية هي أفضل علاج إلى الآن، وبالأساليب نفسها التي تعرفونها. أي:

الاحتياط، البقاء في البيت وأهم إجراء وضع الكمامة. كما النظافة الشخصية وعدم الاحتكاك بالحيوانات الحية».

أما بخصوص الإجلاء عن ووهان فقال ما حرفيته إن السلطات الصينية «لا تنصح ولا تشجع على الإجلاء، لأن حصر الموضوع في مكان واحد سيسمح لهم بالتصرف بشكل أفضل، والتحكم في التطورات دون زيادة المخاطر بعملية الإخلاء». وتابع يقول «أما الدول التي تصر على الإخلاء، وهم ثلاث أو أربع دول، فسيتعاونون معهم، لأن التصرف عكس ذلك سيعتبر تقييداً للحريات». وكتب القنصل أيضاً «غير ذلك، هم مسيطرون على الوضع حسب كلامهم، ومنظمة الصحة تشيد بأدائهم، وهم يتشاورون مع المنظمة بكل خطوة. وقد حرصوا على تطميننا إلى أنه ما من خطر على الرعايا الأجانب في الصين وخصوصاً في ووهان، وأنهم سيعاملون معاملة الصينيين لا بل أفضل. كما زودونا بأرقام ساخنة تتصلون بها عند الضرورة».

ثم دوّن القنصل الأرقام على الصفحة.

أهمية هذا الاجتماع كانت في أنه وضعنا في صورة ما تفكر وتقوم به الحكومة الصينية. كما أن لهذا الاجتماع أهمية قصوى على المستوى السياسي، فهو الأول بعد إغلاق ووهان، وأقيم بحضور معظم السفارات، وبالتالي فإن باقي دول العالم كانت تستطيع أن تستفيد مبكراً من التجربة الصينية. خصوصاً أنه في ذلك اليوم كانت معظم الإصابات لاتزال تتركز في الصين وفي ووهان تحديداً. حيث سجل ذلك اليوم 1778 إصابة في الصين، بينها 1298 في ووهان. أما على المستوى الدولي، فسجل 66 إصابة، بينها 5 إصابات في الولايات المتحدة. ومعظم باقي الإصابات تتركز في دول شرق آسيا خصوصاً، اليابان، كوريا الجنوبية، و سنغافورة.

«اليوم الخامس»

كتبت أول تعليق على صفحتي على فيسبوك حول ما يجري في ووهان، وهذا النص كان بمنزلة إعلان موقفي وموقعي في ما أسميته «الحرب من أجل البشرية» وكان النص بعنوان «اليوم الخامس».

«اليوم الخامس

لليوم الخامس على التوالي تعيش مدينة ووهان تحت الحظر. فبعد انتشار فيروس كورونا في المدينة، قررت السلطات الصينية إغلاق المدينة بشكل كامل منعاً لانتشار الفيروس خارجها. خصوصاً وأن الصين تمر بفترة أعياد ينتقل خلالها الملايين من المدن إلى القرى.

أنا من الأشخاص الذين عاشوا تجارب الحرب. في لبنان ٢٠٠٦، وسوريا في ٢٠١٥. كنا نعلم من أين يأتي العدو، ننتظر الغارة أو القصف ونأخذ حذرنا. مع بداية الحرب، يبدأ الناس بتخزين المواد الغذائية، تخزين الوقود.. التاجر الجشع (تجار الأزمات) يرفع ويحتكر الأسعار. تصبح الطرقات فارغة، تتحول مدن بأكملها إلى مدن ميتة. وتبدأ صعوبات الحياة.

في ووهان هناك حرب من نوع آخر، حرب أشرس من أي حرب أعرفها. في هذه الحرب لا تعرف من هو عدوك بالتحديد. يصبح الحل الأفضل الجلوس في الغرفة، عدم التواصل مع أحد. عدم الخروج حتى لو كان هناك أمر طارئ.

في ووهان أيضاً، وبالرغم من أنها تعيش حرباً شرسة، الدولة موجودة بقوة. لا غياب للمواد الغذائية الأساسية، لا احتكار للأسعار، المؤسسات التجارية الكبرى فتحت أبوابها بدوام شبه طبيعي. المواد الغذائية تتأمن بشكل يومي.

الأهم بالنسبة لي، كطالب أجنبي يعيش هنا، أنني إلى الآن أشعر وكأنني مواطن من هذا البلد، لا بل، إني أحصل على رعاية خصوصاً. الجامعة تتواصل معنا يومياً، عبر التعليمات أو عبر مكتب شؤون الطلاب أو مسؤولي الأقسام أو مكتب السكن الجامعي. حصلنا على الكمامات Masks)) عندما كانت مقطوعة في كل مكان في المدينة. بعض الجامعات بدأت بتوصيل طلبات الطلاب من مأكل ومشرب وكل ما يحتاجون إليه من أساسيات إلى غرفهم، من أجل أن تحافظ على سلامتهم.

يُطلب منا عدم الخروج إلّا للضرورة، وحتى الآن لا نخرج إلّا لتخزين الطعام. طبعاً يمنع منعاً باتاً الخروج من دون الكمامة. ولكن طبعاً لن يمنعك أحد من الخروج. خصوصاً وأن هناك الكثير من الطلاب يعيشون خارج السكن الجامعي، لذا فهم يأتون بشكل دوري لأخذ احتياجاتهم.

في ووهان الحياة ليست طبيعية أبداً، وضع المدينة صعب. هذه المدينة التي أعيش فيها منذ ٥ سنوات، والتي يقال عنها إنها مختلفة كل يوم. أراها حزينة اليوم، تقاتل عن الجميع، تحارب من أجل البشرية. نعم، كأننا نشاهد فيلماً لكن بأبطال حقيقيين من لحم ودم. انتشر خبر المستشفى التي ستبنى بعشرة أيام. ولكن هذا إنجاز بسيط بالمقارنة بما يحدث هنا. الحياة ليست على طبيعتها نعم، ولكن النظام موجود، كل شيء يسير كما يجب أن يكون. وهكذا يكون القتال، الجبهات كلها تعمل بشكل متناغم. الناس تلتزم بالتعليمات بشكل كامل وفوري، الأطباء يبدعون، العمال يستمرون بواجباتهم (اليوم الصبح كان في عمال عم يسقوا الشجر بالشارع مثل كل يوم، وطبعاً ما في زبالة)، الحكومة تقوم بواجباتها، الشعب الصيني كله يدعم ووهان، والطلاب الأجانب جميعهم يقفون إلى جانب ووهان في معركتها هذه.

أنا حزين على الوضع الذي نحن فيه، حياتنا بخطر وليست طبيعية. أنا حزين على هذه المدينة وأهلها الذين بفضلهم استطعت أن أستكمل تعليمي. ولكن أنا سعيد لأني جزء من هذه المعركة، مع أناس لا يعرفون الحقد ولا التمييز، أناس يجيدون القتال، ومن يجد القتال والانتظام سينتصر حكماً.

#كل_الدعم_لووهان_والصين»

武汉_加油
中国_加油

ووهان «شدي حالك»

كان ذلك المساء بارداً. لم تكن تمطر رغم انه الشتا، فالمطر يتساقط في ووهان في الصيف أكثر من فصل الشتاء. كنت قد أقفلت النوافذ مع ان المدينة أصبحت صامتة تماماً: لا أبواق سيارات ولا أصوات زحام. هدوء تام يجعلك تستطيع سماع أبسط حركة في الخارج.

كنت أجلس أمام مكتب أضع عليه اللابتوب، وأحاول العمل على أحد الأبحاث المتعلقة بالجامعة، ولكن دون ان أتمكن من التركيز. فجأة بدأ يتناهى إلى مسامعي صوت يشبه الصراخ. ركضت مباشرة إلى الشرفة التي تطلّ على حديقة المجمع، ولكن لم أستطع أن أرى شيئاً. ركضت إلى الجهة الأخرى التي تطلّ على الطريق العام ومن هناك يمكن أن ترى باقي المجمعات السكنية. كنت كلما أقترب من تلك الشرفة، يرتفع الصراخ. لم يكن واضحاً ما الذي يجري، واعتقدت للحظة أن الأمور خرجت عن السيطرة. وأن الناس فقدوا أعصابهم ويصرخون بعد مرور خمسة أيام على العزل.

فتحت باب الشرفة، فلفحني هواء بارد. أنا الذي لم أكن أفتح هذه الشرفة قط تفادياً للإصابة بالزكام. خليط من الأصوات المتداخلة الآتية من كل مكان تناهى إلى سمعي. خرجت ونظرت، ولدهشتي رأيت العائلة في الشقة المجاورة يقفون، كباراً وصغاراً على شرفتهم يضحكون. حقاً إنهم يضحكون! توقعت بكاءً، وخصوصاً بكاء أطفال، لكن..ها هم يضحكون!. صياح عال جاء من المجمع المجاور الذي يضم مباني شاهقة. «ووهان دجايو» كانوا يصرخون، فيجيبهم المئات أو ربما الآلاف «ووهان دجايو» أي «إلى الأمام ووهان» أو بلهجتنا اللبنانية «ووهان شدي حالك».. تتحمس الصغيرة في الشقة المجاورة وتصرخ بدورها في هذه الأجواء السريالية «ووهان دجايو». فأصرخ بدوري خلفها ببهجة وانفعال.

كان شعوراً لا يمكن وصفه أحسست بدمي يرقص في عروقي، أردت أن أصرخ بأعلى صوتي. كان الناس يشجعون بعضهم بعضاً من على شرفات المنازل التي حجروا أنفسهم فيها. بالصوت استطاعوا أن يجتمعوا. كان مشهداً مهيباً لبشر يدركون أنهم وبلادهم في محنة عظيمة، لكنهم يشدون على أيدي بعضهم بعضاً، من بعيد، بأصواتهم. كانوا يقولون لبعضهم، ولمدينتهم المنكوبة، ولبلادهم: لسنا وحدنا ما دمنا كلنا هنا متضامنين.

كان الناس يهتفون أيضاً مشجعين الفرق الطبية، كما فهمت بعدها من التعليقات على مواقع التواصل، فهذه الأخيرة كانت تمر بأوقات صعبة ودقيقة جداً، فإما أن تصمد ونبدأ مسيرة السيطرة على الوباء، وإما تنهار وينهار كل شيء.

لم أصوّر تلك اللحظة العظيمة، لكني وجدت الكثير من الفيديوهات على مواقع التواصل فشاركتها. لم أكن بعد قد بدأت بالتصوير، فقدراتي محدودة في هذا المجال. لذا كنت أهرب من التقاط الصور وخصوصاً من تصوير الفيديوهات.

بعد نشر فيديو «ووهان دجايو» على صفحتي، شاركه المئات. وفي أحد التعليقات، قالت فتاة مصرية «إيه ده؟ لقد فهمونا الحكاية غير كده». لم أفهم ما كانت تقصده إلى أن عرفت فيما بعد أنه تم نشر هذا الفيديو على الفيسبوك مع تحريف لمعناه الحقيقي. حيث ترجموا صرخات التشجيع على أنها استجداء المجتمع الدولي ليخرجوهم من الحبس الذي فرضته عليهم السلطات الصينية! يا إلهي! أهذا معقول؟ لذا، كان نشري لهذا الفيديو مع الترجمة الصحيحة، ومن حيث لا أدري، أول مساهمة لي في محاربة الإشاعات والتضليل. أول عمل لي كجندي في هذه المعركة التي أصبحت بعد قليل معركة البشرية.

الشيطان

على عكس معظم قادة الدول، فالرئيس الصيني لا يدلي بالكثير من التصريحات. وعلى الرغم من أنها مرحلة خطرة وصعبة كما وصفها بنفسه سابقاً، إلّا أنه نادراً ما يتكلم علناً. وإن قام بذلك فيكون تصريحاً مقتضباً جداً.

في اليوم السادس على الإغلاق، زار رئيس منظمة الصحة العالمية «تيدروس أدهانوم جبرييسوس» بكين وعقد لقاءات مع كبار المسؤولين السياسيين والصحيين. وخلال استقبال الرئيس الصيني له، وتعبيراً عن مدى شراسة العدو الذي تواجهه الصين، وصف الرئيس الصيني الفيروس بأنه «شيطان».

«ابني، كل الناس تخرج من ووهان. أعرف أنك قوي، وأنك مسيطر على الوضع. لكن يا بني الرئيس الصيني بنفسه وصف هذا الفيروس بالشيطان. فلتخرج لأن هذا التصريح يبدو رسالة تقول إنهم غير قادرين على السيطرة». بهذه الكلمات عبّر أبي عن قلقه بعد سماعه تصريح الرئيس الصيني. ويمكن من خلال هذه الكلمات تقدير مدى تأثير هذا الوصف الذي اعتمده الرئيس الصيني في معنويات الناس. فللمرة الثانية خلال أربعة أيام يصدر عن الرئيس تصريح من هذا النوع يدل على أن الفيروس أخطر من أي فيروس سابق. كان واضحاً أن الصين تريد أن يسمع العالم رسالتها بشكل واضح.

كانت وكالات الأنباء قد بدأت تتصل بي. فالأجانب الموجودون في ووهان ويجيدون لغات عالمية كانوا قلّة. كما كان ذلك بفضل تعليقاتي على الفيسبوك. سبع مقابلات في يوم واحد. بداية كانت الاستفسارات تتناول الوضع في ووهان خصوصاً في ظل كم الإشاعات الكبير الذي نشرته

الجيوش الالكترونية عن وضع المدينة بشكل عام بما فيها أوضاع اللبنانيين. كنت أشدد في كل مقابلاتي على أنن هذه الحرب ليست معركة الصين وحدها، بل معركة البشرية. فحسب ما كان أصبح متوافراً من المعلومات، تبين أن هذا الفيروس سريع الانتشار، وبالتالي سيؤدي إلى ضغط كبير على الطواقم الطبية، ما قد يدفع الأمور للخروج عن السيطرة. لذا، فإن الإجراءات التي اتخذتها الصين وخصوصاً إغلاق ووهان ومن بعدها إقليم هوبي بكامله، سيحد بشكل كبير من انتشار الفيروس، وانتقاله إلى الخارج بشكل سريع. وهذا الأمر كان سيعطي وقتاً كافياً لباقي الدول لتهيئ نفسها. كنت متيقناً أن الفيروس سيتسرب إلى الخارج، هذا إن لم يكن قد بدأ في الخارج أصلاً دون التمكن من تشخيصه. وكنت أعتقد أن تصريحات الرئيس الصيني، ستكون بمنزلة جرس إنذار واضح للعالم، لكي يتهيأ جيداً للقادم الخطير.

شرحت لأبي أن تصريح الرئيس الصيني يريد القول واقعياً لكل الدول «نحنا نبذل جهدنا، لكن هذا الفيروس خطير. انتبهوا واتّخذوا إجراءاتكم»، وأضفت أن مدير منظمة الصحة العالمية الذي كان هنا في الصين، أدلى بتصريح مفاده أنه لا ينصح بإجلاء الرعايا الأجانب، وقد أكد رئيس الوزراء الصيني هذا الاتجاه. كنت أعتقد جازماً من متابعتي أن الإصرار على عملية إجلاء الرعايا الأجانب، برغم نصائح منظمة الصحة العالمية والعلماء الصينيين الذين استندت إليهم الصين في توجيهاتها بهذا الموضوع، له هدف سياسي أكثر منه صحي يصب في خانة «شيطنة الصين».

قلت لوالدي «أنا باق، لن أخرج. أولاً من أجل صحتي، وثانياً من أجل صحتكم أنتم، وثالثاً لأني أريد أن أكون جزءاً من هذه المعركة».

لبنان الأزمة

وسائل إعلام كثيرة كانت قد بدأت بالاتصال بي. خصوصاً مواقع وجرائد وتلفزيونات لبنانية تحاول الاستفسار حول عودة اللبنانيين من عدمه. وعلى الرغم من أني كنت قد نشرت توضيحاً سابقاً عن طبيعة الذي حصل مع السفارة اللبنانية، إلّا أن بعض الإعلام كان مصراً على تكبير القضية. لذا وجدت من واجبي أن أنشر توضيحاً جديداً ليكون ضميري مرتاحاً. فأنا أرفض أن يتم تحوير كلامي لأهداف سياسية خبيثة.

وفي لبنان، الكثير من هذه الأهداف الخبيثة. بلد يخرج من أزمة ليدخل أكبر منها. فمنذ نهاية الحرب اللبنانية، تم تركيب نظام سياسي لبناني هجين على أساس تسوية دولية إقليمية هجينة مثله. وكانت نتيجة ذلك أن فرض نظام سياسي-اقتصادي على اللبنانيين، جعلهم يستكملون مآسي الحرب ولكن بشكل آخر. فمن كان يخسر ابنه أو ابنته على جبهات القتال، أصبح يخسرهما على أبواب السفارات، حيث يهاجر سنوياً آلاف اللبنانيين الشباب إلى الخارج طلباً للعلم والعمل. فالنموذج الاقتصادي اللبناني، الذي يغذي النظام السياسي الطائفي بموارد استمراره، مبني على عملية بسيطة. ماذا يصدّر لبنان؟ لبنان يصدّر الشباب المتعلم. إنهم «مواده الأولية» على حد تعبير زياد الرحباني الفنان الشيوعي المتمرد والناقد الاجتماعي الساخر البليغ.

قد يسأل سائل، وهل هذه تجارة بالبشر؟ لا بل إنها أخبث. تُفرض على اللبناني الهجرة عن طريق إقفال أفق المستقبل في وجه أبنائه بطرائق شتى. هكذا يضطرون للسفر والعمل في الخارج، وبالطبع يرسلون أموالاً إلى أهلهم في لبنان، هي في الحقيقة مورد أساسي من موارد الخزينة. لكن هذه الأموال تنفق على الاستهلاك، ولا يصرف أي شيء منها في مشاريع إنتاجية. كما أنها تساعد الاقتصاد اللبناني على تخفيف العجز في ميزانيته الذي يتسبب به الاستيراد الكبير دون تصدير شيء

يعادله. فبما أن البلد لا يصنع شيئاً تقريباً، والاستيراد يحصل عادة بالعملة الأجنبية. لذا، فخروج هذه الأموال من البلد بالاستيراد، يحتاج إلى أن تدخل أموال مكانها بالعملات الأجنبية. وبما أننا لا نصدّر أي شيء، كان الحل السحري بأن نصدر هذه اليد العاملة الماهرة.

استفاد من هذا النموذج الخبيث القطاعان: المصرفي والعقاري اللبناني، وحققا أرباحاً طائلة، بينما أكثرية أحوال الشعب اللبناني كانت تتراجع اقتصادياً إلى حدود خط الفقر. وحسب الدراسات حول لبنان، فإن هذا البلد من بين أوائل الدول من حيث عدم المساواة بين الدخل وتوزيع الثروة. يضاف إلى ذلك مصدر نهب آخر للبنانيين، وهو الدين العام، حيث أن لبنان لا يزال يتصدر اللائحة العالمية من حيث نسبة الدين العام المرتفعة إلى الناتج المحلي. فبعد انتهاء الحرب، توجه نظام التسوية الهجينة إلى الاستدانة من المصارف وأصحاب الثروات، وهم تقريباً أنفسهم أهل الحكم.

تراكم هذه الأزمات كان قد أدّى إلى العديد من التحركات الشعبية في السنوات العشر الأخيرة، كان أكبرها في تشرين الأول/أكتوبر 2019. واستمرت هذه الانتفاضة بشكل أو بآخر حتى الآن. كان من نتائجها استقالة الحكومة اللبنانية التي تشبه التسوية الهجينة نفسها.

إلا أن تغيير الحكومات لم يكن يوماً يؤدي إلى تغيير النموذج الاقتصادي اللبناني. ولكن هذه الانتفاضة بدأت على أبواب انهيار اقتصادي كبير. فالليرة اللبنانية التي تم تثبيتها مقابل الدولار، والتي كانت تكلف الخزينة ملايين الدولارات سنوياً كي تحافظ على قيمتها التي لا تستحقها، بدأت تتفلت.. ترافق كل ذلك مع قيام المصرف المركزي اللبناني، بصفته الذراع المالية لنظام التسوية، بدعم المصارف خلال تعثرها بمغامرات مالية خارجية وداخلية خلال السنوات الماضية، وأنتج ما سمي بالهندسات المالية. وهي عملياً هندسات نهب للمال العام وإعادة توزيع للثروة من الأكثر فقراً إلى الأكثر ثراء. وهذا الأمر غير مستغرب في أنظمة كهذه، فالسلطة هي سلطة الأثرياء تحديداً، وبالتالي ستدافع عن مصالحهم حتى الرمق الأخير.

هذه العلاقات لا تبدو واضحة للبنانيين، فالسلطة السياسية تدخلهم دائماً في خلافات عمودية على أساس طائفي كي تمنع توحدهم ضد عدوهم الحقيقي أي السلطة نفسها. لذا، ترى الكثير من اللبنانيين يقدسون زعيماً نهبهم وأفقرهم، وعندما تقول له «يا أخي، لكنه سرقك ونهبك»، يجيبك: «لا هو لا دخل له، الآخرون هم اللصوص». وهكذا تدخل في دائرة مفرغة: عندما تتأزم عمليه توزيع

الحصص بين الحكام، يتأزم الشارع ونصل إلى شبه حرب أهلية. ومن ثم يتصالحون ويكون الشعب هو الضحية.

هذه اللعبة لا تنفي أن هناك خصائص أخرى للبنان، فهو بلد في حالة صراع مع العدو الصهيوني، وهذا الصراع الدائم يؤدي في كل فترة إلى توتير قد يصل إلى الحرب كما حدث في عام 2006. وأيضاً اللبنانيون منقسمون منذ زمن بعيد على الموقف من مقاومة هذا العدو. لا بل ان هناك خلافاً على إن كان هذا عدواً أو لا. ففي مرحلة من تاريخ لبنان، عمل قلّة من اللبنانيين لدى الصهاينة، وهؤلاء بعضهم موجود في النظام الحاكم للبلد حتى اليوم.

في ما يلي ما كتبته على صفحتي على فيسبوك في: ٢٩/١/٢٠٢٠

«توضيح ضروري

لقد كتبت منذ بضعة أيام منشوراً أطالب فيه السلطات اللبنانية بالتواصل معنا في مدينة ووهان. وكان هذا البوست بمنزلة صرخة نتيجة الظروف التي كانت مستجدة في تلك الأيام، حيث تم إغلاق المدينة بشكل كامل منذ ٧ أيام.

أنا أود أن أؤكد ما كنت قد كتبته في اليوم التالي للمنشور(الصرخة)، لقد تم التواصل معنا من قبل السفارة اللبنانية في الصين، صباح اليوم التالي لنشر (الصرخة) ونحن على اتصال يومي مع القنصل اللبناني وعبره مع السفيرة.

نحن إذ نشكر كل من أوصل صرختنا، نؤكد أن أصواتنا وجدت آذاناً صاغية في السفارة اللبنانية، ونحن على اتصال دائم ويومي. لذا للأمانة والمصداقية نحن نعيد هذا التأكيد.

ولكي يطمئن الجميع، يوجد أربعة طلاب لبنانيين في مدينة ووهان، جميعهم بخير وبصحة جيدة جداً، لا داعي للهلع والخوف، نحن ملتزمون بكامل الإجراءات التي تصلنا، أنا من الأشخاص الذين لديهم كامل الثقة بأن السلطات الصينية ستتمكن من السيطرة على هذا الفيروس.

نتمنى أن تنتهي هذه الأزمة قريباً.

أتمنى أن تتم مشاركة هذا المنشور عند الحاجة وخصوصاً على المواقع التي تنشر البوست القديم لوحده.»

#武汉_加

من شوارع ووهان 1

كنت لا أزل مصاباً بعوارض زكام. وكميات المياه الساخنة مع زنجبيل التي شربتها كي أقي نفسي المرض، كانت تتعدى 3 ليترات يومياً. لم أكن أفارق كوب المياه الساخنة. وأنا أصلاً في الأيام العادية، قبل المرض وقبل كورونا، أشرب المياه الساخنة معظم الوقت. فهنا في الصين توجد نكتة يتداولها الأجانب تقول «إن أصابك أي مرض سينصحك الصينيون بشرب الماء الساخن». وهم، أي الصينيون، لا يفارقون زجاجة حافظة للحرارة، يضعون داخلها مياهاً ساخنة مع مواد أخرى مثل الأعشاب والأزهار. يشربون منها ويجددونها على مدار الساعة. كنت على مدى السنوات الخمس الماضية هنا، قد اكتسبت منهم هذه العادة الصحية. فأصبحت عند عودتي إلى لبنان، أشرب في الصباح إبريقاً من المياه الساخنة ما يثير استغراب الحاضرين.

إذا، كنت أقاوم الزكام بقوة، خصوصاً وأنني لا أعلم إن كان زكاماً عادياً أو عوارض فيروس كورونا. إلّا أن حرارة جسمي المعتدلة كانت الضامن الأساسي بأنني لست في دائرة الخطر حتى الآن. وخلال هذه الفترة، وكي لا أصيب أهلي بالقلق، كنت أتحاشى إرسال تسجيل صوتي كي لا يلاحظوا أني مريض.

أدى الاستهلاك الكبير للمياه إلى نفاد مخزوني الذي كنت قد اشتريته في اليوم الأول للإغلاق. فكان عليّ أن أخرج لكي أشتري المياه التي لا أستطيع البقاء دقيقة واحدة دونها. ولكني لم أكن قد خرجت من البيت قط في الأيام السبعة الماضية. لذا كنت متردداً: هل أخرج أو أنتظر إلى الغد؟ لم يكن ممنوعاً بعد أن نخرج من المنزل، ولكن عند الخروج كان يجب الالتزام بالإرشادات، وأهمها استخدام الكمامة، والحفاظ على مسافة أمان لا تقل عن متر ونصف المتر عن الآخرين. لم أكن أعلم كيف أصبح هذا الخارج. هل هناك حركة ناس؟ أنا متيقن أنه لا سيارات على الطريق،

لأني أستطيع ملاحظة ذلك بكل وضوح من شقتي. ولكن ماذا عن الناس؟ ماذا عن المتاجر؟ هل سأجد مكاناً يبيع الماء؟

قلت، أذهب أولاً إلى المتجر الموجود أسفل الشقة، مع أنني أعلم أنه لا يبيع المياه، لأنه متخصص بالخضار والفواكه، ولكني قلت لنفسي: من الممكن في ظروف كهذه، أن يكون لديه مياه.

كان الجو بارداً جداً. لبست كل ما لدي من ثياب: سروال داخلي مصنوع من الصوف، وفوقه السروال الوحيد الموجود لدي هنا. وكذلك ثلاث كنزات وفوقها معطفي، وقبعة صوفية. كان لدي إلى حينه كمامة واحدة فقط، كنت قد أخذتها من رودجر قبل مجيئي إلى منزل «هان-كو»، وهي من النوعية الجيدة جداً، كان هو قد اشتراها من متجر الكتروني عبر تطبيق «تاوباو» قبل إغلاق ووهان طبعاً.

لم يكن لدي قفازات من تلك التي تستخدم مرة واحدة، فقد وصلت إلى هذا المنزل قبل إجراءات العزل، وفي اليوم التالي أقفلت المدينة. لكن كان يوجد في المطبخ قفازات تستخدم عند غسل الصحون. لذا، وبعد أن وضعت الكمامة، لبست هذه القفازات، وأصبحت جاهزاً للخروج.

قبل أن أفتح الباب قلت في نفسي، إذا خرجت إلى الشارع سأصوّر للناس واقع مدينة ووهان. وكنت في فترة الانتفاضة في لبنان منذ أشهر، قد شاهدت الكثير من الأشخاص يصورون فيديوهات مباشرة من موقع الحدث، مما يساعد على نقل الحقيقة دون أي تحريف، كانت هذه التقنية جذابة أكثر من غيرها. فقلت، إذا صورت فليكن فيديو أبثه مباشرة عبر فيسبوك، فهكذا سأكون شفافاً في نقل الواقع إلى أبعد الحدود. خصوصاً وأنني متيقن أن معظم ما ينقل عن ووهان هو مجرد إشاعات وتضليل إعلامي. صحيح أني لا أملك إمكانات المنصات الإعلامية العالمية، إلّا أني أملك ما هو أقوى: أنا في قلب الحدث، صورتي هي الحقيقية. لذلك فإن نقل الصورة على طبيعتها والتعليق على ما أراه أيضاً بشفافية ودون أي مبالغة إن كان سلباً أو ايجاباً سيساهم في تصويب ما يحصل عند الرأي العام، وسيساعد في مواجهة تلك الهجمة.

جهزت الهاتف في وضع تشغيل الفيديو. وضعت سماعات الأذن. أزلت أحد القفازات من يدي كي أستطيع التحكم في الهاتف. شغلت برنامج كسر الحظر من أجل استخدام الفيسبوك، حيث أنه في الصين لا يمكن استخدام هذه التطبيقات لأنها محظورة. وخرجت من المنزل. وصلت إلى

مدخل السكن، لم يسألني أحد إلى أين ذاهب، فإلى حينه لم يكن المتطوعون قد بدأوا بتنظيم الخروج والدخول. عندما أصبحت في الطريق، كنت أتعرق بالرغم من الجو البارد. كنت متوتراً، فالمشهد مخيف: الطرقات فارغة تماماً. أكثرية المحال التجارية مغلقة. الهدوء الذي يلف المكان مرعب. وكأنك في فيلم يصف مدينة هجرها سكانها، بفارق أن كل شيء نظيف، حتى أنني كنت قد رأيت من شرفة منزلي عمال النظافة يأتون في أوقاتهم المحددة لكنس الطريق وغسلها.

نظرت حولي لا أعلم في أي اتجاه سأذهب، فعلى مدى رؤيتي لا يوجد أي متجر يفتح أبوابه، قلت، فلنبدأ من ذلك المتجر أسفل شقتي، والذي كنت على يقين أنه يعمل. كان يبعد عني أقل من 50 خطوة. بعد بضع خطوات، استعدت توازني بعض الشيء، ويبدو أنه خلال المشي عادت الدورة الدموية لتتحرك بشكل طبيعي. قبل أن أصل إلى باب ذلك المتجر، قلت سأبدأ التصوير.

أخذت الهاتف من جيبي، فتحته، فظهر مباشرة تطبيق فيسبوك. ولكن لم أكن أعرف كيف يتم التصوير المباشر. لكن الأمر لم يكن صعباً وجدت الطريقة بعد لحظات لبدء البث المباشر. ظهرت صورتي على الهاتف، شخص ملثم لا تظهر منه إلّا عيناه. وبدأت التصوير.

كان الفيديو يعمل بطريقة «السلفي»، مباشرة بدأ يظهر أن هناك من يتابعون الفيديو، وكان عددهم يزداد في كل ثانية. كانوا يتفاعلون بشكل رائع وإنساني مع ما أقوم بعرضه. قلت في البث «لأول مرة أبث مباشرة عبر الفيديو، هذا فيديو من مدينة ووهان، هذا محل فواكه فتح أبوابه»، وكنت بعد خطوات قليلة قد أصبحت أمام المتجر الذي يقع تحت منزلي، وباللغة الصينية سألتها «هل لديك ماء؟» فكان جوابها «لا يوجد ماء».

لم أكن أعلم كيف أحول التصوير عن وجهي، أدرت الهاتف كي يشاهد الناس الشارع، وتوجهت إلى الطرف الآخر من الشارع، وأنا أشرح للمشاهدين الذين كان قد أصبح عددهم يقارب 300 خلال لحظات «أريد أن أشتري ماء... هذا محل وصيدلية يعملان. الحركة ضعيفة جداً جداً، معظم المحال الصغيرة مقفلة. فقط محال المواد الغذائية والصيدليات فتحت أبوابها. أبث هذا الفيديو مباشرة ليرى العالم فعلياً كيف هو الوضع هنا».

كنت حريصاً على نقل كل تفصيل، وشرح كل ما يظهر بالفيديو. قلت وأنا أقطع الطريق الذي كان يبدو فارغاً: «هذا شارع عادة يكون مليئاً بالناس، فلأر إن كان هناك ماء عند هذه

السيدة؟» أيضاً هنا لم أجد ماء. أضفت «هذه صورة بسيطة عما يجري في ووهان، لا يوجد شيء يدعو للهلع. إذا التزم الإنسان كما أفعل يمشي الحال، كل الناس ملتزمة بيوتها». واستكملت الشرح حول كون المحال بمعظمها مقفلة أصلاً قبل العزل بسبب عطلة الربيع، كما شرحت الطبيعة الريفية للمجتمع الصيني التي تدفعهم للعودة إلى الأرياف في أعياد كهذه. قلت شارحاً «ولكن هناك متاجر كانت أصلاً مقفلة طلبت منها الحكومة أن تفتح أبوابها مجدداً لكي لا تنفد المواد الأساسية». وكان أيضاً يهمني أن أظهر أن ووهان لا تعاني نقصاً في المواد كما يروّج بعض الإعلام ، لذا كنت أشرح كل تفصيل أراه أمامي، على الرغم من أنه في اليوم الأول حصل تهافت على المحال التجارية لتخزين المواد، ولكن سريعاً ومنذ اليوم التالي ضبطت الأمور، كما تم إنشاء جسر جوي لتزويد المدينة بالغذاء والدواء ما أدى إلى عدم انقطاع أي منتج أساسي من المدينة.

كانت معلومات الناس خارج الصين عن الفيروس تقارب الصفر، وكان ذلك واضحاً من التعليقات المباشرة على الفيديو التي بمعظمها أسئلة بديهية جداً. فإلى حينه، أي في 29 كانون الثاني/ يناير 2020، كان الفيروس لايزال محصوراً في مدينة ووهان، وعدد الحالات خارج الصين لم يكن قد تخطى 90.

تابعت البث «حسناً. هنا ينتهي فيلمي عن الخروج من الغرفة... طبعاً هناك حركة ولو خفيفة، ولكن الأكيد أن كل الناس تضع كمامة، لأنه ممنوع الخروج من دون كمامة، ويعتبر ذلك مخالفة للقانون حالياً في الصين وخصوصاً في هذه المدينة».

انتهى أول فيديو من شوارع ووهان.

من شوارع ووهان 2

استكملت البحث عن متجر يبيع الماء. وبعد جولة في الشارع، وجدت متجراً يبيع المواد الغذائية كافة. كان كل ما يحيط بهذا المتجر مغلقاً. فمعظم المحال هي لبيع الكماليات أو مطاعم صغيرة. دخلت إلى المتجر، وسألت البائعة إن كان لديها ماء في عبوات كبيرة. قالت نعم يوجد. عندما خرجت من المتجر، قلت لنفسي «حسناً: لكي لا يظن من تابعوني في الفيديو الأول أننا مقطوعون من المياه، فلأصور فيديو آخر». في تلك اللحظة كان ممنوعاً أن أقوم بخطأ كهذا.

أخذت الهاتف، وعلى طرف الرصيف وضعت عبوات المياه الأربع وبدأت التصوير المباشر مجدداً. قلت «استطعت أن أشتري أربع عبوات مياه. سعة الواحدة خمسة ليترات». أضفت: «اللذة، المعلومة الحلوة، أنني توقعت أن تقول لي البائعة إن العبوة التي يبلغ سعرها في الأيام العادية 10 كواي، قد أصبح سعرها 50 أو 60 أو 70 كواي. وكنت واثقاً أنني سأشتري. ولكن قالت إن السعر 10 كواي، يعني سعره نفسه قبل الأزمة. 4 عبوات مياه بـ 40 كواي». أضفت ممازحاً، «كنت أريد أن أقترب منها وأقبلها، ولكن قلت ممكن أن يكون معي أو معها كورونا فعدلت عن الفكرة». بعد ذلك، عرضت الطريق كيف هي نظيفة، وقلت: «ادعوا لنا ولهذا الشعب أن تنتهي هذه الأزمة قريباً».

كنت قبل يومين، وتحديداً في اليوم الخامس، قد دخلت في نقاش مع أحد المتابعين من الأردن. حيث كنت قد ذكرت بأنه لو حصلت أزمة في بلادنا، أي أزمة، لارتفعت الأسعار بشكل جنوني ولكان ظهر بسرعة البرق تجار الأزمات. ففي لبنان مثلاً، خلال الحروب، ما إن تبدأ الأزمة، حتى تكون الأسعار قد ارتفعت بشكل جنوني. لذا، قلت هنا الأمر غريب، لم ترتفع الأسعار في ووهان ولو قليلاً. ولكن كنت بحاجة إلى توثيق ذلك، لأن معلوماتي كانت مبنية على التقارير

الإخبارية الصينية. لذا، كان هذا الفيديو وما تضمنه من عرض، خصوصاً ان الأسعار لاتزال نفسها على الرغم من أن هذا المتجر لا يوجد غيره في الشارع في مثل ذلك الوقت (السادسة مساء)، أي لا منافس، وكان بإمكانه أن يرفع الأسعار خصوصاً وأنني أجنبي.

عندما عدت إلى المنزل، كنت سعيداً جداً أنني تمكنت من القيام بذلك، وكان تفاعل الناس أكثر بكثير مما توقعت. بدأت الاتصالات والرسائل تصلني بالعشرات، ولكن كان يجب اتباع الإرشادات والتعليمات، فقد كنت أردد دائماً عبارة حفظتها من أحد الدروس العسكرية، حيث يقول خبراء المتفجرات إن «الخطأ الأول هو الخطأ الأخير» للتأكيد على ضرورة أخذ الحذر دائماً. وأنا كنت اعتمدت هذا الشعار للمرحلة. فأي خطأ، بمعنى أي استهتار ممكن أن يؤدي إلى إصابتك بالفيروس. لذا توجهت مباشرة إلى الحمّام، وقمت بالإجراءات نفسها التي قمت فيها في المرة السابقة عندما وصلت من الجامعة إلى هذا المنزل..

كان يدور ببالي سؤال بشكل دائم: لماذا لم ترتفع الأسعار؟ في منطق السوق الرأسمالية، عندما يزيد الطلب ويقل العرض حكماً سترتفع الأسعار، ولكن هنا لم تتحرك قط. لم يكن هناك جواب إلّا «الاشتراكية ذات الخصائص الصينية». بمعنى كيف يقوم حزب شيوعي بإدارة اقتصاد رأسمالي. ألا تشغل البال هذه أيضاً؟

دعم الصمود الشعبي

كانت الجامعة قد أرسلت لنا بريداً الكترونياً يفيد أنه بدءاً من صباح 30 كانون الثاني/يناير، ستبدأ بتوزيع ثلاث وجبات مجاناً لكل طالب لا يريد الخروج بتاتاً من غرفته. فقد كان هناك من جهة، طلاب خائفون، خصوصاً في الفترة الأولى، ومن جهة أخرى، كان هناك طلاب يتعلمون على حسابهم الخاص. لذا فمن الممكن أن يكونوا في وضع مادي صعب. فهم لا يحصلون على معاش شهري من الجامعة، وكذلك لا يستطيعون الحصول على أموال من خارج الصين بسبب الإغلاق الكامل لمدينة ووهان الذي يشمل المصارف، عكسنا نحن الطلاب الحاصلين على منحة. لذا، ومنذ صباح هذا اليوم بدأ الطلاب يسجلون أسماءهم للحصول على الوجبات.

كانت إدارة السكن الجامعي بحاجة إلى عدد من المتطوعين لتوصيل الطعام إلى الغرف لتفادي أي زحمة أو احتكاك كان من الممكن أن يتسبب به الطلاب عند حضورهم لأخذ الطعام. لذا تقرر أن يتم وضع الطعام على باب كل طالب. وبما أن المجمع الطلابي الذي يسكن فيه طلاب الدكتوراه الأجانب يتألف من 12 مبنى، كل منها بثلاث طبقات وعشرات الغرف، كان لا بد من إيجاد متطوعين.

بداية لم يتطوع إلّا طالب مصري واحد! كما أذكر أن بعض مواطنيه من الطلاب عاتبوه على ذلك، لكنه لم يعط أهمية لانتقادهم. بعده كرّت سبحة المتطوعين من مختلف الجنسيات. كان لخطوة توزيع الطعام أثر إيجابي كبير في معنويات الطلاب، خصوصاً الخائفين منهم. ولرفع المعنويات أكثر، أرسلت الجامعة تعميماً بأسماء استشاريين نفسيين يمكن لأي طالب يشعر بالقلق أو عدم التركيز في أعماله أن يتواصل معهم بشكل مجاني. كان هذا دعماً حقيقياً.

كان أحد الطلاب قد كتب على مجموعة السكن متسائلاً «هل يستطيع أي منكم التركيز في أبحاثه في هذه الأوضاع؟»، وأضاف، «إذا كان الجواب بنعم، رجاء أرشدوني إلى طريقتكم. فكلما أردت التركيز في بحثي، لا يخطر ببالي إلّا اسم هذا الفيروس! حاولت جهدي ولكني فشلت. أنا جدّي فعلاً بطلب المساعدة». أجابته إحدى طالبات الدكتوراه في اختصاص علم النفس بأننا «جميعاً في الوضع نفسه» واقترحت عليه أن يوقف عمله الأكاديمي لفترة. «وكل شيء سيكون بعد فترة على ما يرام». لذا، فقد كان تخصيص بعض الاختصاصيين النفسيين لمساعدة هؤلاء الطلاب أمراً بالغ الأهمية.

تم تنظيم كل شيء في كل مكان من ووهان ليتناسب مع الواقع الجديد في وقت قياسي. وكان الهدف الأساسي مساعدة الناس على البقاء في المنازل، وعدم الحاجة إلى الخروج إلّا عند الضرورة القصوى. أما في المجمع السكني الذي كنت موجوداً فيه، فكانت الإجراءات على مدخل السكن قد بدأت، ولكن لم يكن هناك منع خروج. مجموعة من المتطوعين من المنظمة القاعدية للحزب الشيوعي الصيني في هذا المجمّع، كانت تقف عند الباب، إضافة إلى عدد من المتطوعين من السكان وعدد من الموظفين. ففي كل مجمّع سكني توجد لجنة، دورها محدود في الأيام العادية. إلّا أنها أصبحت هذه الأيام تقوم بمهام عديدة تشمل كل نواحي الحياة اليومية للسكان. لذا كان هناك حاجة لدعم هذه اللجنة بمتطوعين شيوعيين وسكان غير حزبيين.

كانت مهام هؤلاء المتطوعين حتى حينه هي التالية: منع دخول أي زائر إلى المجمّع، توفير احتياجات كبار السن، واحتياجات السكان الذين يعانون أمراضاً أو من ثبتت إصابتهم بالفيروس ويخضعون للحجر المنزلي، وأولئك الذين يخضعون للعزل نتيجة الاشتباه في إصابتهم. فكان هؤلاء المتطوعون يوصلون الطعام والدواء لهم حتى باب المنزل، كما كانوا يحصلون منهم على تقرير يومي حول وضعهم الصحي خصوصاً فحص الحرارة. هذه الأعمال كانت إجراءات الجزء الأول من دعم الصمود الشعبي للسيطرة على الفيروس.

طوارئ عالمية

كانت الصين قد أرسلت دعوة إلى منظمة الصحة العالمية، ومجموعة أخرى من العلماء، لزيارة الصين والاطلاع على جهود السيطرة على الفيروس. وفي صباح 30 كانون الثاني/يناير، وصل إلى مطار بكين إيان ليبكين، خبير الأمراض المعدية في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة، وكان في استقباله في المطار تشونغ نان شان «الجبل» شخصياً كتدليل على الأهمية الاستثنائية التي توليها الصين لزيارة هذا العالم الأميركي المشهود له بدوره الكبير في محاربة فيروسات سابقة مثل «سارس» و«إيبولا»، مما أكسبه لقب «صائد الفيروسات».

في اليوم نفسه كان هناك تطور هام على صعيد التعاطي الدولي مع هذا الفيروس: فعلى الرغم من أن عدد الإصابات خارج الصين لم يكن قد تجاوز 98 حالة موزّعة على 14 دولة معظمها في شرق آسيا، كما أنه لم تكن قد سجلت أي حالة وفاة خارج الصين، إلّا أن مدير منظمة الصحة العالمية أعلن من مقره في مدينة جنيف السويسرية «حالة طوارئ صحية» على المستوى الدولي. وقد قال في إعلانه إن «السبب الرئيس لهذا الإعلان لا يرتبط بما يجري في الصين، وإنما بما يجري في بلدان أخرى. فالمخافة الكبرى هي إمكانية أن ينتشر الفيروس في بلدان لديها نُظم صحية أضعف وليس لديها مستوى التأهب اللازم للتعامل مع الوضع». وتابع «أقولها بوضوح تام: إن هذا الإعلان ليس تصويتاً بسحب الثقة من الصين. بل على العكس، لا تزال المنظمة واثقة تماماً بقدرة الصين على السيطرة على هذه الفاشية».

بهذا الإعلان تكون المنظمة قد أرسلت رسالة واضحة إلى كل العالم بأنه عليه الاستعداد لاحتمال تفشي هذا الفيروس على أراضيه، كما فعل تماماً قبلها الرئيس الصيني في تصريحه الذي

وصف فيه الفيروس الجديد بالشيطان محذراً من خطورته. كان واضحاً جداً تخوّف المنظمة من انتشار الفيروس بشكل كبير خارج الصين، خصوصاً «إذا ما قُدّر له أن ينتشر في بلد لديه نظام صحي ضعيف» كما قال مضيفاً «علينا أن نعمل اليوم لمساعدة البلدان على التأهب لإمكانية حدوث ذلك».

في هذه الكلمة التي ألقاها مدير منظمة الصحة العالمية في 30 كانون الثاني/يناير 2020، كان لافتاً إشادته بأداء الصين لمواجهة الفيروس. « إن الحكومة الصينية جديرة بالثناء على ما اتخذته من تدابير استثنائية لاحتواء هذه الفاشية رغم ما يترتب على هذه التدابير من آثار اجتماعية واقتصادية فادحة في الشعب الصيني». وهذه الإشارة إلى التبعات الاقتصادية الفادحة كما وصفها، اكتشفها الكوكب بكامله في الفترة اللاحقة، تماماً كما أضاف أنه «لولا تلك الجهود التي بذلتها الحكومة، وما أحرزته من تقدم في حماية شعبها وشعوب العالم لشهدنا اليوم عدداً لا يحصى من الحالات خارج الصين، بل ربما عدداً كبيراً من الوفيات أيضاً» واستطرد المسؤول الأممي بقوله: «إن السرعة التي كشفت بها الصين هذه الفاشية وعملت على عزل الفيروس واستخلاص تسلسله الجينومي وتقاسمه مع المنظمة والعالم، لهو أمر جدير بالإعجاب للغاية ولا تفيه العبارات حقه، شأنه شأن ما أبدته الصين من التزام بالشفافية وبدعم البلدان الأخرى. لقد أرست الصين في الواقع معايير جديدة في مجال الاستجابة للفاشيات، بأشكال عديدة ودون أي مبالغة».

وبعد أن وجه تحياته للعاملين الطبيين وجميع العاملين في الخطوط الأمامية لمواجهة هذا الفيروس، أضاف أنه «بفضل جهود هؤلاء، بقي عدد الحالات في بقية أنحاء العالم منخفضاً نسبياً حتى الآن» خاتماً كلمته بدعوة «جميع البلدان إلى تنفيذ قرارات متسقة وقائمة على الأدلة، ونبدي استعدادنا لتقديم المشورة إلى أي بلد ينظر في ما يلزم اتخاذه من تدابير في هذا الشأن.

لقد حان وقت الحقائق لا الخوف.

وقت العلم لا الإشاعات.

وقت التضامن لا الوصم».

الإشاعة تضرني ولو ناسبتني سياسياً

لم تتوقف «نظريات المؤامرة» (أو الإشاعات كما أفضل تسميتها) منذ اليوم الأول على إغلاق ووهان. كان الكثير من الناس «متيقنين»، من دون أي دليل، أن ما يجري هو «مؤامرة أميركية» لضرب الاقتصاد الصيني، ربما نظراً إلى السياق السياسي الذي كان سائداً قبل الفيروس، وخصوصاً الحرب التجارية والاقتصادية التي كانت الإدارة الأميركية تشنها على التقدم الصيني، خصوصاً في الموضوع التكنولوجي وتقنيات الاتصالات المعروفة بالجيل الخامس. وبما أن ترويج الإشاعات في زمن مواقع التواصل الاجتماعي هو من أسهل الأمور، كان يتم ترويج أخبار على أنها دليل على تلك المؤامرة الأميركية.

منذ البداية، اتخذت موقفاً في تحدثي لوسائل الإعلام قائماً على توضيح أنه لم تكن هناك أية دلائل واقعية أو علمية على صحة تلك النظريات. ولفت نظر محدثي مرات عدة مصرّاً على حقيقة أن الإشاعة مضرة حتى لو كانت تناسبني سياسياً. فهي تضلل الجميع، وعندما يتم تضليلنا سنخسر المعركة لأن لا أحد يمكنه أن يضلل الفيروس.

كنت قد قرأت مقالاً نشره موقع قناة «الحرة» في 23 كانون الثاني/يناير، أي في اليوم الأول على إغلاق ووهان، يتحدث عن أن الفيروس تم تصنيعه في مختبرات سرية في أوروبا، وزعم الكاتب أن الهدف منه هو تحقيق أرباح مادية ضخمة من قبل شركات الأدوية التي تمتلك اللقاح، لكنها تنتظر أن ينتشر الفيروس بشكل أكبر قبل أن تعلن لقاحها. وبرأي معدّ التقرير الذي يستند إليه المقال وهي «منظمة العدل والتنمية في الشرق الأوسط»، فإن اختيار الصين لنشر هذا الفيروس، كان يتعلق بالكثافة السكانية لهذا البلد، وبالتالي فإن انتشار الفيروس سيكون كبيراً، ومن الممكن أن ينتقل بسهولة إلى الهند أيضاً!.

في 25 كانون الثاني/يناير، نشر نعيم، على صفحة «مجموعة ووهان»، مقابلة فيديو أجرتها قناة تلفزيونية عربية مشهورة مع مقيم عربي في مدينة ووهان، عرّف عن نفسه على أنه اختصاصي جراحة صدرية. طرح الرجل الأسئلة الغريبة التالية: «لماذا أصاب هذا الفيروس الصينيين بشكل خاص؟ أو الآسيويين بشكل عام؟ لماذا يصيب الأشخاص بين عمر الأربعين وعمر الستين عاماً وليس الأطفال والشباب؟» . وعندما سأله مقدم البرنامج إن كانت هناك أجوبة عن تلك الأسئلة، أجاب بالنفي مستدركاً «لكن هذا لا يمنع التساؤل: لماذا يصيب الفيروس الصينيين فقط، لم لا يصيب الأجانب؟ فحتى الآن لم يصب أي أجنبي في ووهان أو خارجها. حتى الذين اكتشفت إصابتهم في بلدان أخرى كانوا من الآسيويين!!».

كان واضحاً مدى تأثر هذا الطبيب بنظريات المؤامرة التي تحاول اكتساب شرعيتها من تحليل متسرع جداً للأرقام والأحداث. فحتى حينه، لم تكن الدول الأخرى قد بدأت بإجراء فحوصات جدية، بل كانت تعتمد فقط على ظهور العوارض وخصوصاً ارتفاع درجة الحرارة. لكن خلال أيام قليلة، تبخرت هذه «النظرية». فقد بدأ أجانب يصابون بالفيروس، إن كان في ووهان أو في دول أخرى.

في هذا السياق، وفي اليوم نفسه، اتصل بي مسؤول سياسي لبناني ليسألني رأيي بما كان هو مقتنعاً به تماماً: إن هذا الفيروس هو سلاح أميركي في حرب بيولوجية تشنها الولايات المتحدة على الصين!

قال الرجل: «هل صحيح أن الصينيين وجدوا براميل بيولوجية في حديقة القنصلية الأميركية؟» مضيفاً دون انتظار جوابي «واضحة القصة، هذا الفيروس مسجل كبراءة اختراع لشخص أميركي سنة 2015!» طبعاً كان جوابي أن هذه الأخبار لا أساس لها من الصحة. وأضفت «ولكن، بعيداً من الحرب البيولوجية، هناك حدث وحيد يشغل بالي: دورة الألعاب العسكرية العالمية التي جرت في ووهان منذ شهرين». فهل يكون الفيروس قد انتقل من شخص مصاب من خارج البلاد مثلاً إلى الصينيين؟

كانت ووهان قد استقبلت الدورة السابعة للألعاب العسكرية العالمية، وشارك فيها حوالي 10 آلاف عسكري من 109 دول ومن بينها الولايات المتحدة الأميركية. وكانت إحدى الفعاليات قد جرت في جامعتنا.

في ووهان انتظرنا بشوق تلك الدورة، فقد استغرقت التحضيرات لها سنتان كاملتان. كانت الإعلانات تملأ الشوارع والساحات. أول مرة حاولت أن أربط بين هذه الدورة وانتشار الفيروس كانت بعد حديث حصل مع صديقتي الصينية «مي». فقد أخبرتني أن الموقع الالكتروني التابع لوزارة الدفاع الصينية نشر مقالاً يتحدث فيه عن ضرورة الاستعداد للحرب البيولوجية. طلبت منها أن ترسل لي المقال لمزيد من التحقق، لأن هذه المعلومة خطيرة جداً. لكن، بعد التدقيق تبين أن موقعاً الكترونياً خاصاً، كان قد أعاد نشر مقال قديم نقلاً عن موقع وزارة الدفاع كان قد سبق نشره سنة 2018 (بعض المصادر قالت2011 ولكن الأكيد ان هذا المقال كان قديماً) ولم يعد يتم تداوله مطلقاً بعد تكذيبه.

قالت بعد تبين قدم المقالة «أعتقد أنه لدورة الألعاب العسكرية ارتباط قوي بما يجري. أكثر من 10 آلاف شخص من كل دول العالم دخلوا إلى ووهان خلالها».

«ما هذا!» قلت لها ممازحاً «تتحدثين عن المؤامرة؟ وفي السياسة أيضاً، هذا تطور نوعي». فالصينيون بشكل عام، أو قد يكون هذا انطباعي من مخالطتهم هنا لخمس سنوات خلت، ينظرون إلى الغرب، وخصوصاً إلى الولايات المتحدة، بإعجاب شديد، وفي الأمور السياسية هذه النظرة تسامحية لا تشكيكية. وللأسف، معظم التعليقات السلبية التي يقولها الإعلام الغربي عنهم، لم تكن تصلهم لأسباب عديدة منها اللغة والفضاء الإعلامي المقنن الذي يعيشون فيه. فلو أتيح لهم، وهو ما حدث لاحقاً في نهاية الأزمة، الاطلاع على أخبار الحوادث العنصرية التي أصابت الجالية الصينية مثلاً في أميركا، والتصويب على بلادهم التي قامت بكل ما كان عليها لتحذير العالم من خطورة فيروس كورونا الجديد، لكان رأيهم قد تغير فعلاً، وهو ما حدث، أقله مع معارفي.

المهم، أخبرتني مي أن «هناك دراسة نشرت منذ أيام لعلماء صينيين، كانوا يحاولون الوصول إلى المريض صفر بالفيروس، أي الإصابة الأولى (P0)، فوجدوا أنه من أصل 31 مصاباً، هناك 27 كانوا على احتكاك بسوق الأسماك في ووهان، بينما هناك أربعة مصابين لم يحتكوا قط بهذه السوق. لذا فإن الإصابة الأولى (P0) غير معروفة حتى الآن. ولهذا، استخلصوا أنه من المحتمل أن يكون من خارج ووهان». استنتجت بناء على ذلك أنها لا تتحدث عن حرب بيولوجية بقدر ما كانت تحاول الإشارة إلى أن مصدر الفيروس قد لا يكون ووهان، أي أن يكون أحد المشاركين قد نقله معه من بلده عن قصد أو غير قصد.

لم أكن قد اطلعت على تلك الدراسة، ولكن المعلومات التي قدمتها مي، لم تكن كافية لهذا الربط. ومع ذلك لم أنس هذه النظرية طوال الأيام اللاحقة. فحتى أنا، لم أكن معصوماً من التفكير أقله في نظريات كهذه، دون أن أسمح لأي تحريض إعلامي أن يؤثر في نظرتي العلمية إلى الأمور.. لذا، حرصت في كل مقابلاتي أو نقاشاتي أن أكون متأكداً من أي معلومة أقولها، وأن يكون هناك مصدر موثوق به لهذه المعلومة. فمن الأهمية بمكان الحفاظ على مصداقيتي من جهة والتي بالمناسبة لا أملك غيرها، ومن جهة أخرى على سلامة تفكير الرأي العام، في قضية تتعرض لكم كبير من التشويش بالمعلومات الخاطئة. أما ما كان يدور في بالي؟ فأمر آخر، ولكن بعيداً من تلك النظريات المضحكة كالقول بأن الفيروس معدل خصوصاً كي يصيب الصينيين فقط.

لكنني لا أنفي أن العالم على مر تاريخه قد شهد فعلاً مؤامرات أدت إلى تدمير أمم وشعوب. فكيف لي، أنا الآتي من الشرق الأوسط، أن أنفي ذلك، وقد عشت حرب احتلال الأميركيين والبريطانيين للعراق سنة 2003 بتفاصيلها اليومية؟ كنا نشاهد بلداً ذا عراقة تاريخية يدمر أمام أعيننا، وشعبه يقتل بمئات الآلاف، بسبب ادعاءات كاذبة فبركها الأميركيون بتواطؤ بريطاني تقول بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل؟ ما اسم هذا؟ أليس مؤامرة؟

أذكر جيداً في شتاء عام 2003، وخلال الغزو الأميركي للعراق، كان أصدقاء أبي، ومعظمهم من المقاتلين السابقين في الحرب اللبنانية(1975 - 1990)، يلتقون في منزلنا حول موقد يعمل على الحطب، في المطبخ الذي نحوّله شتاء إلى غرفة جلوس أيضاً، ليتابعوا الأحداث عبر التلفاز. وعند كل تفصيل جديد، كانت التحليلات العسكرية تتدفق. فعاطفتهم القومية لم تكن تدعهم

يتخيلون، أن بغداد ستسقط خلال أيام. كانوا يتمسكون بكل أمل، حتى لو كان ناتجاً من وهم. وحتى عندما دخل الأميركيون بغداد، كانوا يعتقدون أن فرقاً عسكرية عراقية لا تزال مختبئة في مكان ما ستظهر لتحارب وتستعيد العاصمة العراقية! وأن هذا التراجع ليس إلّا تكتيكاً عسكرياً لتحييد القدرات الجوية والصاروخية الأميركية. لكن، عندما تسلق جنديان أميركيان تمثال صدام حسين ورفعا العلم الأميركي عليه، كانت الوجوه في مطبخنا شاحبة، وخرست الأصوات التي كانت ترتفع وتتناقش بالتحليلات. لم يكسر الصمت إلّا صوت أحد أصدقاء أبي، أبو عرب، يقول لي هامساً: «اسأل أمك إن كان لديها جهاز لفحص السكري في الدم». هذا الرجل الضخم كان، كأصدقاء أبي الآخرين، مؤمناً إلى درجة كبيرة بالقضايا العربية، إلى درجة أن أطلق على نفسه لقب «أبو عرب». لم يكن، كبقية الأصدقاء على اتفاق مع الأنظمة العربية، لكن«لوثة» العروبة كانت لاتزال داخله.

ذهبت أمي إليه وسألته قلقة عن حالته فقال لها «لا أعلم لم أحس بدوار! كما لو أن الغرفة تدور بي». أتينا بجهاز فحص السكري من بيت عمي، وقد تبين فعلاً أن نسبة السكر في جسمه مرتفعة جداً، هو الذي لم يكن يعاني قط هذا المرض.

منذ سقوط بغداد، أضاف هذا الرجل العروبي-اليساري، مرضاً مزمناً إلى جسده المنهك بالأمراض. كأن ذلك الجسد كان جسد أمتنا العربية في الحقيقة، وقد أضاف لأمراضها ونكساتها وخيباتها سقوط بغداد مرضاً إضافياً خبيثاً، كما حصل تماماً بسبب الحروب التفتيتية اللاحقة التي كانت الولايات المتحدة وأدواتها، المحرك الأساسي لها.

هذه الحرب التي شنت بادعاءات كاذبة روجها المهرج المجرم وزير الخارجية الأميركي حينذاك كولن باول، حين عرض مستندات مزيفة في مجلس الأمن الدولي، مدعياً أنها صور التقطتها أقمار صناعية لمواقع تخزن فيها أسلحة الدمار الشامل العراقية، والتي تبين فيما بعد زيفها باعترافه شخصياً. جميعنا كان يعلم بأن هذه الحرب كان هدفها النفط. وبعد سنوات قليلة اعترف الجانب الأميركي وباول نفسه بأن كل هذه الأدلة كانت كاذبة، واصفاً ما حدث بأنه «وصمة عار»، وكذلك فعل رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير الذي شارك الولايات المتحدة في هذه الحرب القذرة ضد العراقيين.

ادعى باول بأنه قد تم خداعه. أما بلير فلقد قال إنه متأسف! ولكن بعد أن مات ملايين العراقيين بسبب هذه المؤامرة، ودمرت البنى التحتية العراقية وسرقت خيرات العراقيين. وبحجة القضاء على الديكتاتورية وبناء الديمقراطية، فرض الحاكم العسكري الأميركي الذي حكم العراق بعد ذلك، نظاماً سياسياً طائفياً أدى إلى نشوب حروب أهلية بين العراقيين، ولايزال العراق يدفع ثمن كل ذلك حتى اليوم.

نظريات المؤامرة

كنت أتفهم إلى حد بعيد أن يقوم أشخاص عاديون بإنتاج «نظريات مؤامرة» تهوّن عليهم جهد التفكير في الأسباب الحقيقية لهذا الوباء. فمن السهل أن تقول إن الجهة الفلانية مسؤولة عن إنتاج هذا الفيروس لأسباب سياسية يعرفها الجميع، وبالتالي حينذاك لن تحتاج إلى التفكير وبذل الجهد في التحليل بشكل علمي.

ولكن أن يلجأ مسؤولون سياسيون على أعلى المستويات إلى ترويج نظريات كهذه منذ اليوم الأول، ومن دون أي دليل علمي؟ فهذا الأمر مثير للريبة. لا يعود الأمر متعلقاً بجهل الحقائق، بل بتحريفها قصداً خدمة لأهداف عادة ما تكون سياسية اقتصادية. لذا كانت هناك جهود سياسية وإعلامية غربية تبذل لحرف الأنظار عن التحقيقات التي يقودها العلم للتوصل إلى مصدر الفيروس.

ففي 25 كانون الثاني/يناير، نشرت مجلة «ديلي ميل» البريطانية، تقريراً للكاتبة ناتالي راهال تقول فيه إن الفيروس قد يكون تسرب من مختبر بيولوجي صيني في مدينة ووهان!

ولكن الكاتبة لم تكن تستند حتى إلى دليل واحد! فوجود مختبر بيولوجي في المدينة نفسها التي انتشر فيها الفيروس، وعلى بعد 32 كيلومتراً من سوق السمك، كان بالنسبة لها دليلاً كافياً لإطلاق نظرية كهذه. وفي الإطار نفسه، نشرت صحيفة «واشنطن تايمز» نقلاً عن داني شاهوم وهو ضابط استخباري عسكري إسرائيلي سابق، مقالاً في 28/1/2020 مفاده أن الفيروس ربما تسرب من مختبر في ووهان، لكن الضابط ذكر في المقال نفسه بوضوح أنه «لا يوجد أي دليل أو إشارة لإثبات هذا الحدث». لكن ذلك كافٍ لزرع الفكرة في وعي الرأي العام.

«نظرية المؤامرة» التي أُطلقت بشكل مبكر والتي لا تستند إلى أي دليل لم تتوقف عند هذه المقالات، ففي مساء 30 كانون الثاني/يناير 2020، وخلال متابعتي لجلسات الاستماع في مجلس الشيوخ الأميركي، قال توم كوتون، وهو سيناتور ولاية أركنساس، خلال الاستماع إلى لجنة القوات المسلحة أنه «يعرف» ، بأنه «في مدينة ووهان مختبر رفيع المستوى، من المستوى الرابع، وهو الوحيد في الصين الذي يدرس مسببات الأمراض الأكثر خطورة في العالم، ومن بينها، نعم، فيروس كورونا». وكما حال «ديلي ميل» كان وجود هذا المختبر في ووهان دليلاً كافياً لهذا السيناتور لتوجيه الشكوك نحو نظرية تسرب الفيروس من المختبر! علماً أنه يوجد 54 مختبراً مشابهاً لهذا المختبر في العالم. أما لم لا يكون التسرب من أحد هذه المختبرات الأخرى؟ فلسبب لم يتأخر الإعلام والساسة الغربيون في الإشارة اليه: تفوقهم العلمي والتكنولوجي المستند إلى .. تفوقهم الحضاري! وبما أن المختبر في الصين وليس في دولة أوروبية أو في الولايات المتحدة، فهذا ما يجعله مشكوكاً في مستويات الأمان فيه.

هذه الفرضيات التي استخدمت على نطاق واسع، أصبحت مادة دسمة للاستثمار السياسي. كما انتشرت بشكل كثيف في الإعلام، وطبعاً وصلت إلى العالم العربي ومواقع التواصل فيه. حتى ان قناة «سكاي نيوز» بفرعها العربي، نشرت خلال تلك الفترة تقريراً مصوراً بعنوان «ما السر الذي يخفيه مختبر السلامة البيولوجية في ووهان؟» كررت فيه الرواية نفسها.

طبعاً إنتاج روايات هوليوودية كهذه، لم يكن جديداً على الساسة الأميركيين ولا على الإعلام الغربي. فمن جهة هذه الادعاءات كانت تناقض تماماً ما كنا نعلمه عن مصدر هذا الفيروس حتى حينه، فبحسب التسلسل الجيني للفيروس الذي نشرته الصين، كان العلماء قد توصلوا إلى استنتاجات أساسية عرضناها سابقاً، تقول بأن مصدر الفيروس حيواني، انتقل من الحيوان إلى الإنسان في الفترة الأولى ومن ثم بدأ في مرحلته الثانية ينتقل من الإنسان إلى الإنسان. ومع تقدم الدراسات لم تتغير هذه الفرضية بل تعززت أكثر وأكثر، ولا يزال هذا الأمر يخضع للمزيد من الدراسة.

لقد كانت سياسة اختراع الأفكار المؤامراتية وبشهادة وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية الحالي مايك بومبيو، في صلب النهج السياسي الأميركي دائماً. ففي محاضرة ألقاها في

جامعة A&M في ولاية تكساس سنة 2019، قال ما حرفيته «عندما كنا طلابا عسكريين، تذكرون ما كان شعار الطالب العسكري في كلية «وست بوينت» Point West؟ لن تكذب أو تغش أو تسرق أو تتسامح مع من يفعل ذلك»، ثم يضيف وبكل فخر: «كنت مديراً لوكالة المخابرات المركزية (CIA)، ولقد كذبنا وغششنا وسرقنا». ووسط تصفيق الحضور وضحكهم لهذا الاعتراف «الظريف»، أضاف «هذا يذكرك بمجد التجربة الأميركية». مجد التجربة الأميركية؟ هل قصد ذلك فعلاً؟ نعم، لقد قصد. فهذه التجربة السياسية لطالما لجأت إلى هذه الثلاثية اللاأخلاقية، مضافاً إليها القتل من أجل فرض خياراتها على شعوب العالم. ولنا في التاريخ تجارب لا تعد ولا تحصى حتى داخل المجتمع الأميركي نفسه.

عوارض كورونا؟

منذ اليوم الأول على الإغلاق، بدأت أشعر بأنني سأصاب بالزكام. وكما ذكرت سابقاً، حاولت جاهداً تلافي الإصابة بشرب السوائل الساخنة. وخلال خمسة أيام كنت قد تمكنت من السيطرة على الوضع. كنت سعيداً جداً أني تمكنت من ذلك، فالآن أستطيع أن أرسل رسالة صوتية إلى أيّ كان، وخصوصاً أبي، دون أن أقلق لاحتمال انشغال باله لسماعه صوتي المزكوم، والاستنتاج بالتالي أنه ربما أكون قد أصبت بالفيروس. لذا، كنت دائماً أشرح لأهلي أن أهم عارض يؤشر على احتمال الإصابة بالفيروس المستجد، هو الحرارة. فإذا أصبنا بالزكام أو السعال، فهذا لا يعني أننا مصابون بالكورونا إلّا إذا ترافق ذلك مع ارتفاع الحرارة. لذا، أصبحوا يسألونني فقط عن درجة حرارتي. وعندما ينتاب أحدهم الشك لسماع صوتي المزكوم، كنت أقول: لا تقلقوا حرارتي عادية، وفعلاً نجحت هذه الطريقة.

لكن الفرحة بالنجاة من الزكام لم تدم طويلاً. فبعد يومين، أي صباح 31 كانون الثاني/يناير، وعندما كنت أعجن لأحضر الخبز للفطور، بدأت أسعل سعالاً جافاً. قلت لنفسي «لا، ليس هذا أيضاً». فقد كنت أصاب سنوياً، في مثل هذا الوقت، بهذه المشكلة التي تجعلني أسعل دائماً، وقد تستمر هذه الحالة معي شهراً وأكثر، كان نوعاً من الحساسية وكان متعباً ومزعجاً جداً. وهذا العارض هو العارض نفسه الذي يظهر على مرضى كورونا، حيث أن الفيروس يضرب الجهاز التنفسي وخصوصاً الرئتين ويتحوّل في المرحلة الثانية من الإصابة إلى «التهاب رئوي» قد يؤدي إلى الوفاة.

من فوري اتصلت بمي، وطلبت منها أن تؤمن لي دواء لهذه الحالة بشكل سريع. كان هناك دواء من الطب الصيني التقليدي أثبت السنة الماضية فاعليته على حالتي، لكني كنت قد نسيت اسمه.

قالت:حسناً. سأؤمنه لك. بعدها قمت، والعجين لا يزال على يدي، بقياس حرارتي. الحمدلله! كانت النتيجة مطمئنة. ولكن.. ما هذا؟ أأكون ميتاً لكي تكون حرارتي (35.8)؟ اتصلت بأمي، التي لم أكن قد اتصلت بها بعد سوى برسائل صوتية مسجلة، لأسألها عن أفضل طريقة لفحص الحرارة: فقد كنت أقيس حرارتي من تحت إبطي، ما دفعني للاعتقاد بأن النتيجة ربما تكون غير دقيقة. لكن السؤال كان كافياً لشغل بال الوالدة التي بدلاً من أن تجيبني عن سؤالي عبرت عن قلقها.

«ماما، قلت لها، سؤالي واضح وبسيط: كيف أقيس حرارتي بشكل مضمون؟ لأني لن أفعلها من باب البدن كونها مطلوبة مني يومياً».

أضحكتها. وربما اطمأن قلبها لممازحتي تلك، فأرشدتني قائلة «من تحت لسانك أو إبطك. قس حرارتك وأخبرني بالنتيجة».

كيف فعلت ذلك؟ لقد كان سؤالي هذا لوالدتي خطأ جسيماً، خصوصاً وأن أبي كان يجلس إلى جانبها مع أختي. و..انهالت الاتصالات، وكل يحاول استدراجي إلى «البوح بالحقيقة». وبيني وبينكم؟ امتنعت عن الإجابة لأني أنا نفسي كنت قلقاً: ماذا لو تبين أني كنت مصاباً؟ لن أكذب، ولن أجيب حتى أتيقن.

لم تكن لدي مشكلة مع احتمال الموت. فمنذ زمن كنت قد حسمت موقفي منه. من أيام المدرسة الثانوية تحديداً، خلال مرحلة طرح الأسئلة الكبيرة والتفكير الفلسفي في الحياة. كنت قد اعترفت لنفسي أنه لا مشكلة لدي مع الموت، إنه استراحة أبدية. عندما تذهب إلى عمل شاق خلال اليوم، ما هو الأمر الوحيد الذي تتوق إليه بعد كل هذا الجهد؟ أليس النوم العميق؟ إنه الموت نفسه. استراحة بعد تعب الحياة.

ولكن ليس بالفيروس! لن أموت بفيروس. لقد آمنت بمقولة «اختر الموت بين زخات الرصاص»، لا بل إني كنت قد ركضت إلى أماكن كهذه في السابق. لا أريد أن أموت بهذا الفيروس الخبيث، ولا بأي «خبيث» آخر، السرطان مثلاً. كنت ولا أزال أخشى الإصابة بالسرطان وقد أعددت سيناريو للتعاطي معه لو أصابني. السيناريو يقول: عند اشتداد المرض، سأطلق النار على مكان وجوده في جسدي، وكنت أتوقع أن هذا الأمر سيحدث، في يوم ليس ببعيد. فبلدتي «برجا» في لبنان، ينهش أهلها هذا المرض الخبيث، وعدد الوفيات بسببه يزيد عن المئة سنوياً.

لم أكن أتقبل أنه إذا مت بهذا الفيروس فسيتم حرق جثتي ودفن رمادي في مكان لا أحد يعرفه. أقله أريد أن أدفن في مكان قريب من منزلنا. حتى أنه ليس لدي مشكلة أن أدفن في ووهان، إذا تعهدت لي الجهات الرسمية بالسماح لأهلي أن يأتوا لزيارتي أقله مرة. كانت هذه النقطة تثير قلقي، فقد كنت أعلم أن جثامين ضحايا الفيروس، لا يمكن تسليمها لذويهم خوفاً من انتقال المرض إليهم. ولكن أنا؟ كانت لي خطتي أيضاً ليوم مماتي. لن أقبل أن يكون هذا اليوم الأخير فوق الأرض إلّا كما أريده.

أعدت فحص الحرارة مجدداً، فكانت (36.5)، وهذا يعني أن وضعي «تحت السيطرة حتى الآن». قلت لنفسي: هذه عبارة جيدة. لا كذب فيها. ولا حسم. سأستخدمها من الآن فصاعداً عندما أُسأل عن حالي. خصوصاً أني كنت غير متيقن إن كان سعالي الجاف هذا من عواض كورونا أو لا. وفي الحقيقة إن ما زاد مخاوفي، هو كون السعال قد بدأ في اليوم التاسع على إغلاق ووهان. أي في الوقت المحدد حسب الأطباء لبدء ظهور العوارض. لكني كنت قد أخذت قراراً بأن لا أذهب أبداً إلى المستشفى إن لم ترتفع حرارتي يومين متتاليين. ومع ذلك، كنت أطمئن نفسي بأن هذا السعال هو سعالي الموسمي.

من برجا إلى ووهان

في مساء هذا اليوم، اتصلت بي إحدى الإعلاميات اللبنانيات، وصورنا مقابلة لتعرض خلال نشرة الأخبار المسائية. قبل بدء التسجيل، تمنيت عليها أن تحذف كل مقطع من التسجيل كنت قد سعلت فيه. فسألتني عن السبب، وإن كنت مريضاً بكورونا طبعاً؟ فقلت لها «أبداً، سعال موسمي، لكن في سياق الوضع الكوروني في ووهان، الجميع سيعتقد غير ذلك، وسيقلقون».

إلى حينه لم يكن الفيروس قد انتشر خارج الصين بشكل كبير. ولم تكن قد سجلت أي إصابة في الدول العربية، لذا فهم لا يعرفون عن هذا الفيروس إلّا ما يأتي عبر الإعلام، ومعظمه حول مدينة ووهان. وكانت وسائل الإعلام العربية قد بدأت تتهافت لإجراء المقابلات معي كوني عربياً في مركز الحدث، ومتابعاً للوضع. فإذا ظهرت بمظهر المريض، ولو بسعال موسمي، سأكون عامل نشر للخوف بين الناس، عكس ما كنت أريد تماماً. الحذر نعم، الهلع لا.

لم تكن تلك مقابلتي الأولى مع القنوات العربية، ولكن كنت آمل أن تنقل هذه المراسلة ما أريد قوله بأمانة. وفعلاً، كانت عند حسن ظني. خلاصة المقابلة: أولاً، لا للهلع. ثانياً، هذه حرب حقيقية تخوضها الصين ومدينة ووهان خصوصاً، كخط دفاع أول عن البشرية بأسرها أمام هذا الفيروس الذي قد يتحول إلى وباء عالمي. ثالثاً، يجب أن نتوحد جميعاً دولاً وشعوباً لمواجهة هذا الخطر.

سألتني: « هل ستخرج من ووهان؟»

أجبتها «لن أخرج، لأسباب عديدة. ليس في الأمر شطارة أو مكابرة. أنا ضامن أنني بخير هنا في هذا العزل. نعم أنا أخاطر، ولكنني لا أغامر». ثم أضفت «ثانياً، إذا عدت إلى لبنان وأنا مصاب بالفيروس، ماذا سيحدث هناك؟ أخاف على أهلي وناسي. لا أريد أن أكون السبب في مشكلة

كبيرة لن يتحملها بلدنا طبعاً. لقد بنت السلطات هنا مستشفى مخصصاً للمصابين في عشرة أيام فقط، لكن نحن ماذا لدينا في لبنان؟ لا نملك أي إمكانات للتعاطي مع وضع كهذا، بينما راكم الصينيون هنا تجربة ضخمة في الفترة الأخيرة لمواجهة الفيروس».

الإجلاء

31/1/2020

عند منتصف ليل هذا اليوم، تم إجلاء أول دفعة من الطلاب العرب. طائرة أردنية أقلت مجموعة من الطلاب الأردنيين والفلسطينيين بالإضافة إلى طالب لبناني. كان من المقرر أن يخضع الجميع للعزل في الأردن، طبقاً لشرط السلطات الصينية للموافقة على ترحيلهم. على أي شخص يخرج من ووهان الخضوع للعزل التام مدة 14 يوماً، هي المدة الكافية لظهور العوارض إن كانت هناك إصابة، قبل أن يبدأ بممارسة حياته بشكل طبيعي. وهكذا، لم يبق في ووهان إلّا طالبان لبنانيان: نعيم وأنا، بالإضافة إلى الصبية المقيمة هنا أصلاً.

كان نعيم قد غيّر رأيه وقرر العودة إلى لبنان في حال تم إجلاء الطلاب السوريين. كان هناك كلام عن أن الطلاب السوريين والعراقيين والإيرانيين سيتم إجلاؤهم دفعة واحدة، على متن طائرة عراقية أو إيرانية. ومن ثم ستنقل طائرة سورية الطلاب السوريين إلى الشام على أن يخضعوا للعزل هناك. لذا، وفي اتصال مطوّل بيني وبين نعيم اتفقنا على أن يطلب من السفارة اللبنانية تأمين عودته مع هذا الوفد، وتنتظره سيارة إسعاف لبنانية في مطار دمشق، تقله مباشرة إلى لبنان، حيث سيخضع للعزل هناك.

بدأت المفاوضات مع الدول المعنية ومع وزارة الصحة اللبنانية، ولكن إلى حينه كانت خطط إجلاء هذه الدفعة مجرد أفكار. أما أنا فكنت قد ازددت إصراراً على قراري بعدم الخروج.

عرفت بإجلاء الأردنيين صباح ذلك اليوم من نادية، جارتي الفلسطينية في السكن الجامعي. فقد أخبرتني أنه تم تبليغهم أن الإجلاء سيكون مساءً. كانت متوترة بعض الشيء. قالت لي بلهجتها

الفلسطينية المحببة «في فاعل خير أعطاني 2000 كواي (العملة الصينية) وطلب مني توزيعها على طلاب قد يكونون محتاجين في هذه الأزمة» وأضافت أنه قال لها إن جنسياتهم لا تهم ولا دينهم، فقط حاجتهم. وأضافت «زي ما بتعرف، أنا مسافرة حالاً. فهل هناك مجال أن تتكفل أنت بهالمهمة؟»

أجبتها موافقاً «على راسي، سأتكفل بالموضوع. ولكن أنت من الأردن ساعديني إن عرفت بمن قد يكون في حاجة».

كان قد جرى إجلاء أكثر من 500 أميركي من ووهان على ثلاث دفعات خلال الأيام الثلاثة الماضية. ولكن طبعاً، كباقي الجنسيات، لم يغادر جميع الأميركيين المدينة، فقد فضّل بعضهم البقاء. كانت الولايات المتحدة قد أقفلت قنصليتها في ووهان منذ 25 كانون الثاني لتقديرها خطورة الوضع. كما أنها كانت من الملحين على الإجلاء أيضاً للتقديرات نفسها، على الرغم من أن رأي منظمة الصحة العالمية، والسلطات الصينية كان يكرر أنه لا داعي لذلك كما أشرنا سابقاً.

بكل الأحوال، فإن مجرد تقدير الولايات المتحدة لخطورة الفيروس، يؤكد أنهم حصلوا من الجانب الصيني على المعلومات الكافية حول ما يجري. وإلا فإن قرار الإجلاء وإغلاق القنصلية، لا يعود له أي مبرر سوى ما كنت أعتقده سابقاً، وهو مجرد ضغط سياسي على الصين لتصويرها على أنها غير قادرة على حماية الرعايا الأجانب.

ما نشر في ذلك اليوم في الصحافة الأميركية أكد استنتاجي، فالسلطات هناك كانت على اطلاع كامل على خطورة الوضع، وخصوصاً السلطات الطبية. حيث صرحت مديرة المركز الوطني للتحصين وأمراض الجهاز التنفسي بمركز مكافحة الأمراض والوقاية منها، بأن «مسؤولي الصحة في الولايات المتحدة مستعدون لاحتمال أن يتحول هذا الفيروس إلى وباءٍ عالمي». وأضافت المديرة واسمها نانسي ميسونير «نحن نستعد كما لو أن هذا الفيروس هو الوباء التالي (...) إذا اتخذنا إجراءات قوية الآن، فقد نكون قادرين على تخفيف تأثير الفيروس في الولايات المتحدة». كما وصفت ميسونير إجراءات الحجر الصحي بأنها «إجراءات غير مسبوقة ولكنها الأفضل للسيطرة على الفيروس». وأضافت كتأكيد آخر على تقديرات الجهات العلمية الأميركية لخطورة الوضع منذ البداية «نحن نواجه تهديدًا غير مسبوق للصحة العامة». وكان قبلها الدكتور «أنثوني فوشي» خبير الأمراض المعدية المعروف في أميركا قد عرض تفاصيل وافية عن الفيروس ومخاطره وطرائق الوقاية منه خلال مقابلة مع «صوت أميركا»(VOA) في 22 كانون الثاني/يناير 2020.

لكن، وعلى الرغم من تشديد العلماء الأميركيين على خطورة الوضع، إلّا أنه حتى ذلك اليوم لم تكن السلطات قد اتخذت سوى إجراء وحيد، سياسي أكثر منه وقائياً صحياً، هو رفع الخارجية الأميركية لمستوى تحذير مواطنيها من السفر إلى الصين، متذرعين بحالة الطوارئ الصحية التي أطلقتها منظمة الصحة العالمية، ما استدعى توضيحاً من المنظمة بأن الإعلان كان قد صدر لتشجيع الدول على عدم فرض قيود على السفر إلى الصين والتجارة معها.

كان هناك يومئذ تحريض سياسي ناشط لوقف التعامل التجاري مع الصين، على الرغم من أنه لا يوجد أي تحذير علمي من ذلك. إلّا أن التعبير الأوضح عن تسييس الفيروس واستغلاله لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية، كان تصريح ويلبر روس وزير التجارة الأميركي يومذاك (31/1/2020)، الذي اعتبر أن «تفشي فيروس كورونا في الصين قد يفيد الاقتصاد الأميركي»، موضحاً أنه قد يؤدي إلى مغادرة الشركات الأميركية للصين. وأضاف «أعتقد أن فيروس كورونا سيساعد على الإسراع في عودة فرص العمل إلى الولايات المتحدة».

هذا التصريح الذي سمعته خلال انتظار موعد مقابلتي على إحدى القنوات، استفزني كثيراً. فهو يظهر الاستغلال السياسي الفاضح للظرف. كأن الفيروس، حسب ما يعتقد الأميركيون، سيبقى محصوراً في الصين، في حين سيتاح لهم في هذا الوقت قطف الثمار الاقتصادية لكارثة بلد وشعب آخر. كم كان هذا التصرف يشبه السياسة الأميركية! لم يكونوا ينظرون إلى الفيروس على أنه تحد عالمي على البشرية أن تتوحد من أجل مواجهته بل فرصة لغلبة منافس.

لذا، أثناء تلك المقابلة - أعتقد أنها كانت على قناة روسيا اليوم- سألتني المحاورة سؤالاً مزدوجاً: عن رأيي بتصريحات وزير الخارجية الأميركي من جهة، وبنظريات المؤامرة وخصوصاً الحرب البيولوجية من جهة أخرى. أجبتها أنه «لا يوجد أي طرف رسمي هنا في الصين يتحدث عن نظريات المؤامرة، بل يقولون دائماً إن العلم هو من يحدد مصدر الفيروس. أما الجانب العلمي فيقول أن كل الدلائل تشير إلى أن مصدر الفيروس حيواني، وبالتالي فهو غير مصنّع. ولكن إن أردنا أن نتكلم سياسياً، فأي حرب هي بين طرفين، يخسر طرف فيها ويربح آخر. لكن، في هذه الحرب، كان يفترض أن يكون الطرفان هما الفيروس من جهة والبشرية من الجهة الأخرى، وبالتالي فالمتضرر والخاسر هو البشرية. ومع ذلك، هناك بلد في هذا العالم يقول إنه مستفيد من انتشار الفيروس، وهو

الجانب الأميركي، وهذا كان واضحاً جداً على لسان وزير تجارتهم. وبهذا المعنى، نعم من الممكن الحديث عن حرب، لأن الجانب الأميركي أقله، يتصرف وكأنه شن حرباً من حروبه وهو الآن يحصد الأرباح».

مدينة أشباح؟

دون أي مقدمات، اتصلت بي إحدى الصديقات اللبنانيات وقالت «يا إلهي يا أدهم! ما هذه المشاهد المخيفة لأشخاص يقعون فجأة وهم يمشون في الشارع عندكم؟ هل شاهدتها؟ أهذا ما يحصل عندكم؟ يا إلهي! انتبه لنفسك».

هذه الصديقة القديمة، واسمها مهى، كانت تستكمل دراساتها العليا في الرياضيات في مدينة تورينو الإيطالية. كانت مهى تقصد بحديثها فيديوهات انتشرت على الإنترنت تصوّر أشخاصاً يقعون في الشوارع صرعى مرض ما، زعمت تلك الفيديوهات أنها صورت في مدينة ووهان نتيجة إصابتها بالفيروس. كما انتشرت فيديوهات أخرى تصور أعداداً كبيرة من الناس ملقاة على الأرض دون حراك، زعموا أنها جثث أموات بسبب انتشار كورونا في ووهان. بقليل من التحقق تبين أن تلك المشاهد كانت لأشخاص يقومون بنوع من تظاهرة تعبيرية عن أخطار التلوث البيئي في مدينة ألمانية على ما أعتقد.

أجبتها بالنفي القاطع. وقلت لها أنه في الأصل «هذه ليست عوارض الإصابة بكورونا. فكل ما هنالك أن المصاب يصاب بسعال ناشف وترتفع حرارته، لم سيقع الناس صرعى في الشوارع؟». ولكن المشكلة التي كانت تواجهني أنه إلى حينه لم يكن لأحد أن يتخيل ما أقوله. فالفيروس كان لايزال محصوراً في الصين، وخصوصاً ووهان، وعدد الإصابات قليل جداً خارج الصين. وبالتالي، فالناس لم تكن لديها تجربة مع هذا المرض.

مساء ذلك اليوم، 31 كانون الثاني/يناير، اتصلت بي قناة «سكاي نيوز عربية»، وهي قناة بريطانية. كنت قد قررت، وبهدف نقل الحقيقة إلى أكبر عدد ممكن من الناس، أن أقبل أي مقابلة مع

أي قناة، دون أي شرط مني أو منهم. وكانت العروض قد بدأت تنهال عليّ، كأن أكون مراسلاً أعمل بشكل حصري لقنوات أحترمها جداً، أو أن أرسل فيديوهات بشكل حصري لبعضها الآخر. ولكنني وللأهداف نفسها، أي إيصال الحقيقة إلى أكبر عدد ممكن من الناس، رفضت كل هذه العروض، وقلت مثلاً لرئيس تحرير في قناة «روسيا اليوم» إنني مستعد أن أكون معهم كل ليلة وفي أي وقت يريدونه، ولكن لا أريد أن أكون مراسلاً حصرياً.

فسألني «حسناً ليس لدينا مشكلة في التعريف، كم تحتاج مقابل هذا العمل كي أخبر الإدارة».

قلت «لا شيء أبداً».

أجابني وهو مندهش، «كيف ذلك؟».

قلت «نعم لا شيء، أنا لا أبحث عن وظيفة، بقيت هنا وأعرض نفسي للخطر لأنقل الحقيقة، ولا أريد أي مقابل لذلك، أنا أقوم بواجبي الأخلاقي والإنساني، وهذه هي مبادئي».

كنت فقط رفضت التصريح لإذاعات تبث من فلسطين المحتلة، وعلى الرغم من أن العاملين فيها عرضوا لي الكثير من الدلائل على أن لا دخل لهم بالعدو الصهيوني، وأن الكثير من الساسة والإعلاميين اللبنانيين والسوريين يقبلون بإجراء مقابلات معهم. إلّا أنني أصررت على أن التطبيع هو اعتراف، والاعتراف هو خط أحمر بالنسبة لي، لذلك لا أريد أن أخاطر.

كانت المحاورة في قناة «سكاي نيوز» موضوعية جداً، وهذا أمر أعجبني، حيث كنت أتوقع أن تكون منحازة، ولكن هذا لا يعني أن التقرير الذي عرضته في بداية المقابلة لم يكن منحازاً، حيث كان يظهر صورة لمسلسل «Walking Dead» ومن بعده عرضت صوراً لمدينة ووهان وهي خالية تماماً، ووصف التقرير المدينة بـ«مدينة الأشباح»، وقال التقرير إن هذه المقارنة ليست عبثية، بل هي تصوير لواقع مدينة ووهان حالياً، حيث تحولت إلى «مدينة أشباح».

بعد أن عرضت فيديو سكان ووهان وهم يصرخون من الشرفات دعماً لووهان، قامت المحاورة بتقديمي ومن ثم تم عرض الفيديو الذي كنت قد نشرته من شوارع ووهان مع تعليق لها بأنه كان يهدف إلى نقل الحقيقة من هذه المدينة ودحض الإشاعات المتناقلة حولها، وقالت «أهلاً

وسهلاً بك أدهم، إنها شجاعة كبيرة أبديتها في مقطع الفيديو.. انقل لنا واقع المدينة، فمن المرجح أن تكون أول من يقوم ببث من هذا النوع من المدينة التي انتشر فيها هذا الفيروس الفتّاك».

عرضت كل الإجراءات الوقائية المتخذة في ووهان، وقلت «كما بينت بالأمس في الفيديو، طبعاً الوضع غير طبيعي في ووهان، فالمدينة معطلة بشكل كامل، ولكن كل ما يحتاج إليه الإنسان في هذا الوضع غير الطبيعي مؤمن، بمعنى أن الإنسان يستطيع أن يصمد». وكنت أريد أن أصحح ما أتى في التقرير حول أن ووهان مدينة أشباح. فمدينة الأشباح تكون عادة مدينة مهجورة من سكانها مستسلمة للموت، ولكن في ووهان كان السكان قابعين في منازلهم تطبيقاً لتعليمات السلطات حماية لهم من الإصابة، وهم بهذا المعنى يقومون بفعل المقاومة لا الاستسلام.

دون أن تسألني قلت «ورد في التقرير أن ووهان مدينة أشباح، من الممكن أن نعكس ذلك. فووهان مدينة تقاتل، كل شخص في المدينة يقوم بالدور المطلوب منه من أجل الفوز بهذه الحرب. مثلاً، أنا عندما ألتزم بالإرشادات ولا أخرج إلّا عند الضرورة، وإذا خرجت أستخدم الكمامة، في هذه الحالة أكون أولاً قد حميت نفسي، وثانياً أنا أساعد السلطات على السيطرة على هذا الفيروس».

كان مهماً أن أشير مراراً وتكراراً إلى معنى الحجر المنزلي. ففي ووهان كانت الحرب تجري على جبهات عدّة: جبهة المواطنين حيث كانت تستدعي بقاءهم في المنازل للحدّ من انتشار الفيروس. وهذا يعني حمايتهم أولاً، وتخفيفاً للضغط على المستشفيات ثانياً. والجبهة الثانية كانت جبهة العاملين في المجال الطبي، وهي الجبهة الأهم. فهؤلاء كانوا يقفون على الخطوط الأمامية ساعات طوالاً، وعلى الرغم من المخاطر والصعوبات تمكنوا من الصمود. أما الجبهة الثالثة فكانت الجبهة الحكومية التي كانت تدعم ووهان بكل ما تحتاج إليه وتؤمن كل الاحتياجات من غذاء ودواء ودعم لوجستي للناس فيها. إن تناغم هذه الجبهات الثلاث كان الحل الوحيد للسيطرة على الفيروس. وبالتالي، فإن خلوّ الشوارع من الناس لا يعني أبداً أنها «مدينة أشباح» بل على العكس إنها مدينة مقاومة مقاتلة، يأخذ فيها المواطنون موقعهم على جبهتهم، ألا وهي التزام المنازل.

كان من شأن الإصرار على هذا التوضيح، إظهار الصورة الحقيقية للتضحيات التي تحصل في هذه المدينة. ورفض التضليل الإعلامي الذي كان يعتبر الحجر المنزلي للسكان انتهاكاً لحقوق الإنسان. هذا الأمر لم يكن ليتوضح في مقابلة أو مقال واحد، لذا كنت دائماً أعود وأشير إليه. مع العلم أنه على المستوى العلمي، كان العلماء الأميركيون قد اعترفوا خلال إجلاء مواطنيهم من

ووهان، أنه طالما لا يوجد لقاح، لا حل لوقف انتشار الفيروس إلّا بالتباعد الاجتماعي وهو أمر ضروري جداً على الرغم من أنه صعب.

العودة إلى الكنز

كنت قد أرسلت مجموعة من التقارير باللغة الصينية إلى ليلى كي تساعدني على ترجمتها. وعلى الرغم من أنني كنت قد حصلت على كم كافٍ من المعلومات، إلّا أن كثافة المقابلات الصحفية كانت تدفعني دائما إلى إعادة تنظيم معلوماتي. خصوصاً وأن السؤال حول متى بدأ الفيروس، وهل الصين أخفت معلومات كان قد بدأ يتردد ولو بشكل خفيف. لذا كانت هذه الأوراق التي وصفتها سابقاً بأنها «كنز» من المعلومات مهمة جداً لأنها توثّق بشكل لا يترك مجالاً للشك تعاطي السلطات الصينية مع الفيروس. وهذا بعض ما كانت قد وفرته لنا هذه التقارير من معطيات.

المستند الأول كان بعنوان «الإحاطة الإعلامية الأولى للجنة الصحة في ووهان في 31 كانون الأول/ديسمبر 2019»، وفيها تم الإبلاغ للعموم عن اكتشاف 27 حالة إصابة بالالتهاب الرئوي، كانت قد وصلت إلى عدد من المؤسسات الطبية. وهو الإعلان نفسه الذي تمّ تداوله على صفحة مجموعة السكن الجامعي. وهذه الحالات كانت على علاقة بسوق الأسماك في «هان-كو». وبعد تلقي تلك التقارير أجرت لجنة الصحة في المدينة بحثاً عن الحالات بأثر رجعي في جميع المؤسسات الصحية والطبية في المدينة، حيث تمت مراجعة كل الحالات التي كانت على علاقة بسوق الأسماك، كما قاموا بمتابعة كل الأشخاص الذين كانوا على احتكاك بالمرضى.

وبعد استشارة عدد كبير من الجهات العلمية المختصة بالأوبئة، وإجراء تحقيق شامل، لم يجد التحقيق حتى ذلك الوقت أي عملية انتقال من الإنسان إلى الإنسان، كما أنه لم يصب أي من أفراد الطاقم الطبي. كما أكد التقرير أنه يجري الكشف عن مسببات المرض والتحقيق في سبب العدوى. وأضافت الإحاطة بعض المعلومات عن الالتهاب الرئوي الفيروسي وكيفية الوقاية منه.

بعد ذلك بخمسة أيام قامت اللجنة الطبية في ووهان بإطلاق الإحاطة الإعلامية الثانية عن الحالة الوبائية للالتهاب الرئوي، وذلك في 3 كانون الثاني/يناير 2020. وكانت عبارة عن تأكيد للمعلومات السابقة بالإضافة إلى الإعلان عن حالات إصابة أخرى، حيث وصل عدد الإصابات إلى (44)، بعضهم لم يكن على علاقة بسوق الأسماك. وأيضاً عرض التقرير العوارض التي تظهر على المرضى. وأكد أنه يتم تتبع الحالات المخالطة.

«يجري العمل على تحديد مسببات الأمراض (بما في ذلك الكشف عن الأحماض النووية وعزل الفيروسات وزراعتها) وأعمال البحث عن المسببات، وجرى استبعاد أمراض الجهاز التنفسي الشائعة مثل الأنفلونزا وأنفلونزا الطيور وعدوى الفيروس الغدي وسارس وميرس».

أما الإحاطة الإعلامية الثالثة فكانت في 5 كانون الثاني/يناير 2020، وكما الإحاطات السابقة، جرى في هذا التقرير تحديث المعلومات حول الالتهاب الرئوي الفيروسي، حيث وصل عدد الإصابات المكتشفة إلى (59). ومن المعلومات الجديدة في هذه الاحاطة كان تحديد موعد ظهور أول حالة مكتشفة حتى حينه، وهو 12 كانون الأول/ديسمبر 2019، أي قبل 19 يوماً من الإحاطة الإعلامية الأولى. كما تم التأكيد أن هناك تتبعاً لما يقارب (160) شخصاً مخالطين للمرضى. وكان إلى حينه لم يظهر أي دليل على انتقال العدوى من الإنسان إلى الإنسان، وكذلك لم تظهر أي إصابة بين الفرق الطبية.

وعرض التقرير تدابير الوقاية والسيطرة الرئيسة، أما جديده فكان الإعلان عن التعاون مع الدول والمقاطعات للقيام بتحديد مسببات الأمراض (بما في ذلك الكشف عن الأحماض النووية). وحذر العلماء من أنه يجب أخذ الحيطة والحذر عند الخروج خصوصاً لأننا في فصل الشتاء، موسم الإصابة بالأمراض المعدية. وطالبت الإحاطة الإعلامية المواطنين الذين يعانون الحمى وأعراض عدوى الجهاز التنفسي، وخصوصاً إذا استمرت الحمى، التوجه إلى مؤسسة طبية لإجراء الفحوصات.

وفي 11 كانون الثاني/يناير 2020، أطلقت اللجنة الصحية في ووهان الإحاطة الإعلامية الرابعة. أعلنت خلالها أن هذا الفيروس هو فيروس تاجي جديد (كورونا)، كما قامت فرق الخبراء الوطنية والإقليمية والبلدية بمراجعة وتحسين تشخيص وعلاج ورصد الالتهاب الرئوي الفيروسي. كما تمت مراقبة 739 شخصاً كانوا على احتكاك بالمرضى، بما في ذلك 419 من الموظفين

الطبيين، ولم يتم العثور على حالات ذات صلة. ولم يكن قد تم العثور على أي حالات إصابة جديدة. كما أنه لم تكتشف حالات عدوى بين البشر ولا بين الفرق الطبية.

وكانت قد صدرت إحاطة إعلامية أخرى في ذلك اليوم، ليصبح عدد هذه الإحاطات خمساً بين الفترة الزمنية 31 كانون الأول/ديسمبر 2019 و 11 كانون الثاني/يناير 2020.

وكانت هذه الإحاطة حول تفاصيل الالتهاب الرئوي الجديد. وتتضمن خمسة أسئلة، كيف تم تشخيص حالات الإصابة؟. ما هي العوارض؟. تفاصيل عن حالات الوفاة؟ ماذا يعني عدم وجود حالات جديدة منذ 3 كانون الثاني/يناير 2020؟ ماذا يعني أنه لا يوجد دليل واضح على انتقال العدوى من الإنسان إلى الإنسان؟ .

تظهر لنا هذه التقارير، التي صدرت جميعها قبل 11 كانون الثاني/يناير، أنه إلى ذلك الوقت كنا تقريباً نعرف كل شيء عن هذا الفيروس. ما عدا قضية انتقال الفيروس من الإنسان إلى الإنسان، وهي قضية أساسية ومهمة، وتم حسمها بعد ذلك بأيام قليلة عندما زار «الجبل» ووهان للاطلاع على الوضع. وبالإضافة إلى هذه التقارير، نشر في يوم 12 كانون الثاني/يناير التسلسل الجيني للفيروس. وبهذا تكون الصين قد وضعت كل ما تملك من معلومات عن الفيروس المستجد بتصرف الجهات المختصة والعامة حول العالم. لقد قامت الصين بواجبها.

من شوارع ووهان 3

بحلول اليوم، أي الثاني من شباط، يكون قد مر 11 يوماً على إغلاق ووهان، ويومان على بدء مرحلة جديدة من الترقب حول إصابتي أو عدم إصابتي بالفيروس. وأقصد بذلك حالة السعال الحاد التي انتابتني. فبما أنه لم يمر 14 يوماً على العزل، لذا فإن احتمال اكتشاف الإصابة لاحقاً وارد. ولكن المشكلة كانت أن السعال الحاد ازداد، ولم يعد يفارقني تقريباً. إلّا أن حرارتي لم ترتفع قط، حيث كنت أراقبها ثلاث مرات في اليوم.

أما نوبة السعال؟ فقد صارت تقوى خلال فترة المساء، خصوصاً عندما أتكلم كثيراً في المقابلات الصحفية. فحتى هذا اليوم سجل عداد المقابلات أكثر من 70 مقابلة.

كان يدور في بالي أمران أساسيان يتعلقان بوضع المدينة: أولهما أني أريد أن أشرح للناس المسار الذي من المتوقع أن تسلكه الإصابات في المدينة. فالداتا لم تكن كافية لتظهر هذا المسار، خصوصاً أن الأيام الأربعة عشر لم تكن قد مرت بعد. فبحلول اليوم الخامس عشر قد نبدأ نلاحظ إيجابيات العزل. أما ثانياً، فكنت أريد أن أظهر حالة المدينة، وأنه عكس الإشاعات والفيديوهات المفبركة، فلا ناس تموت في الشوارع ولا انتشار للجيش الصيني. لكن هذا لم يكن ممكناً دون الخروج من المنزل. لذا قررت الخروج مجدداً، ولكن هذه المرة لتصوير فيديو أطول، حيث إن الفيديو الأول كان قصيراً ويتعلق فقط بعملية شراء الماء دون إظهار المدينة بشكل واسع وأيضاً لأشرح فكرتي حول مراحل السيطرة على الفيروس.

وكان لي ذلك. خرجت بعد أن أخذت كل الاحتياطات. وقمت بجولة مدة 25 دقيقة تقريباً، أظهرت فيها واقع المدينة بشكل فعلي، فظهر مثلاً عمال النظافة وهم يعملون بشكل طبيعي، وبعض

الطلاب الأجانب الأفارقة وهم يدخلون إلى السوبر ماركت لشراء الحاجات. كما أظهرت كيف أنه لا يوجد أي مظاهر غير طبيعية مثل أناس يقعون مغمياً عليهم أو موتى في الطرقات أو أية مظاهر عسكرية.

كانت هذه الجولة مهمة بكل المقاييس. لم أكن قد مشيت مسافة كهذه منذ 11 يوماً. ولكن في مساء ذلك اليوم، ومع ضغط المقابلات الصحفية، ارتفعت حرارتي لتصل إلى (37.4)، وكانت الجامعة قد حذرتنا من أنه إذا ارتفعت حرارتنا إلى هذا المعدل فعلينا الإبلاغ مباشرة.

اتصلت مباشرة بـ«بيري» مسؤولة الطلاب الأجانب في الكلية، وأخبرتها بالوضع. قالت لي دعنا ننتظر لصباح الغد، إن بقيت مرتفعة، سنتصرف.

آلهة النار والبرق

لا شك أن العامل النفسي هو واحد من الأمور الأساسية في أية حرب. وفي حربنا مع الفيروس، كان بث الأمل بين أهل ووهان واحداً من الأمور الأساسية التي عملت عليها السلطات. وكما قلت سابقاً المدخل الأساسي كان تخفيف الهلع لدى الناس، مما سيساعد الفرق الطبية والحكومة والمتطوعين على القيام بدورهم بشكل أفضل. وكان الموضوع النفسي عاملاً أساسياً في هذا المجال. وأنا على يقين أنه كان هناك جيش من المختصين النفسيين الذين يواكبون عمل الفرق الأخرى.

منذ اليوم الثاني على إغلاق ووهان، تم الإعلان عن البدء ببناء مستشفيين متخصصين بالحالات الحرجة. لم يكن الإعلان عبثياً، فطريقة الإعلان كانت تهدف إلى رفع المعنويات، حيث قيل بأن أعمال البناء ستنتهي خلال عشرة أيام فقط. وهذا الأمر كان له أثر كبير في صمود أهل ووهان، كما أنه أثار إعجاب العالم كله، حتى ترامب نفسه تحدث عن تلك الأعمال واصفاً إياها «بالمذهلة». ولرفع المعنويات أكثر، كان يتم بث أعمال البناء مباشرة على وسائل التواصل على مدار الساعة. وكانت نسب المشاهدة تصل في بعض الأحيان إلى أكثر من 50 مليون إنسان. وأذكر جيداً أنني كنت أتتبع هذه العملية بشكل يومي، وأن صديقاً من لبنان كان يومياً يشارك هذا البث على صفحته على فيسبوك ليظهر كيف أن الحكومة الصينية تعمل لمصلحة شعبها.

حتى الأسماء التي اختيرت لهذه المستشفيات لم تكن عبثية، فالمستشفى الأول أطلق عليه باللغة الصينية «هوشن شان» وهي تعني «إله النار»، طبعاً هذه الترجمة ليست دقيقة، وعندما سألت مي عنها، ضحكت وقالت من المستحيل ترجمتها، لأنه يتداخل في معانيها الكثير من المعاني الباطنية والتي بمعظمها تركز على الصمود والأمل، ولكن الفكرة منها أنها تتعلق بواحدة من أقدم

المخطوطات الطبية الصينية. أما المستشفى الثاني فاطلق عليه اسم « ليشن شان» ويعني «إله البرق».

على المستوى النفسي، أصبح انتهاء الأعمال بهذه المستشفيات له ارتباط مباشر بالسيطرة على الفيروس، لذا كنا ننتظر موعد افتتاح مستشفى «هوشن شان» الذي كان من المقرر أن تتسلم إدارته فرقة تابعة للجيش الصيني. وفعلاً، خلال تسعة أيام وليس عشرة، انتهت الأعمال في هذا المستشفى، وفي اليوم العاشر تسلمها الجيش، وبدأت تستقبل المرضى مباشرة.

أما مستشفى«ليشن شان»، فقد بدأت الأعمال به بعد خمسة أيام من البدء بالأعمال بمستشفى «هوشن شان»، وكان من المقرر أن ينتهي خلال أسبوعين أيضاً. ساهم هذان المستشفيان برفع القدرة على التعاطي مع الحالات الخطرة من خلال توفير 2400 سرير إضافي، وبالتالي أدت إلى تراجع عدد الوفيات وكذلك أدت إلى تخفيف العبء عن مستشفيات ووهان.

وفعلاً، كما كنا نتوقع، كان لهذه المستشفيات أثر عملي، إلى جانب رفع المعنويات. كانت هذه الخطوة المدروسة تؤشر إلى فتح صفحة جديدة في عملية التصدي للفيروس. مما جعل من شهر شباط شهر الأمل والقتال.

بعد افتتاح مستشفى «هوشن شان» مباشرة، بدأ العمل على افتتاح عدد من المستشفيات الميدانية، التي تم تخصيصها للحالات الخفيفة والمتوسطة. حيث تم تحويل عشرات المنشآت العامة إلى مستشفيات ميدانية، وكان من بين هذه المنشآت ملعب لكرة السلة، ومركز للمؤتمرات الدولية، ما رفع خلال أيام قليلة القدرة الاستيعابية للمستشفيات في ووهان من حوالي 3000 سرير خلال بدء انتشار الفيروس، إلى 45 ألف سرير في أواسط شهر شباط.

هذا الأمر كان له الدور الحاسم في عملية السيطرة والصمود، إلى جانب الالتزام الكامل للناس بالعزل المنزلي. فدعم هذه الجبهة الطبية هو الأساس. حيث أنه في حال انهيار القطاع الطبي، سينهار كل شيء، وستبدأ نسب الإصابات وكذلك الوفيات بالارتفاع. وهذا القطاع ينهار في حالتين: الأولى عدم الالتزام بالعزل ما يؤدي إلى استمرار انتشار العدوى، وبالتالي إلى زيادة الضغط على العاملين الطبيين، الذين قد يفقدون عندها السيطرة. لذا، فإن المباشرة ببناء المستشفيات منذ البداية،

أثر بشكل أساسي في تراجع عدد الإصابات والوفيات في ووهان وهذا الذي لم تقم به أي دولة أخرى.

في ذلك اليوم، 2 شباط 2020 كتبت التالي:

«بعد تسعة أيام عمل فقط، تم الانتهاء من أعمال بناء المستشفى التخصصي الأول لعلاج فيروس كورونا الجديد في مدينة ووهان. وقد تم تسليم المستشفى اليوم إلى فرق متخصصة من الجيش الصيني. على أن يبدأ باستقبال المصابين منذ صباح الغد الإثنين.

تجدر الإشارة إلى أن المستشفى يتسع لألف سرير ومجهّز بوسائل طبية متطورة تعوّض النقص الحالي في مستشفيات المدينة. وهو سيكون نقطة تحوّل أساسية في مواجهة الفيروس، فهذا المشفى سيستكمل الخطوة الكبيرة التي اتخذتها الحكومة من خلال عزل مدينة ووهان. كما أنه خلال الأيام الثلاثة القادمة ستنتهي أعمال بناء المستشفى الثاني التخصصي والذي يتسع لـ ١٥٠٠ سرير.

الصين في حرب حقيقية هدفها حماية الإنسان، وأثبتت الأيام الماضية أن الأولوية في الصين هي للإنسان وليس للاقتصاد، عندما يكون الإنسان في خطر يتم حشد كل الإمكانات من أجل الدفاع حتى لو أدى ذلك إلى تراجع الاقتصاد، فإغلاق مدينة ووهان يؤثر بشكل كبير في اقتصاد البلاد كونها تقع وسط الصين (المأهولة) وهي نقطة عبور لكل المواصلات البرية والنهرية تقريباً، إلّا أن السلطات لم تتردد في إغلاقها عندما أصبح ذلك ضرورة لحماية الصينيين والبشرية.»

武汉_加油
中国_加油

عريضة الربيع

صباح اليوم التالي، أرسلت «بيري» رسالة تسألني عن حرارتي. خلال تلك الفترة، كنت قد بدّلت مواعيد النوم، فأصبحت أنام في النهار وأصحو في الليل. حاولت الاتصال بي ظنّاً منها أن مكروهاً حصل لي لأني لم أرد على رسالتها. لكن هاتفي كان بوضع الصامت فلم أسمعها. عند الظهر أفقت من النوم، وكالعادة، تناولت الهاتف لأستطلع الداتا الجديدة. عندئذ رأيت أنها قد اتصلت أكثر من مرة. لا شك أنها تريد الاطمئنان إلى موضوع الحرارة. لذا فحصت حرارتي أولاً ثم اتصلت وأخبرتها أن حرارتي كانت (36.8)، وهذا معدلها الطبيعي. إذن لا كورونا. سعال موسمي.

كنت أعد الفطور، عملياً الغداء، حين وصلتني رسالة من صديق لبناني اسمه رائد فيها خبر، بدا شديد التأثر بنصه. يقول الخبر «استقبل هوانغ شيتشيو (82 عاماً) الذي أشرف عام 2003 على بناء مستشفى «شياو تانغ شان» (خلال 7 أيام) لعلاج المرضى المصابين بفيروس سارس، عيد الربيع بعريضة نشرها، يطلب من خلالها المشاركة في المعركة ضد الفيروس الجديد. يقول هوانغ: أنا عضو في الحزب الشيوعي الصيني، وهمومي أقل بالمقارنة بزملائي الشباب. وبما أنه لدي خبرات عملية لبناء مستشفى شياو تانغ شان خلال فترة انتشار السارس، لذا أعلن أنني مستعد للمشاركة في المعركة ضد فيروس كورونا الجديد في أي وقت».

«إنه كلام نابع من الإحساس بالانتماء عند هذا الشعب» قلت له معجباً مثله بالنص، فأجابني بصوت متأثر «أقسم لك إني بكيت حين قرأت الخبر». بالطبع سنتأثر بهذا السلوك الراقي الذي يشي بعرفان الجميل لوطن يقدم لأبنائه كل ما يستطيع فيبادلونه الحب والتفاني. يعزّ علينا نحن الآتين من الأوطان الجاحدة لشعوبها، أن لا تكون هذه حالنا. نتفانى في حبنا لبلادنا لكنها تقابلنا بالجحود

والنكران والتعالي والإهمال. ومع ذلك، نحبها ونتمنى أن نصل إلى هذا المستوى. أضاف صديقي «إنها معركة قيم أخلاقية يخوضها الشرق ويتفوق فيها».

كانت أعداد العاملين الطبيين المتطوعين للقدوم إلى ووهان ترتفع باستمرار، وكانت هذه الأخبار تصلنا على التوالي. فالفرق الطبية في المدينة كانت قد استنزفت إلى حد كبير، ما يتطلب دعمها بشكل عاجل. كما أن افتتاح مستشفيات ميدانية وزيادة القدرة الاستيعابية إلى 45 ألف سرير يعني أننا بحاجة إلى المزيد والمزيد من العاملين الطبيين. تنبهت إلى أني أستخدم في روايتي للأحداث صيغة الجمع: إننا. نعم، أنا أنتمي إلى هذه القيم وإلى هذا الشعب وإلى كل شعب يقاتل من أجل الإنسان. ومعركتهم هي معركتي. لا شك في ذلك. والأهم أننا أصبحنا جميعاً، نحن الذين ناضلنا إلى جانب الشعب الصيني خلال هذه الفترة، أصبحنا بالنضال أبناء الصين. وهي بدورها لم تكن إلّا كالأم التي لا تميّز بين أبنائها، فأعطتنا كل ما نحتاج إليه في تلك الأوقات الصعبة كي نستطيع الصمود.

كانت السلطات قد اتخذت قراراً بضرورة عزل كل الحالات المصابة بالفيروس في أماكن متخصصة وليس في المنازل، عكس الفترة الأولى، حين لم تكن القدرة الاستيعابية كافية. كان يطلب من المصابين بعوارض لاتزال خفيفة، أن يبقوا في المنازل لتوفير أسرّة في المستشفيات للحالات الأكثر صعوبة. وكان المتطوعون يتابعون الوضع الصحي للمعزولين منزلياً. لكن، بعد توافر كل هذه الأسرّة، بات على المصاب بالفيروس التوجه إلى المستشفى حتى لو كانت الأعراض خفيفة. لذا أصبح لدينا نوعان من المستشفيات: تلك المخصصة للحالات الخطرة، وأخرى للحالات المتوسطة والخفيفة. وهذه المتابعة للمرضى من قبل متخصصين ساهمت أيضاً في علاج الحالات في مراحلها الأولى، مما أدى إلى تراجع أعداد الوفيات بشكل ملحوظ وزيادة كبيرة في حالات الشفاء.

كنا نشاهد يومياً فيديوهات لطائرات تقلّ هؤلاء العاملين الطبيين، أو كما أصبح يصفهم أهالي ووهان «الأبطال»، حتى وصل عددهم أواسط شباط إلى أكثر من 45 ألف عامل طبي، بالإضافة إلى زملائهم في ووهان. كانت الصور والفيديوهات التي تصلنا من داخل المستشفيات الميدانية ترفع معنوياتنا بشكل كبير. حيث أنه وبالاستناد إلى الطب التقليدي الصيني فإن الرياضة هي أساس في

عملية تقوية المناعة، لذا كانت الممرضات يقمن بالرقص للمرضى، وهم يقومون بالحركات نفسها في أجواء من الفرح، تنسيك للحظة أن هؤلاء مصابون بفيروس خطر يشغل العالم كله.

في أحد الفيديوهات، كانت ممرضة تؤدي رقصة على أنغام موسيقى لقومية الإيغور المسلمة. كان من السهل عليّ أن أميّز هذه الموسيقى، فهي تشبه إلى حد بعيد الموسيقى الكردية والتركية. كما أن الآلة الموسيقية الأساسية المستخدمة فيها تشبه البزق الذي أعتبره من أجمل الآلات الموسيقية. طبعاً لم أكن أستطيع أن أميز ملامح الممرضة، لأنها كانت ترتدي ألبسة واقية من رأسها حتى أخمص قدميها لحمايتها من العدوى، إلّا أن طريقة أدائها للحركات لم تترك مجالاً للشك. قلت لمي بعد أن أرسلت الفيديو لها «هذه الفتاة من إقليم الشينجيانغ».

قالت، «نعم، هذه موسيقى لقومية الإيغور».

أجبتها، «كيف أشرح للناس بأن من يقال إنهم يقتلون في الصين هم في الواقع يتطوعون في ووهان؟».

قالت «في الصين نقول إن الصينيين في الشدائد يصبحون مثل القبضة الواحدة. يتوحدون ولا أحد يستطيع أن يفرقهم».

كنت قد قرأت الكثير عن مرحلة «الشدائد» تلك، وخصوصاً مرحلة البناء في خمسينات القرن الماضي. وكنت على يقين أن الشعب الذي تحمل كل ما تحمله في تلك الفترة لن يصعب عليه تحمل الحجر المنزلي حالياً. وهذا ما كتبته على صفحتي على فيسبوك:

«يقول «إدغار سنو» في كتابه «النجم الأحمر فوق الصين»:

خلال مرحلة بناء الصين، كانت المسيرة الطويلة دافعاً قوياً للشعب الصيني، فبأدوات متخلفة جداً بنوا دولة عظيمة.

في السياق نفسه، يقول الرئيس الصيني الحالي:

لقد فهم الشعب الصيني منذ القدم، أن المتعة لا تأتي من التوكل على مجهود الآخرين، بل إن السعادة الحقيقية تكمن في الكفاح.

من يدرس تاريخ الصين الحديث والقديم، يعلم جيداً أن لا مكان لكلمة «مستحيل» هنا. في الصين دولة قوية نعم، ولكن الأهم هي الروح القتالية التي يمتلكها الشعب.

لن يطول الأمر، وستعود الضحكة مجدداً إلى وجوه تستحقها».

武汉#_加油

عن أبطال ووهان والبطل الخارق

يعتبر «البطل الخارق» الذي سينقذ العالم من إحدى الأفكار الأيديولوجية التي تضخها «هوليوود»، الأداة الترويجية الفعالة والضخمة في يد الامبريالية. عادة ما يكون هذا المنقذ أميركياً، يرفع في نهاية الفيلم علم الولايات المتحدة، بعد أن يكون قد واجه بمفرده قوى الشر أو الطبيعة التي تهدد البشر. من منا لا يذكر «رامبو» الذي كانت «هوليوود» تقدمه على أنه أحد أمثلة البطل الخارق، وأنه وحيداً، احتل مئات القرى الفيتنامية، وقتل آلاف المقاومين منهم. ولكن في الواقع، كان الجنود الأميركيون هم الذين يتقهقرون تحت ضربات المقاومة الفيتنامية. إن ترسيخ هذه الفكرة في الوعي الغربي العام هو أداة تضليل، وجزء من الأيديولوجيا التي تعمل على تعظيم الفردية ونفخها. أما المنقذ، الفرد، فلا وجود له إلّا في الخيال.

لقد تحول منطق «حرية الفرد» بسرعة ليصبح منطق الأنانية وعدم التفكير في الآخرين في حالة خطر انتشار الأوبئة. هذا ما دفع بعض مواطني دول غربية، كأوروبا مثلاً، إلى رفض الالتزام بالعزل المنزلي في بداية انتشار الفيروس، بحجة أن هذا الأمر هو تعد على حريتهم الشخصية! ما أدى إلى انتشار كبير لكورونا في هذه الدول. لقد أثبت الواقع أنه لا يمكن لشخص واحد إنقاذ البشرية، ولكن يمكن لفرد واحد تحويل الفيروس إلى وباء. وهذا ما حصل في بعض دول الغرب.

هذا المنطق لا علاقة له فعلاً بالحرية. فعدم الالتزام يؤدي إلى دمار المجتمع بالوباء، فعن أي حرية فردية نتحدث؟

لا حرية دون مساواة وعدالة. فبدونهما تصبح الحرية مجرد شعار لا يمكن ممارسته في الواقع. كيف يمكن أن تكون حراً وأنت لا تملك شيئاً؟ لا بل تضطر لبيع قوة عملك، ساعات يومك

للحصول على ما يبقيك فقط على قيد الحياة؟ في حال كهذه أنت «حر» نعم، ولكن الخيارات المطروحة أمامك هي فقط أن تكون حراً في تقرير ماذا ستفعل بقوة عملك تلك، هل تبيعها لتبقى حياً؟ أو تحتفظ بها وتموت جوعاً؟ وبكلتا الحالتين أنت حر القرار، وأيضاً بكلتا الحالتين ستكون النتيجة أنك تذهب إلى قفص العبودية الاقتصادية.

مثلاً، هل «الحرية الفردية» للفقير تتساوى مع تلك التي يتمتع بها الغني؟ حرية فعل ماذا على وجه التحديد؟ هل يمارسان هذه الحرية بالتساوي؟ وخصوصاً في مجتمعات مثل الولايات المتحدة، حيث الفوارق الطبقية من الأعلى في العالم؟ الجواب هو لا. الحرية الفردية للفقراء تقف عند حدود إمكاناتهم الاقتصادية، وهي الأخرى تقف عند حدود الضروريات التي تساعدهم في البقاء على قيد الحياة. لذا، عملياً، لا حرية لهؤلاء. فلا يمكن الحديث عن حرية دون التحرر من الاستغلال والخوف من الموت جوعاً لأنك مهدد يومياً بأن تفقد وظيفتك أو منزلك الخ.. بينما نعم الأغنياء يستفيدون من هذه المقولات، فيصبح من حقهم استغلال الآخرين بحجة «الحرية الفردية».

إذاً، فرد واحد يمكنه أن ينشر الفيروس، ولكن بالتأكيد لن يتمكن من أن يحارب الوباء وحيداً. محاربة الفيروس تحتاج إلى التضامن المجتمعي والالتزام بنظام وضع للمجتمع بأسره، لا إلى الفردية في القرار والتصرف. تحتاج التزام الجميع بتعليمات المسؤولين والخبراء بأسباب الأزمة وكيفية مواجهتها. هذا ما فعله الصينيون، وهو بالضبط ما لم يفعله مواطنو دول غربية كثيرة ما أدى إلى تفشي الفيروس. ومجدداً نقول، المشكلة والحل في النظام الحاكم.

أثبتت الصين أن وحدة المجتمع ككل هي الحل في وقت الشدائد. وها هي ووهان وما جرى فيها من تكاتف والتزام، ليس فقط بين أبنائها بل بين كل أبناء الشعب الصيني بمختلف قومياته، المثال على ذلك. هذه الوحدة بالذات كانت هي المنقذ والبطل، وأحد أسرار قدرة البلاد على لجم الفيروس.

ولكن، الأيديولوجيا النيوليبرالية الغربية تسعى دائماً للسيناريو الخاص بها. سيناريو لا يتناسب أبداً مع فكرة «الكلّ البطل». بل يجب أن يكون هناك بطل، فرد، واحد، أميركي طبعاً، أو أقله معادٍ لمن يعادون. وإن لم يكن موجوداً؟ فمن السهل جداً اختراعه، ولو كان منافياً للمنطق والواقع.

حتى عندما يقدم الواقع بطلاً متميزاً، تسعى ماكينتهم الإعلامية لتحريف قصته لتتماشى مع رواياتهم الخصوصاً عن الحدث الجاري، وبالتالي لتصب في خدمة أهدافهم.

وهذا تحديداً ما حصل في رواية راجت على مواقع التواصل الأجتماعي تحت عنوان «وفاة طبيب صيني كان قد حذر من الفيروس».

ما القصة؟ سأرويها.

في السابع من شباط، انتشرت في كل أنحاء العالم قصة مفادها أن طبيباً صينياً توفي بسبب إصابته بالفيروس. وكان لهذا الطبيب تحديداً قصة خصوصاً.

أرسل متابع لصفحتي عبر الفيسبوك يسألني عن هذا الطبيب. وكان مرفقاً بسؤاله خبراً منقولاً عن موقع إخباري بعنوان «قصة طبيب شجاع فضح السلطات الصينية في حياته وموته. اكتشف كورونا قبل انتشاره وحذر منه فاحتجزوه. دفع ثمن شجاعته إصابته بالفيروس، فتكتمت السلطات على خبر وفاته».

كنت قد سمعت بعضاً من القصة، كوني اهتممت كثيراً بالإصابات في الجسم الطبي، فكل خبر حول إصابة أحدهم أو وفاته، كان ينتشر بشكل كبير هنا في ووهان.

أجبته «لكنه طبيب عيون، كيف يكون قد كشف الفيروس؟ هذا ليس تخصصه!» قرأت تفاصيل الخبر، فكانت مرعبة من حيث التضخيم! اتصلت مباشرة بصديقتي مي، وسألتها عن القصة. فأرسلت لي تواً صورته، ووثيقة باللغة الصينية كانت الشرطة قد طلبت منه التوقيع عليها في الثالث من كانون الثاني/يناير 2020، ومقطع فيديو يتحدث فيه تشونغ نان شان «الجبل»(تذكرونه؟) عن هذا الطبيب و يصفه بالبطل.

قلت لها بتهكم «مممم، كيف لي أن أفهم هذه الوثيقة، إنها المرة الألف التي أقول لك لا ترسلي لي وثيقة بالصينية، كيف سأفهم ما تقوله؟ لخصيها لي».

قالت وهي تضحك «هذا إنذار من الشرطة وقعه الطبيب «لي» عندما نشر في 30 كانون الأول/ديسمبر 2019 عبر مواقع التواصل أن هناك فيروساً ينتشر في البلاد، وهذا يخالف أصول

مهنة الطب. فليس هو المخوّل بالتصريح والدليل أنه قال للناس في البوست، إن الفيروس هو ظهور جديد لفيروس «سارس»! وهذه معلومة خاطئة، لأنه إلى حينه لم يكن نوع الفيروس معروفاً، بحسب ما أعلنته السلطات الطبية في ووهان قبل أيام من نشره هذه المعلومة وتحديداً في 27/1/2019. بعد أن وقّع هذا الإنذار (3/1/2020) عاد إلى عمله بشكل طبيعي، لكنه ويالأسف أصيب بالفيروس». قلت مستغرباً «لكن «الجبل» وصفه بالبطل!».

أجابت «ومن قال إنه ليس بطلاً، بالنسبة لنا كل العاملين الطبيين أبطال، لن ننسى أبداً ما قاموا به لووهان، وهو طبعاً واحد منهم. ولكن أنا أجيبك عن سؤالك حول قصته».

كنت يومياً أفاجأ بالمنطق الجديد الذي تتكلم به مي، فقبل كل هذه الأحداث كنت أعتقد أنها تتبنى المنطق الأميركي، مثل الكثير من الشباب الصينيين الذين يتأثرون بالأفكار النيوليبرالية. ولكن فعلاً في وقت الأزمات، يتصرف هؤلاء الصينيون كقلب رجل أو امرأة واحد/ة. لذا لا أعتقد أن «لي» نفسه كان بعيداً من هذا الخط أيضاً. ولكن حاولوا تضخيم قصته وتحريف سياقها ليتناسب مع هدفهم الخاص، إلّا أنه كان هنا في ووهان، وقاتل إلى جانب زملائه هذا العدو غير المرئي، وعلى الرغم من الخطر الذي، كان هو نفسه يشعر به ويحذر منه، إلّا أنه لم يتوقف عن عمله، وتوفي مطلع شباط ليكون بطلاً من أبطال هذه المدينة التي أيضاً وصفها (الجبل) بأنها «مدينة الأبطال».

بعد شهرين تقريباً من هذه الحادثة، قالت لي مي: « هل تذكر الطبيب «لي»». قلت: «طبعاً». قالت: «وهل تذكر رواية الإعلام الغربي عنه؟».

أجبت: «طبعاً». قالت: «حسناً. ماذا يقولون عن قائد المدمرة روزفلت؟». تقصد المدمرة الأميركية التي أصيب الجنود على متنها بفيروس كورونا.

ضحكت لأني كنت قد أقمت المقارنة نفسها بين الحادثتين: حادثة الطبيب الصيني الذي مات بالفيروس وقصة المدمرة الأميركية. فالبنتاغون كان قد أقال قائد حاملة الطائرات «يو أس أس ثيودور روزفلت» لأنه أرسل إلى قيادته يقول بعد إصابة 100 من البحارة على متن حاملة الطائرات بالفيروس المستجد «لسنا في حالة حرب، لا يحتاج البحارة إلى الموت. إذا لم نتصرف الآن، فإننا نفشل في الاعتناء بشكل صحيح ببحارتنا». وطالب القائد «اتخاذ إجراءات حاسمة. قد

يبدو إخلاء غالبية أفراد حاملة الطائرات النووية وعزلهم مدة أسبوعين إجراء غير عادي، لكنها مخاطرة ضرورية».

أي إنه كان يحذر من وجود خطر على حياة الآلاف على متن حاملة الطائرات التي هو قائدها.

ولكن بالرغم من اعتماده الأصول، عبر إرساله رسالة إلى مسؤوليه، إلّا أن الرئيس الأميركي ترامب اعتبر أن هذه المذكرة «غير مناسبة». وأضاف «هذا قبطان سفينة نووية ضخمة ولا يجب عليه الحديث هكذا في رسالة، بإمكانه الاتصال والطلب وتقديم اقتراحات». إذاً، لأن الرئيس قدّر بأن الرسالة «غير مناسبة» أقال القائد الذي قام بواجبه. كنت أتخيل ماذا كان ليفعل لو أن هذا المسؤول الكبير قام بنشر هذه الرسالة على فيسبوك أو تويتر! ماذا كان ترامب ليفعل به؟ هل كان ليصنفه بطلاً لأميركا ومنقذاً لأرواح بحارتها؟

هذه الحادثة التي تدل على «الكيل بمكيالين» ليست الوحيدة.فكنا قد ذكرنا سابقاً كيف أن وسائل الإعلام الغربية اعتبرت أن إجراءات العزل في ووهان هي اعتداء على حقوق الإنسان. بينما وسائل الإعلام نفسها اعتبرت هذه الإجراءات ضرورية عندما بدأ تفشي الفيروس في دول أخرى، لا بل بدأت تتهم الصين بأنها لم تتخذ إجراءات كهذه في الوقت المناسب وهكذا فعلت الكثير من الحكومات.

لم أكن أعلم تحديداً كيف تنتشر الأخبار المضخمة، وكيف لقنوات ومنصات إعلامية عريقة أن تنزلق إلى هذه اللعبة المدمرة. ولكن، ولأنني أصبحت مقصداً لمعظم الوكالات العالمية، استطعت أن ألامس كل ما يحصل في كواليس صناعة الخبر. وهذه واحدة من القصص التي حصلت معي في بداية شهر شباط/فبراير، وكتبت عنها حينذاك على صفحتي على فيسبوك. كنت قد تعهدت لنفسي أن لا أنشر اسم الصحفية ولا الوسيلة الإعلامية، لأنه لم يكن هدفي قط أن أشهّر بهما، بل تبيان كيف يتم نشر الأخبار المضخّمة بسرعة، تماماً كما ينتشر الفيروس. في ما يلي القصة كما حدثت.

«قل : الوضع خطر والناس تموت في ووهان.

في اتصال مع إحدى الصحفيات من منصة إعلامية أوروبية ضخمة (تلفزيون يبث بكل اللغات تقريباً)، ناقشنا الوضع في ووهان، واتفقنا على أن ترسل لي الأسئلة، وأقوم بتسجيل فيديو أجيب من خلاله عن أسئلتها، بسبب فرق التوقيت الكبير بيننا مما لا يسمح بالظهور بشكل مباشر على البرنامج.

هكذا، أرسلت لي تسجيلاً صوتياً عبر «واتسآب» طرحت فيه تلك الأسئلة، التي سأنقلها لكم هنا حرفياً:

«كيف الحال في ووهان؟ أكيد لا أريد منك أن تقول لي إن الوضع جيد! أريد أن أعرف الوضع بشكل جدي، الوضع خطر. هناك (انتشار) فيروس والناس تموت. أعني لتكن ردودك كما تنقل وكالات الأنباء (عن الوضع) لا أريد أن أنقل (أخباراً) غير تلك التي يتناقلها الجميع!».

ذهلت! ما هذا؟ قلت لها «إن كنت تسألين وتجيبين ما حاجتك إلي؟»!

ثم قلت لنفسي، فلأكن إيجابياً. اتصلت بتلك الصحفية عبر تقنية الفيديو كول، (video call) وكانت في طريقها إلى العمل، ووضعت الكاميرا بشكل مباشر على شارع في ووهان، حيث كانت الحياة شبه طبيعية:كان هناك بعض المارة ومعظم المحال التجارية قد فتحت أبوابها.

قلت لها «عزيزتي: هذا نقل مباشر لك من ووهان، أتريدين أن أنقل هذه الصورة أم الصورة التي تصفها وتنقلها الوكالات غيابياً؟». عندئذ نادت الفتاة زميلاً لها (لم يكن عربياً) وقالت له: «انظر.. هذه الصورة الآن من ووهان». ثم أجابتني:«طبعاً أريد أن تنقل لي الصورة الحقيقية فأنت هناك، ولكن ماذا عن الذي تقوله الوكالات؟». كانت قد وصلت إلى عربة المترو واتفقنا أن نكمل الاتصال لاحقاً.

طبعاً، حين اتصلت بالفيديو كول، كان الهدف اعتذاري بشكل غير مباشر عن الظهور على تلك القناة وتمثيل دور ببغاء الوكالات. وهذا ما فعلته. أما الآن، فأعيد نشر هذه المحادثة، فقط لكي أقول أن معظم الأخبار التي تصل من ووهان عبر الوكالات هي أخبار معدّة مسبقاً ولا تمثل الواقع. تماماً كما قالت الصحافية أنها تريد أخبار ووهان وفق قناعاتها وليس كما هي في الحقيقة. عن التضليل والحرب الإعلامية نتحدث» .

لكن الأمر لم ينته هنا. بعد أن قمت بنشر هذا التعليق على فيسبوك دون ذكر اسم المراسلة أو اسم وكالتها، تواصلت تلك الاعلامية معي، وخيرتني بين أن أسحب التعليق عن صفحتي أو أنها سترد على صفحتها. فقلت لها لك الحق بالقيام بما ترينه مناسباً، ولكن سيكون لي أيضاً حق الرد وحينئذ سأنشر المحادثة الصوتية بيننا.

وفعلاً قامت بنشر محادثة صوتية بيننا، لكنها لا تحتوي على نصوص أسئلتها وتوجيهاتها لي بترداد كلام الوكالات في إجاباتي. كانت محادثة مغايرة لذا، مجدداً، أرسلت لها عبر وسيط أنني أعطيها خمس دقائق للتراجع وإلّا سأنشر المحادثة الصوتية موضوع تعليقي rولن يكون ذلك في مصلحتها. وقمت بإطلاع الوسيط، وهو يفهم بالأصول المهنية الصحفية، على محتوى المحادثة، لم يمض على اتصالي خمس دقائق حتى تراجعت وسحبت منشورها.

المرحلة الثانية من العزل

بعد مرور عدّة أيام على وضعي الصحي المستجد المتمثل بالسعال الحاد، وبما أن حرارتي لم ترتفع قط منذ تلك الليلة المشؤومة، كنت قد بدأت أتيقن أن الأمر طبيعي لا يستدعي القلق. مجرد سعال موسمي. لذا أصبحت واثقاً أكثر حين كنت أقدم نصائح لمن يسألني عن العوارض، فقد أصبحت لدي تجربة شخصية. لكن سعالي كان بحاجة إلى دواء اعتدت تناوله كلما حان موسم السعال. وإن لم أتناوله ستطول القصة.

اتصلت بأحد الأصدقاء في لبنان للحصول منه على مكونات أحد الأدوية التي كنت استخدمتها سابقاً خصوصاً وأن الدواء الصيني الذي أمنته لي مي لم يعطِ نتيجة. كما طلبت من زينة أن تساعدني على إيجاد دواء صيني مشابه. إلّا أن المشكلة كانت أن هذا النوع من الأدوية متعلق بالسعال الحاد، وهذا الأخير أحد عوارض الفيروس، وكما قلت سابقاً، كانت السلطات قد بدأت تطلب من أي شخص لديه عوارض، بالتبليغ كي يجرى له فحص، فإن كان مصاباً يتم تحويله مباشرة إلى مراكز عزل خصوصاً. لذا ترددت كثيراً في طلب الدواء منعاً للفت الأنظار بلا داعٍ. ولكن بمرور الأيام، كان وضعي قد أصبح لا يطاق، فتوجهت إلى مدخل المجمع السكني كي أذهب إلى صيدلية تقع على الطرف الآخر من الشارع.

عند وصولي إلى المدخل، كان عدد من المتطوعين يقفون هناك. وكان يبدو أن إجراءات جديدة قد بدأوا بتنفيذها. تقدمت إلى إحدى المتطوعات وقلت لها أريد أن أخرج، قالت «الآن مسموح أن تخرج مرة واحدة كل ثلاثة أيام. عليك أن تملأ هذه البطاقة. اكتب هنا رقم شقتك».

ولكنني لم أكن أحفظ رقم الشقة، حاولت أن أشرح لها أين تقع الشقة بالضبط كي تستنتج العنوان. وهذا ما حصل. ذهبت إلى الصيدلية وحصلت على دواء صيني مخصص للسعال، ولكني كنت على يقين أنه لن ينفع. فوضعي يحتاج إلى ما هو أكثر من دواء خفيف مثل هذا.

بعد أسبوع من ذلك، كنت قد بدأت أتعود كما كل سنة التعايش مع هذا السعال المتعب. توجهت مجدداً إلى مدخل المجمع، وكنت أنوي الذهاب لشراء دواء وماء وأيضاً تسجيل فيديو. ولكن هذه المرة قيل لي «ممنوع الخروج أبداً».

أجبت: «ولكن أريد أن أشتري مياهاً، ماذا أفعل؟».

«يمكنك طلب كل ما تريد عبر الانترنت، فالتوصيل المنزلي عاد إلى العمل».

منذ اليوم الأول على الإغلاق، أوقفت السلطات كل أشكال التوصيل المنزلي. وحسب ما علمنا أنه تم إخضاعهم للعزل ولفحوصات للتحقق من سلامتهم، وبعد مرور 14 يوماً، أي في هذا اليوم الذي قصدت فيه باب المجمّع، سمح لهم بالعودة للعمل. في المقابل، طُلب من السكان عدم الخروج لأي سبب إلّا لحالة صحية طارئة. عندئذ يجب التواصل مع المتطوعين الذين يتواصلون بدورهم مع الجهات المختصة. ففي حال الإصابة بالفيروس، يمنع الذهاب إلى المستشفى بسيارة خصوصاً، بل تنقل المريض فرق خصوصاً بعد إجراء التقييم الأولي للحالة.

ومنذ ذلك الوقت، أي أواسط شباط/فبراير 2020، أصبح الحجر المنزلي صارماً بنسبة مئة بالمئة تقريباً. لذا، لم أخرج من المنزل إلّا بعد حوالي الشهر ونصف الشهر، أي في أواخر شهر آذار/مارس. وفي هذا الوقت، كانت المدينة تتعافى بجهود جبارة.

هل هناك أمل[3]؟

14/2/2020

منذ اليوم الأول على إغلاق ووهان، كنت متفائلاً. كنت اخترت التفاؤل قبل ذلك بكثير كأسلوب مقاومة. وحده القتال من أجل حياة أفضل يجعلك متفائلاً.

كل شيء في ووهان مؤجل: الربيع، زهر الكرز الذي اشتهرت به المدينة ينتظر موعداً مؤجلاً مع عاشقي براعمه وأزهاره وألوان بتلاتها، لقاء الناس في الشوارع مؤجل، الاحتفال بالأعياد. كل شيء مؤجل ما عدا الكفاح.

كنا نتحدى وباء مجهولاً وشرساً. كنا نواجه حملة إشاعات أخطر من الفيروس نفسه بسرعة انتشارها وما تبثه من خوف وتضليل وجهل واعتداء على الحق في الأمل. لم نكن خائفين، هل رأيتم يوماً محارباً يخاف الحرب؟ والحرب أشكال، الأسهل فيها هو القتال المباشر، أما الأصعب فهو عندما يضرب عدوك خطوطك الخلفية، وخصوصاً عندما يتوجه مباشرة إلى من يكون دورهم بعيداً عن الجبهة الأمامية. ففي الحروب الكلاسيكية، الأصعب هي الحرب النفسية والإعلامية. واليوم أنا أكتشف أيضاً أن للفيروس جنوداً من بني جلدتنا، يخوضون عنه حرباً نفسية وإعلامية بالتضليل ونشر الخوف.

لم أتكلم في السياسة حتى الآن. كنت دائماً أقول إنها معركة البشرية ضد عدوها الموحد. وأن في هذه المعركة ليس هناك خاسرون ورابحون، فالخاسر يجب أن يكون الفيروس، أما الرابح فكل الناس. لكن، كان للولايات المتحدة على ما يبدو رأي آخر.

منذ اليوم الأول على إغلاق ووهان، بدأت الإشاعات والتهويلات. منذ الأسبوع الأول أعلن وزير التجارة الأميركي بشكل مباشر وصريح أن الاقتصاد الأميركي يستفيد مما يجري في الصين. ومنذ ذلك الحين، بدأت الولايات المتحدة ضغطاً من أجل سحب رعاياها ودفع الدول الأخرى لتحذو حذوها. على الرغم من أنه إلى اليوم وبعد مرور ٢٣ يوماً على إغلاق ووهان، كانت منظمة الصحة العالمية لا تزال تؤكد أنه لا ضرورة لسحب الرعايا الأجانب من ووهان. أقفل الأميركيون حدودهم بشكل كامل أمام الصين، وحاولوا دفع العالم كله لوقف العمليات التجارية مع هذا البلد بحجة الفيروس، معتقدين أنهم بذلك يحققون نصراً حلم به أركان إدارتهم طويلاً.

لم تكتف الولايات المتحدة بذلك، بل حركت ماكيناتها الإعلامية وجيوشها الإلكترونية بكل اللغات لجعل الصين عدو البشر لا الفيروس. وانطلقت في كل مكان حملات عنصرية تبث إشاعات لا يقبلها العقل. فالإدارة الأميركية التي عاشت على دماء باقي الأمم، لا تمتلك طريقة لاستمرار سيطرتها غير اختلاق الأعداء وبث الخوف والرعب وافتعال الحروب على أنواعها. ومن أدواتهم الأكثر فاعلية الأدوات الأيديولوجية. يوهموننا أنهم منقذو البشرية، وأنهم حماة الأمم، على الرغم من أننا نعلم تماماً أنهم هم من أبادوا سكان أميركا الأصليين، وهم من استعبدوا شعوباً كاملة لبناء اقتصادهم، وهم من كرسوا في قوانينهم التمييز العنصري حتى أواخر القرن العشرين، هم من حرقوا فيتنام بالنابالم، وهم الوحيدون الذين استخدموا السلاح النووي في هيروشيما وناكازاكي. الأميركي يوهمنا أنه حامي الديمقراطية وناشرها، وقد رأينا نتائج ذلك في أفغانستان والعراق وأميركا اللاتينية.

لطالما استخدم الأميركي منطق رابح - خاسر، واليوم يستخدم المنطق نفسه. فهو يعتقد أن انتشار الفيروس فرصة ليكون الرابح الوحيد.

يعيش في مدينة ووهان حالياً حوالي ١٠ ملايين إنسان، طُلب منهم ليل ٢٢/٢٣ كانون الثاني/يناير أن يلتزموا منازلهم ولا يخرجوا إلّا عند الضرورة. منذ صباح ٢٣ كانون الثاني/يناير وحتى كتابة هذا النص مساء ١٤ شباط/فبراير، لم يخرج أي إنسان من منزله إلّا عند الضرورة. هل حصل هذا سابقاً في تاريخ الالتزام والتنظيم والمواجهات؟ والمفارقة أنه لم يكن هناك حاجة

لاستخدام لا الجيش ولا حتى الشرطة من أجل تطبيق هذا الإجراء، طبعاً على عكس الأفلام التي تبثها أميركا في محاولة لتزييف وعينا.

قلت منذ الأيام الأولى إن شعباً يجيد القتال والانتظام من المؤكد أنه سينتصر. وبعد كل هذا الوقت أؤكد هذه المقولة وأضيف أن شعباً محمياً من الحرب النفسية ولا يتأثر بالإشاعات، شعباً يعرف كيف يحاسب وكيف يكون واحداً في أوقات الصعاب، شعباً لا يوجد فيه انقسامات عرقية أو قومية أو دينية، شعباً يقوده حكام يعتبرون الإنسان أولوية وكل قدرات البلد هي في خدمة المواطنين.

شعباً كهذا يعطيني الأمل بأن يوم الاحتفال بالنصر تحت شجر الكرز في ووهان أصبح قريباً. حتماً هذا الشعب سينتصر».

加油_#武汉

صعود ثم هبوط

على الرغم من تجميعي اليومي للداتا، ومن ثم إدخالها إلى جداول ورسوم بيانية، إلّا أنني لم أبدأ بعرضها إلّا بعد مرور 17 يوماً على إغلاق ووهان. فقد كنت على يقين بأن نتائج إجراءات عزل المدينة لن تظهر، إلّا بعد مرور مدة لا تقل عن 15 يوماً على بداية العزل.

أول يوم عرضت فيه داتا مرفقة بتحليل للمسار الذي توقعت سابقاً سلوكه، كان في 8 شباط/ فبراير. كان الأمر بالنسبة لي ممتعاً جداً: أولاً أنا أقوم بعمل أحبه، وهو تحليل الظواهر بالاستناد إلى الداتا. ومن جهة ثانية، كان المسار يبعث على الأمل بشكل كبير. فقد سلك مسار الفيروس فعلاً مرحلة صعود ثم بدأ بالهبوط، إن كان في ووهان أو على مستوى الصين. وهذا ما جعلنا نثق بأن النصر مسألة وقت فقط. فمن جهة العزل التام يجعل من إمكانية إصابتنا بالفيروس أمراً شبه مستحيل، ومن جهة أخرى كانت حالات الشفاء تسجل زيادة كبيرة، في حين تراجعت الإصابات الجديدة بشكل يومي.

خلال شباط/فبراير، كان عدد الإصابات المكتشفة خارج الصين لايزال قليلاً جداً، ومحصوراً بشكل أساسي في كوريا الجنوبية وبعض الدول الأخرى. إلّا أنّ كل المؤشرات كانت تدلّ على أن الأمور قد تخرج عن السيطرة هناك. ففي حين كانت الإجراءات الاستثنائية التي تتخذها الصين بدأت تؤتي ثمارها، كان عكس ذلك يحدث في الدول الأخرى، خصوصاً في أوروبا والولايات المتحدة. فهناك لم تتخذ إجراءات استباقية، لا بل إن المسؤولين قللوا من خطورة الفيروس. هكذا استمر الناس بممارسة حياتهم بشكل طبيعي. وكانت لذلك آثار مدمرة.

عندما عرضت الرسم البياني الأول، كان المنحنى قد وصل القمة، وبدأ يسلك مساراً تنازلياً. وهذا يعني أن تقديراتي كانت محقّة. حيث توقعت أننا سنصل إلى ذروة المنحنى البياني في اليوم الرابع عشر للعزل، والذي صادف السادس من شباط/فبراير، بعدها سيبدأ التراجع. طبعاً لن يكون تراجعاً ثابتاً، فقد يرتفع قليلاً من حين لآخر، إلّا أن المسار العام سيكون تنازلياً.

في ما يلي سأعرض بعض المحطات الأساسية خلال عملية السيطرة على الفيروس، كيوميات كنت أدوّنها على صفحتي على فيسبوك تحت العنوان الثابت «داتا اليوم».

داتا اليوم[4] 8/2/2020

الرسم البياني يظهر حالات الإصابة بفيروس كورونا المسجلة يومياً على المستوى العالمي.

كما كنا قد أشرنا سابقاً، فإن المنحنى سيصل إلى أعلى مستوى له ثم سيبدأ بالانخفاض، وهذه النقطة ستكون الحالات التي أصيبت يوم ٢٢ كانون الثاني/يناير الماضي وسجلت قبل أمس، وسيستمر تراجع الحالات في الأيام القادمة إذا لم يحصل أي طارئ.

في تفاصيل الرسم البياني:

أولاً، نلاحظ في الخط الأفقي (axis x) أنني وضعت رقمين مفصولين ب «/»، مثلاً Jan23/ 8، الرقم 23 يعني اليوم الذي اكتشفت فيه الحالة، والرقم 8 يعني اليوم الذي من المتوقع أنه أصيب فيه الشخص. ودائماً هذا الرقم يكون قبل 14 يوماً من اليوم الذي اكتشفت فيه الحالة، وهي فترة الحضانة التي يستغرقها الفيروس في جسم الإنسان، وبهذا المعنى، الحالة التي نسجلها اليوم لا تعني أن الإصابة حصلت بالأمس بل قبل 14 يوماً تقريباً.

ثانياً، يبدو من الخط الأزرق الذي يمثل الحالات المسجلة على أساس يومي، أن عدد الإصابات استمر في الارتفاع حتى يوم 22 كانون الثاني/يناير، وهي الحالات التي سجلناها يوم 4 شباط/فبراير، ومن ثم بدأت هذه الحالات تتراجع بشكل بطيء، وذلك ناتج من أنه في 23 كانون الثاني/يناير دخلنا في حالة العزل في مدينة ووهان ومقاطعة هوبي، وأيضاً تم تشديد الإجراءات في كل الصين، ومن المتوقع أن يستمر هذا التراجع في الأيام القادمة.

ثالثاً، الخط البرتقالي يسجل التغير في الحالات اليومية بين يوم والذي يليه، لذا فإن كان هذا الرقم إيجابياً (positive) فهذا يعني أن الحالات تزيد، وإن كان سلبياً (negative) فهذا يعني أن الحالات تتراجع. بناء عليه، إذا نظرنا إلى آخر رقمين، سنجد أنهما سلبيان، أي إن الحالات تتراجع (مثلاً آخر رقم هو 560- وهذا يعني أن حالات الإصابة تراجعت 560 حالة)، وإن هذين اليومين هما اليومان اللذان بدأت فيهما الإجراءات المشددة، بمعنى أننا منذ اليوم بدأنا نرى تأثير الإجراءات التي أخذتها الحكومة الصينية.

أخيراً، من المتوقع أن يستمر تراجع عدد الإصابات. وهذا المسار التنازلي سيستمر ولكن ليس بشكل ثابت. فمن الممكن أن يرتفع قليلاً على أساس يومي، إلّا أن المنحى العام سيستمر على هذا الشكل خصوصاً مع التشدد الكبير بالإجراءات التي تشهدها الصين. ولكن حتى هذا لن يعني انتهاء الخطر بل السيطرة على الفيروس وكبح انتشاره. أما القضاء على الفيروس فيحتاج إلى إنتاج لقاح أو دواء، وهذا الأمر حسب المعلومات يحقق خروقات إيجابية.

كوفيد، جنرال الرعب

كنا على بعد ثلاثة أيام فقط من الموعد المحدد لانتهاء عطلة الربيع في المدارس والجامعات. إلّا أن الجامعة أرسلت لنا صباح 11 شباط/فبراير بريداً الكترونياً تؤكد فيه أن الجامعة لن تفتح أبوابها حالياً لأن ووهان لاتزال في العزل الكامل. كما طُلب من كل الطلاب التهيؤ لاستكمال الدراسة عن بعد حيث أن الدروس ستبدأ صباح 15 شباط/فبراير عبر منصة رقمية خاصة. كما شددت الرسالة على وجوب التزام الطلاب في الصين عموماً ومدينة ووهان خصوصاً، ملء الاستمارة الصحية يومياً. كما طُلب من الطلاب الموجودين خارج الصين تأجيل تاريخ عودتهم حالياً، على أن تبلغهم الجامعة بأي جديد في هذا الخصوص.

صباح 11 شباط/فبراير أرسلت لي أختي حنان تقريراً أعدته إحدى المحطات اللبنانية، وقالت والفرحة تكاد تقفز من بين كلماتها، «يتحدثون عن الفيروس والعدد الكبير لحالات الشفاء. أنتجوا تقريراً رائعاً عن ووهان خصوصاً، وهناك امرأة صينية تتحدث بشكل مؤثر جداً. أتمنى أن يكون أبي شاهد هذا التقرير ليخف توتره قليلاً» مردفة ممازحة «لم نكن نعلم أنه يحبك إلى هذه الدرجة». أجبتها وأنا أضحك، «أعتقد أنني ابنه أليس كذلك».

كانت منظمة الصحة قد أصدرت في العام 2015 مبادىء توجيهية تدعو إلى عدم ربط الأمراض الفيروسية بأسماء المناطق أو المواقع التي يحدث فيها التفشي، كما يقال مثلاً الحمى الأسبانية أو المالطية الخ... لذا وبعد انتشار هذا الفيروس الذي أطلق عليه اسم «فيروس كورونا الجديد»، كان لابد من إعطاء اسم للمرض الناتج من هذا الفيروس، على أن يراعي تلك المبادئ التوجيهية. بناء على ذلك، أعلن المدير العام لمنظمة الصحة العالمية مساء 11 شباط/فبراير، الاسم المعتمد للمرض، وهو «كوفيد 19» (COVID-19). والاسم هو اختصار للحروف الأولى من

«كورونا» (Corona)، «فيروس» (Virus)، و «مرض» (Disease). ويشير الرقم 19 إلى السنة التي ظهر فيها (2019).

وقد أشار المدير في كلمته إلى أنه «بموجب المبادئ التوجيهية المتفق عليها بين منظمة الصحة العالمية والمنظمة العالمية لصحة الحيوان ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة، كان علينا أن نجد اسماً لا يشير إلى موقع جغرافي أو حيوان أو فرد أو مجموعة من الأشخاص، وفي الوقت نفسه يكون واضحاً وعلى صلة بالفيروس». وتابع: «يعدّ إطلاق الاسم أمراً مهماً لمنع استخدام أسماء أخرى يمكن أن تكون غير دقيقة أو قابلة لوصم أشخاص (بصيت المرض) أو بلدان». وعلى الرغم من كل هذه المحاولات من قبل المسؤولين الصحيين والعلميين في العالم لتجنب أي استخدام سلبي للفيروس وما يتبعه من عنصرية، إلّا أن الإدارة الأميركية وخصوصاً وزير خارجيتها مايك بومبيو كان له رأي آخر، فقد أصر على استخدام صفات عنصرية تصم الصين باستخدامه لتعبير «الفيروس الصيني».

عندما سمعت تعبير «فاشية كوفيد»، تذكرت رواية للكاتب السوفياتي «ألكسندر بيك» تتحدث عن تصدي الجيش الأحمر للقوات النازية الزاحفة نحو موسكو. يقول بطل الرواية، وهو ضابط سوفياتي كان يقاتل على خط الدفاع الأخير عن موسكو: «علام كان اعتماد الألمان عندما هجموا على بلادنا الشاسعة الأرجاء؟ لقد كانوا موقنين بأنهم في الحملة الشرقية، سيرافقهم في طليعة طوابير الدبابات الجنرال «خوف» الذي سيحني له كل حي هامته أو يهرب من وجهه». ونحن أيضاً كان علينا مواجهة جنرال «الرعب» هذا، والانتصار عليه، فلننتصر بهذه الحرب لا بد من مواجهة الخوف والهلع المرافقين لفكرة انتشار فيروس ما. وكما فعل بطل «ألكسندر بيك» لينتصر بتلك الحرب فعلنا في ووهان. واجهنا الرعب، وتغلبنا على الخوف، وبالتالي ارتفعت عزيمة القتال، وحينئذ أصبح النصر مسألة وقت.

18- 20 شباط: نقطة تحول

على الرغم من تحديثي المعلومات يومياً حول ما يجري في ووهان، إلّا أن مشكلة أبي كانت أنه لا يملك حساباً على فيسبوك ليتابعني. لذا، كان كل يوم صباحاً يرسل لي رسالة صوتية يسألني خلالها عن صحتي وعن الأوضاع في ووهان وأيضاً يضعني بصورة أهم الأخبار التي سمعها. بدوري كنت أقص عليه فحوى ما نشرته.

صباح 18 شباط/فبراير، أرسل تسجيلاً يقول فيه «يبدو أن الأمور تتبلور أكثر فأكثر في ووهان، مسؤولة طبية صينية صرحت أن الصين قادرة على السيطرة على الفيروس والحدّ من انتشاره، وأيضاً منظمة الصحة أكدت ذلك». أجبته بأن هناك الكثير من الأخبار الجيدة، أهمها أنه قريباً سيصبح عدد من يخرج من المستشفيات أكبر من عدد الإصابات الجديدة، وأن هذه ستكون نقطة تحوّل.

في اليوم التالي 19 شباط/فبراير، وكان قد حصل ما كنت قد توقعته أن يحدث خلال أيام، استبقت رسالته برسالة صوتية: فقد تخطى عدد حالات الشفاء عدد الإصابات الجديدة. هكذا أخبرته إضافة إلى ذلك، أن هناك مدناً قد بدأت تعود الحياة فيها إلى طبيعتها، مثل مدينة «ايوو» المشهورة بالتجارة، ويقيم فيها ويزورها الكثير من التجار العرب. أضفت أنه «يفترض أن يستمر عدد حالات الشفاء بالارتفاع، مقابل تراجع حالات الإصابة إلى أن ننتهي». أجابني «هذا جلّ ما نريده، حمى الله الشعب الصيني، هذه أمور تبشر بالخير، لكن رجاء ابق على إجراءات الوقاية والحذر نفسها».

عندما استيقظت صباح يوم 20 شباط/فبراير، كانت بانتظاري هدية رائعة من الداتا. فهذه الأخيرة كانت تشير، ولأول مرة، إلى أن عدد الإصابات على أساس يومي دون الألف، لا بل دون

500 إصابة. وهذا رقم لم نكن قد سجّلناه قط من قبل، وشكل نقطة التحوّل التي كنت أنتظرها. ها هي أمامي: أصبحت واضحة جداً. إنها تقول إن عدد الإصابات الجديدة 392 إصابة، بينما حالات الشفاء في اليوم نفسه كانت 1781.

قلت لأبي وهو الذي كان يسعى يومياً إلى تدقيق كل ما يسمعه عن ووهان من خلالي: «الأخبار جيدة جداً اليوم، سجلنا فقط 392 إصابة جديدة، 13 مقاطعة صينية سجلت صفر إصابات لليوم الثالث على التوالي. عدد الإصابات في كل المقاطعات باستثناء هوبي 45 إصابة». ثم أضفت مستبقاً تعليقه «لا تقل لي لا تخرج من الغرفة، لأنني أصلاً لا أستطيع الخروج، فهذا منذ أسبوع ممنوع منعاً باتاً».

على الرغم من هذه النتائج المشجعة، إلّا أن تعاطي السلطات لم يتغير قط، لا بل أصبح أكثر تشدداً من حيث فرض العزل الشامل، وعدم الخروج أبداً من المنازل. فقد أثبتت هذه السياسة نجاحها، والاستمرار فيها كان عاملاً أساسياً في تدمير قدرة الفيروس على التقاط أنفاسه واحتمال هجومه مجدداً. هذا كان يدل على نقطة تحول في عملية السيطرة، فالآن لم نعد في مرحلة دفاع، بل أصبحنا في مرحلة هجوم.

في ما يلي ما كتبته في هذه الأيام الثلاثة بشكل متتالٍ على فيسبوك:

صبرٌ جميل يا ووهان

داتا اليوم 18/2/2020

ستكون بداية النهاية للحرب مع كورونا، عندما يصبح الخط الأخضر (عدد حالات الشفاء على أساس يومي) فوق الخط الأحمر (عدد الإصابات الجديدة).

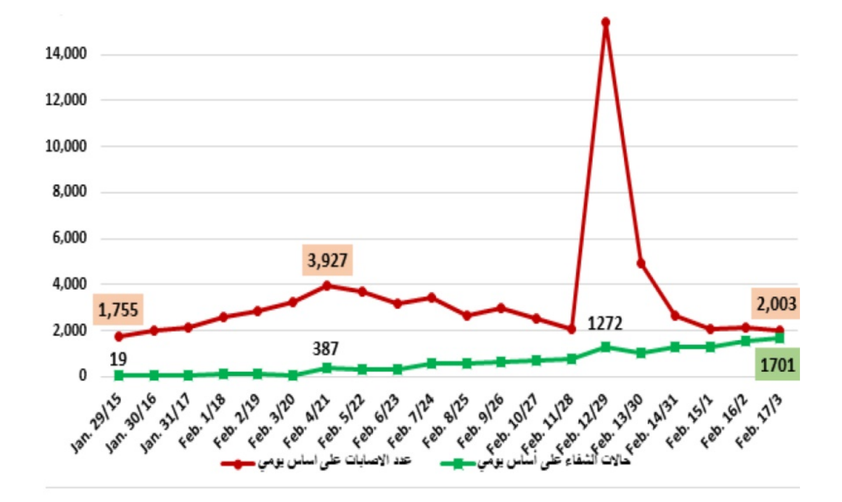
إلى الآن، كان عدد الإصابات الجديدة على أساس يومي (الخط الأحمر) أكبر دائماً من حالات الشفاء (الخط الأخضر). أما اليوم فالفرق بين هاتين النقطتين (2003 إصابة - 1701 شفاء) يساوي 302. ووفقاً لآخر تعديل تلا تحضيري لهذه الداتا أصبح الفارق 98 حالة، لذا أتوقع أنه خلال يومين سيصبح عدد حالات الشفاء أعلى من عدد الإصابات الجديدة (على أساس يومي).

إن نقطة التحول ستكون عندما يصبح عدد الذين يخرجون من المستشفيات أعلى من عدد الذين يدخلونها. وهذا أيضاً سيدل على أننا، أولاً، تمكنّا من السيطرة على الفيروس، وثانياً، أنه للدواء المستخدم وطرائق العلاج فاعلية كبرى في القضاء على الفيروس.

أما ثالثاً، فسأحقق وعدي لنفسي بالاحتفال تحت شجر الكرز في ووهان.

ملاحظة 1: الداتا لكل الدول وليست للصين فقط.

ملاحظة 2: منذ أربعة أيام (12 شباط/فبراير) تم تغيير طريقة حساب الحالات الجديدة وأدخلت تقنيات جديدة لتشخيص الإصابة، فبدل انتظار ظهور العوارض، سمحت التقنيات الجديدة باكتشاف الإصابة في مراحلها الأولى (مثل الشقّاط)، وهذا رفع عدد الإصابات المكتشفة في ذلك اليوم بشكل كبير (15408).


14,000
12,000
10,000
8,000
6,000
4,000
2,000
0
1,755
3,927
2,003
19
387
1272
1701
Jan. 29/15
Jan. 30/16
Jan. 31/17
Feb. 1/18
Feb. 2/19
Feb. 3/20
Feb. 4/21
Feb. 5/22
Feb. 6/23
Feb. 7/24
Feb. 8/25
Feb. 9/26
Feb. 10/27
Feb. 11/28
Feb. 12/29
Feb. 13/30
Feb. 14/31
Feb. 15/1
Feb. 16/2
Feb. 17/3
عدد الاصابات على اساس يومي
حالات الشفاء على أساس يومي

بداية النهاية

داتا اليوم 19/2/2020

بالأمس تحدثنا عن نقطة التحول، وكان تقديرنا أنها ستحدث بعد يومين (أي غداً)، ولكن نقطة التحول بدأت في الصين منذ ذاك اليوم.

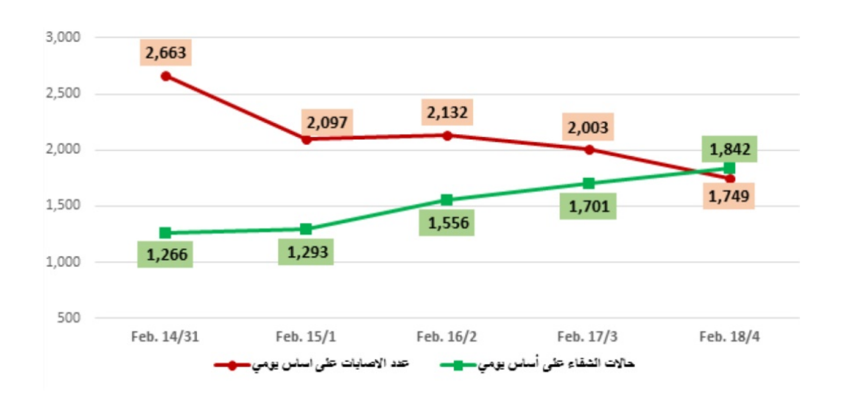
أولاً، عدد الذين خرجوا من المستشفى (1842) تخطى عدد الحالات الجديدة (1749)، فيمكن ملاحظة كيف أن اللون الأخضر (الشفاء) ينتقل إلى الأعلى في آخر الرسم البياني. مع الملاحظة أن آخر رقمين هما حصراً للصين، على المستوى الدولي الأرقام تقريباً متساوية.

ثانياً، العديد من المقاطعات الصينية لم تسجل أي حالة إصابة على مدى يومين متتاليين. وهذا يعتبر أمراً إيجابياً جداً، ولكن يجب أن تستمر الإجراءات للتحقق أكثر. وبعض المدن مثل أيوو (مدينة تجارية مهمة) عادت الحياة فيها إلى وضع شبه طبيعي وافتتحت الأعمال مجدداً.

ثالثاً، سجلت 1749 حالة جديدة بينها 53 فقط خارج مقاطعة هوبي ، والبقية أي 1660 حالة في ووهان. لذا كل الجهد حالياً يتركز على المدينة من أجل السيطرة الكاملة على الفيروس.

رابعاً، نسبة الذين خرجوا من المستشفى من إجمالي حالات الإصابات لامس 20٪. وهذا أيضاً يدل على فاعلية مستمرة لطرائق العلاج والدواء المستخدم، وكذلك فاعلية الجهود الطبية الجبارة التي تبذل هنا. ونتمنى أن تستمر هذه النسب بالارتفاع. وفي المقابل انخفاض عدد الإصابات الجديدة.

أخيراً، يجب أن نبقى حذرين، فنحن نحارب فيروس، ولذلك من الممكن أن لا يكون التراجع في الإصابات بشكل ثابت، وأي خطأ قد يعيدنا إلى وضع صعب.



التزام فنصر

داتا اليوم 20/2/2020

في محيط منزلنا في برجا، يوجد طريق شديدة الانحدار نسميها «نزلة وادي عمرين». عندما كنا صغاراً، كنا نذهب لنلعب هناك، ونأخذ معنى «بلاطة» سيراميك، نجلس عليها ونتزحلق من رأس «النزلة» حتى أسفلها، كنا خلال ثوان فقط نقطع مسافة لا بأس بها. كان ذلك الإحساس شبيهاً بالطيران.

في الرسم البياني، لم أستطع تشبيه التراجع في عدد الإصابات إلّا بتلك «النزلة». عدد حالات الإصابة تراجع بشكل كبير جداً بين الأمس واليوم (من 1749 إلى 392 فقط). بينما عدد حالات الشفاء لايزال مستقراً على 1781. أيضاً أنوّه أن هذه الداتا فقط للصين.

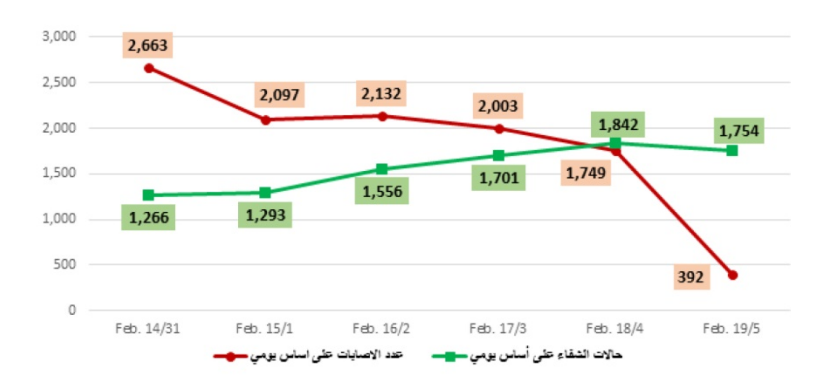
في المقابل، لم تسجل 13 مقاطعة في الصين أي إصابات لأكثر من ثلاثة أيام متتالية.

عدد الإصابات بكل المقاطعات باستثناء ووهان كان فقط 45 إصابة.

وأيضاً للتوضيح، عدد الإصابات خارج الصين يرتفع لسبب أساسي وهو السفينة السياحية الموجودة اليوم على شواطئ اليابان، والتي وصل عدد الإصابات فيها إلى أكثر من 200 إصابة. بينما الإصابات في باقي دول العالم مستقرة حتى الآن.

بالرغم من أننا في المراحل الأخيرة من الصراع، لم تتغير سياسات الحذر والعزل المتّبعة في ووهان. لا بل شدّدت الإجراءات منذ أسبوع. وحتى الآن، الخروج من المنزل غير مرغوب فيه أبداً. أصبحنا نطلب كل شيء نحتاج إليه بخدمة التوصيل المنزلي ويصلنا إلى أمام باب غرفتنا.

هذه الإجراءات كان لها دور فعال جداً في الإنجاز الذي يتحقق، ولكنها كانت لتكون حبراً على ورق لولا أن هناك شعباً التزم بها، وحولها إلى أسلوب هجوم ينتصر من خلاله على فيروس كورونا من جهة، وعلى إشاعات وتضليلات الولايات المتحدة وأتباعها الذين حاولوا جاهدين ، تشويه هذه الملحمة البطولية التي يسطرها الشعب الصيني بالنيابة عن كل البشرية وخصوصاً من خلال هذا التنظيم والالتزام بتعليمات حكومة وقيادة وحزب يثق بأقواله ويرى بعينيه نتائج أفعاله.



لماذا لم تخرج من ووهان[5]؟
21/2/2020

كان هذا السؤال الأكثر تكراراً عليّ من قبل الجميع خلال الأيام التسعة والعشرين الماضية.

منذ أن تم عزل مدينة ووهان صباح 23 كانون الثاني/يناير، حاولت جاهداً نقل صورة ما يحدث في هذه المدينة بدون مبالغة أو تهوين.

لم أكن أتوقع الاهتمام بما أكتب وما أنشر من فيديوهات ومعلومات وداتا بهذا الشكل. سريعاً تحولت صفحتي على فيسبوك وبالتالي أنا نفسي، إلى مصدر معلومات للكثير من وسائل الإعلام اللبنانية والعربية والعالمية بالإضافة إلى الكثير من الأصدقاء الذين يتابعون صفحتي.

أجريت خلال هذه الفترة ما لا يقل عن 100 مقابلة بين تلفزيون وصحف وإذاعة ومواقع إلكترونية. سجلت العديد من الفيديوهات التي تعمدت أن تكون كلها مباشرة (فيسبوك مباشر) لتأكيد الموضوعية، بمعنى أنها لا تخضع لأي تعديل أو مونتاج.

السؤال الأول الذي كان يطرح عليّ بداية كل مقابلة إن كان على الهواء مباشرة أو خلف الكواليس: لم لم تخرج من ووهان؟ أو حرفياً: لمَ لم تهرب من ووهان؟ هذا السؤال كان نابعاً في الغالب من الحرص على صحتي، وثانياً من استغراب تصرف كهذا قد يعرض حياتي للخطر. مع العلم أن فرصة الخروج من ووهان كانت متوافرة إن كان خروجاً طوعياً أو من خلال عملية الإجلاء التي حصلت.

لم يكن موقفي وحدي بل موقف مئات وربما آلاف الأجانب هنا. ولم الاستغراب؟ فتاريخ التضامن بين الشعوب لا يخلو من سلوك كهذا.. ولنا في تاريخ العلاقة بين لبنان والصين مثلاً، معلم كبير هو الدكتور الشيوعي جورج حاتم الذي التحق بالثورة الصينية وعُرف بطبيب الثورة. وكذلك الروائي الشيوعي السوري الكبير حنا مينا الذي حضر إلى الصين في بداية مرحلة البناء خمسينات القرن الماضي، هرباً من بلاد كانت تبطش بمناضلين أمثاله. وأصر على البقاء في الصين ومساعدة الشعب على استكمال عملية البناء على الرغم من أن الأحزاب الشيوعية يومذاك قررت سحب كل «الخبراء الأجانب» بعد أن وقع الخلاف بين قيادة الاتحاد السوفياتي والقيادة الصينية.

أما لماذا لم أترك ووهان؟ كان جوابي يبدأ دائماً أنني لست شخصاً متهوراً، وبالتالي فأنا لا أرمي بنفسي إلى الموت عبر البقاء في مدينة منكوبة صحياً، ولو أن بعضهم كان يعتبر ذلك انتحاراً. فبقائي هنا كان مستنداً إلى إمكانية الصمود، خصوصاً أن السلطات الصينية ومنظمة الصحة العالمية أكدتا مراراً وتكراراً أنه لا داعي لإجلاء الرعايا الأجانب من ووهان. لكن الضغط الأميركي منذ اليوم الأول، وحالة الهلع والرعب التي بثت حول ما يجري في ووهان بشكل ممنهج، دفعت الكثيرين للاعتقاد أن البقاء هنا هو بمنزلة انتحار. أما أنا، فلم أنسق للانجراف في هذه الدعاية. فأنا في قلب الحدث وأعرف ميدانياً ما الذي يحصل، خصوصاً وأن السلطات والجامعة لم تكن تقصر في إعلامنا بما يجري. لذا، قررت منذ الأيام الأولى أني لن أخرج من هنا، وأن أواجه ما أدركت أنها حرب تضليلية يساهم في ترويجها جهلنا كعرب بمنطقة شرق آسيا بشكل عام، ومن السهل تضليلنا في هذا الإطار، كما أن الصينيين لأسباب كثيرة أهمها اللغة لا يستطيعون مواجهة حرب كهذه.

أما الجانب الثاني والمكمل للجواب، فهو الموقف المبدئي الأخلاقي والإنساني. أنا عشت في هذه المدينة خمس سنوات، لم يقدم لي أهلها إلّا الحب والاحتضان والعلم والترحيب والضحكة الدائمة، بالإضافة إلى الأمان والحرية المطلقة لممارسة حياتي كما أريد. في الوقت الذي دفعتني بلادي ومنذ لحظة تخرجي في الجامعة لاتخاذ خيار من ثلاثة: إما الإذلال على أبواب حثالة البشر الذين يطلق عليهم اسم زعماء وحاشيتهم في بلادي لأجد عملاً، إما الموت وإما الهجرة. ولكني كالكثيرين من اللبنانيين، لم أستسلم، وواجهت. واليوم أنا هنا فقط كي أحصّن نفسي أكثر وأعود وأواجه في بلادي بقوة أكبر.

لذا، شعب ووهان والشعب الصيني يستحقان أن أقف إلى جانبهما في أيامهما الصعبة بعد أن احتضناني في أيام عزهما. كنت معنياً كإنسان بهذه الحرب. فهي ليست حرباً صينية ضد «فيروس صيني» كما جهدت أميركا في تصويره. لا، إنها حرب من أجل البشرية، حرب تقاتل فيها الصين في خط المواجهة الأول مانعة هذا الفيروس من التمدد خارج أراضيها ولو على حساب اقتصادها وإمكاناتها الخصوصاً. وأيضاً هذه الحرب هي ضد منطق المعادلة الصفرية (zero sum game) التي اعتمدتها الولايات المتحدة في كل تاريخها وتعتمدها الآن أيضاً، حيث هناك دائماً رابح واحد والكثير من الخاسرين. وفي هذه الحرب أرادت الولايات المتحدة أن تكون هي الرابح الوحيد من الفيروس (على لسان وزير تجارتها) بينما الخاسرون هم باقي الدول أو البشرية. هذا المنطق سيسقط مع سقوط الفيروس.

أخيراً، بقيت في ووهان لأكون حقاً أنا، مقاتلاً من أجل مبادئي وأفكاري، أي مقاتلاً من أجل الإنسان ضد كل أعدائه إن كان الفيروس البيولوجي أو الفيروس الرأسمالي. وأنا بذلك لا أختلف بشيء عن رفاق لي في لبنان وفي كل مكان فيه قهر على هذه الأرض.

دعه يمرض دعه يمت

كعادتها، وبدون مقدمات، اتصلت مهى قائلة «في إيطاليا مات اثنان».

أجبتها «حسناً. إذاً: عليك بالكمامة وغسل اليدين تكراراً. لا ترتادي أماكن التجمعات» وأضفت ممازحاً «وقفيلي البارات والملاهي حالياً».

ضحكت وقالت: «لا تشغل بالك. صرت عاقلة. بالأكثر أذهب إلى المكتبة لأدرس. لكن حتى هذا سأكف عنه». «لكن، أضافت، لا أعرف لم أحس بصعوبة بالتنفس! ربما كان الأمر نفسياً».

حاولت طمأنتها بالقول إني أيضاً أصبت بالزكام والسعال، ولكني استطعت التعافي بفضل شرب الماء الساخن والزنجبيل بكثرة، والانتباه لحرارتي وأضفت ممازحاً «ما زلت أسعل ولكن دون حرارة لذا لم أقصد المستشفى». قالت إن ما يخيفها أنها كانت منذ يومين في مدينة ميلانو التي اكتشفوا فيها، بعد مغادرتها، حالات إصابة بالكورونا وقاموا بعزل 250 شخصاً. حاولت تهدئتها بقولي «يا بنت: أنا أعيش بمدينة اكتشف فيها حتى اليوم حوالي 45 ألف حالة، وأنت خائفة من مجرد حالتين؟» قالت «تعافيت إذاً من الزكام بشرب المياه؟ أمي قالت عندما علمت بإصابات إيطاليا: عودي فوراً إلى لبنان، ماذا لو كنت في ووهان وليس إيطاليا؟».

كانت مهى تقيم هذه المقارنة على اعتبار أن الوضع في ووهان هو الأصعب، ولا أحد يتمنى أن يكون فيه. إلّا أنها لم تكن تعلم أن الفيروس ينتشر في إيطاليا بشكل كبير جداً، ولكن إلى حينه لم يكن قد تم تشخيص الإصابات بشكلٍ كافٍ.

كانت هذه المحادثة صباح 22 شباط/فبراير 2020، وكان عدد الإصابات المؤكدة في إيطاليا 22 حالة، لكني قدرت أن يكون عدد الإصابات أكبر من ذلك، خصوصاً وأن عدد الوفيات هو 2،

وبالتالي فحسب التجربة، عندما تبدأ الوفيات في مكان ما، فهذا يعني أن الفيروس منتشر هناك منذ فترة.

بعد ثلاثة أيام، كان دوري أن أرسل لها رسالة من دون مقدمات «يا فتاة، ممنوع الخروج من البيت. تموّني واطبخي ولا تخرجي مطلقاً». لم تكن مهى قد استفاقت تماماً «ما الموضوع؟ فتحت عيني تواً». لم أكن أريدها أن تصاب بالهلع فقلت لها إن تقديري عندما تتزايد حالات الإصابة فمعنى ذلك أن الفيروس منتشر دون علم السكان.

كان عدد الإصابات قد ارتفع بشكل ملحوظ خلال الأيام الماضية في إيطاليا ووصل إلى 292 حالة.

قالت «عندنا ثلاث حالات هنا في تورينو». وأضافت، «لكني ذهبت أمس إلى السوبرماركت والناس كانت تجول بشكل عادي وبدون أي احتياطات». عندئذ أصررت عليها بعدم الخروج إلّا للضرورة وأن تضع كمامة. قالت إن الكمامة تزعجها وخصوصاً أن لا أحد غيرها يضعها. فألححت عليها بضرورة ذلك وأخبرتها كيف أني وضعتها طوال الوقت حين كنت أخرج. فقالت «والله عفاك، كسبت حالك. هون رح ياكلوها كتير. مستخفين بالقصة هنا».

قلت، «للأسف من يستخف سيدفع الثمن».

قالت، «الدولة، أوقفت كل شي لمدة أسبوع. ولكن العالم آخدينها مسخرة».

كانت مهى قد أخبرتني أن أحد أصدقائها وهو إيطالي، عندما أخذت السلطات قراراً بإغلاق النوادي الرياضية، توجه هو ومجموعة من أصدقائه إلى مكان عام لممارسة الرياضة. كانت الناس هناك ترفض الامتثال للتعليمات، حتى اضطرت الحكومة إلى استخدام الجيش في بعض الأماكن، كما أن العديد من رؤساء البلديات الذين شاهدنا لهم فيديوهات على مواقع التواصل، كانو يرجون المواطنين، وفي بعض الأحيان يصرخون غضباً داعين السكان للبقاء في المنازل. هذا كله مثلاً لم يحصل في ووهان. فببيان واحد فقط ليلة 22 كانون الثاني، التزم الناس بالمنازل. وهنا يكمن الاختلاف في الثقافات. بين ثقافة الفردية التي ينتهجها الغرب الرأسمالي من جهة، وثقافة الجماعة التي تنتهجها الصين من جهة أخرى.

فثقافة «الفردية» آتية أساساً من خلفيات اقتصادية ليبرالية، مثل «المنافسة الحرة» و «دعه يعمل دعه يمر» التي جميعها تقدس المنافسة والفردية والتي تؤدي على المستوى الاجتماعي إلى تغذية الأنانية وعدم الاكتراث للآخر. فمثلاً في الولايات المتحدة كانت الولايات تنافس بعضها في شراء أجهزة التنفس، وبحسب حاكم ولاية نيويورك، أدى ذلك إلى ارتفاع أسعار هذه الأجهزة بشكل كبير، وبدل أن تتدخل الحكومة الفيدرالية لوقف هذه المنافسة، قامت بالعكس تماماً، حيث دفعت سعراً أعلى من باقي الولايات وحصلت على الأجهزة و..خزّنتها!

لذا فإن هذه الثقافة هي في الأساس «أيديولوجيا» النظام المسيطر، يتم ضخّها وتعميمها بوسائل شتى لتصبح وعياً جماعياً. وفي المجتمعات ذات النظام الليبرالي أو «الرأسمالي المتوحش» تستخدم هذه الأيديولوجيا من أجل تأبيد سيطرة النظام الذي يستخدمها لتمييع الصراع الحقيقي في المجتمع، وبالتالي استمرار النخب الحاكمة في النهب المنظم للشعوب.

أما ثقافة الجماعة فلطالما اعتمدتها الصين الاشتراكية في تاريخها الحديث. فعلى الرغم من اعتماد نموذج اقتصادي يعتمد على الإنتاج الرأسمالي، إلّا أنه حتى هذا النموذج، ليس نفسه المعتمد في الغرب، فهنا يطلق عليه «الاشتراكية ذات الخصائص الصينية»، وبالتالي فإن الصين وبقيادة الحزب الشيوعي منعت الأفكار النيوليبرالية من اختراق البنية المجتمعية في الصين، أقله حتى الآن [6]، لذا نرى مثلاً في حالات الوباء أن الشعب يفكر كشخص واحد وليس كمجموعة أفراد منعزلين، فتصبح صحة الفرد من صحة المجتمع ككل، والعكس صحيح.

الفرق بين هاتين الثقافتين ليس تفصيلاً. فهو مثلاً في صلب قدرة الصين على الربط بين النهوض الاقتصادي والنهوض المجتمعي.فهذا الاقتصاد يتحكم في توازنه وخصوصاً بتوزيع عائداته، الحزب الشيوعي الصيني، مما يسمح بإعادة توزيع كبير للأرباح يستفيد منه مجمل الشعب الصيني، وبالتالي وكأن الشعب الصيني يعمل جماعياً لرفع مستواه المعيشي، وهذا كان سر تمكن الصين من القضاء على الفقر مثلاً. بينما في الاقتصادات الأخرى، كان النمو المستمر يؤدي إلى تراكم الثروة في أيادي قلة قليلة من المجتمع، بينما أكثرية الشعب لا تصلها من ثمار هذا النمو سوى فتات يؤدي إلى البؤس والفقر.

قلت لصديق يعيش في فرنسا، للتدليل على كارثية الأفكار النيوليبرالية في ظل أزمات تحتاج إلى التضامن المجتمعي كأزمة وباء كورونا: «كان الشعار دعه يعمل دعه يمر. حالياً أصبح، دعه يمرض دعه يمت»، فمنطق المنافسة كان سائداً حتى في ظل هذه الأوضاع الصحية الصعبة.

ولكن، المفارقة الحقيقية، أن الدول النامية استطاعت التعاطي بشكل أفضل مع الوباء من الدول التي تعتبر متقدمة. فهذه التجربة لم تقتصر على إيطاليا، فبعد ذلك كانت معظم الدول المتقدمة تسير على الطريق نفسه، مما دفعني في أحد الفيديوهات للقول إن توماس بيكيتي صاحب كتاب رأس المال في القرن الواحد والعشرين، يقول إن «الدول الغنية فقيرة إذا ما نظرنا إليها من زاوية حجم الدين العام، وأستطيع اليوم أن أقول إن الدول المتقدمة متخلفة إذا ما نظرنا إليها من زاوية تعاطيها مع هذه الأزمة».

الفردية في التعاطي التي مارستها معظم المجتمعات الغربية[7]، والتي وصلت في كثير من الأماكن مثل أميركا إلى أنانية قاتلة، جرى أيضاً ممارستها على مستوى الدول، حيث تُركت إيطاليا وحيدة تواجه مصيرها، وغيرها من الدول ضمن الاتحاد الأوروبي. وعندما احتاجت إلى مساعدة لم تجد من يقف إلى جانبها، ومثال على ذلك صربيا التي ألقى رئيسها خطاباً مؤثراً وقاسياً وصف فيه الوحدة الأوروبية بأنها «قصة خيالية» ووجه نداء مباشراً إلى الصين لمد يد العون حسب تعبيره. وهذا ما سارعت الصين للاستجابة له..

بخصوص وصول الكورونا إلى لبنان

كنت أخشى أن تتكرر تجربة إيطاليا في لبنان. لذا عندما سمعت أن هناك مؤتمراً صحافياً لوزير الصحة اللبناني سيعلن خلاله اكتشاف حالة مصابة آتية على متن طائرة قادمة من إيران كتبت مباشرة على صفحتي على فيسبوك.

« أولاً، بلا تنكيت وبلا هلع. وانتبهوا من الإشاعات.

ثانياً، الكورونا ينتقل من مسافة قريبة ولا ينتقل بالهواء.

ثالثاً، الكورونا ليس فتاكاً لجهة الوفاة، ولكنه سريع الانتشار.

رابعاً، أكثر الأماكن التي ينتشر فيها الكورونا هي وسائل النقل المشترك (مترو، باصات..) وأماكن التجمعات كالمطاعم والحفلات. ونحن ليس لدينا وسائل نقل مشترك عامة، ومعظم اللبنانيين يأكلون في بيوتهم، ولكن تبقى مسألة قد تشكل خطراً كبيراً، وهي العلاقات الاجتماعية وروابط القرابة العائلية التي تؤدي إلى احتكاك كبير بين اللبنانيين.

خامساً، بالنسبة للطائرة الإيرانية، يجب أن تتخذ إجراءات احترازية سريعة، تبدأ بعزل كل من كان على متنها مدة 14 يوماً، إضافة إلى طاقم الطائرة، وكذلك وضع كل من اتصل بركابها، خصوصاً من تأكدت إصابته، تحت المراقبة المشددة، وعدم السماح له بالاحتكاك بالآخرين قبل 14 اليوم.

سادساً، لا يجب نشر الهلع، ولكن يجب اتخاذ إجراءات بشكل سريع جداً.

أخيراً، يجب أن لا تتأخر الوزارة في اتخاذ إجراءات مشددة، وفي المقابل يجب على اللبنانيين الالتزام بشكل صارم بتلك الإجراءات، كما ينصح بالتواصل مع السلطات الصينية التي راكمت خبرة كبيرة جداً في هذا المجال. وأيضاً هناك دول عديدة وصل إليها الفيروس وتمّت السيطرة عليه منذ المراحل الأولى ولم تسجل بعد ذلك أي حالات إصابة.

نتمنى السلامة للجميع».

المشكلة في لبنان أنه يتم تسييس كل الأمور. والسياسة في لبنان مصابة بفيروس من نوع خاص، فتّاك أكثر من أي فيروس آخر عرفه البشر، ألا وهو الطائفية. فسريعاً بدأ تسييس حادثة الطائرة الإيرانية في سياق الصراع السياسي بين أحزاب السلطة في لبنان. هكذا اعتبر الكثيرون أن السبب في وصول الفيروس إلى لبنان هو إيران شخصياً إلى درجة أن إحدى نشرات الأخبار التلفزيونية بدأت بعبارة عنصرية هي «شكراً إيران».

لذا، وبما أني أصلاً كنت أحارب تسييس الفيروس من قبل الغرب باعتباره «فيروساً صينياً»، كما كان ساسة الولايات المتحدة العنصريين يروّجون، رفضت بشكل قاطع وصف الفيروس بأنه إيراني أو إيطالي أو أي جنسية أخرى. فالفيروس لا عرق ولا دين ولا جنسية له. هو عدو كل البشر، وبالوحدة فقط نتمكن منه.

في ما يلي ما عرضته على صفحتي على فيسبوك في يوم 27 شباط/فبراير 2020، أي بعد أكثر من شهر على إغلاق ووهان، وحوالي شهرين تقريباً على تبليغ الصين حول وجود الفيروس بحسب الوثائق التي عرضناها، وإلى حينه كانت الدول التي أعلنت وجود الفيروس قليلة جداً، والحالات بمعظمها لا تتعدى العشرات.

لا للهلع

داتا اليوم 27/2/2020

يظهر الرسم البياني إجمالي الإصابات في كل الدول باستثناء الصين (عدد الإصابات في الصين يتراجع بشكل ملحوظ بينما ترتفع حالات الشفاء بشكل كبير. اليوم 440 حالة إصابة جديدة معظمها في ووهان، بينما خرج من المستشفى 2756 شخصاً).

في الرسم البياني 49 دولة (يضاف إليها السفينة اليابانية فيصبح العدد الإجمالي 50)، 9 دول تم شفاء كل الحالات المصابة ولم تسجل أي إصابات جديدة.

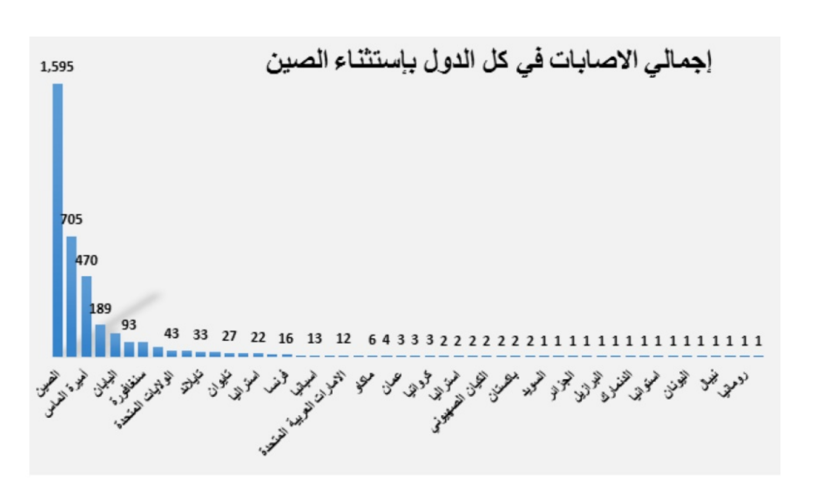
هناك 8 دول عربية سجلت فيها حالات إصابة بالفيروس. الكويت (43)، البحرين (33)، الإمارات (13)، العراق (6)، عمان (4)، لبنان (2)، الجزائر (1) ومصر (حالة واحدة تم شفاؤها).

الدول التي تسجل حالات إصابة جديدة بوتيرة متزايدة هي كوريا الجنوبية، إيطاليا، اليابان، والكويت.

أما إيران فقد سجلت اليوم حالتي إصابة جديدة، مقابل ثلاث وفيات، ليصبح إجمالي الوفيات في إيران (22)، مما يدفعنا للاعتقاد أن هناك الكثير من حالات الإصابة التي لم يتم الكشف عنها حتى الآن في إيران. وهذا الاعتقاد مبني على التالي: أولاً، في كل دول العالم نسبة الوفيات هي بين (2.5%) و(3%) من إجمالي الإصابات، بينما في إيران، وحسب الأرقام المعلنة، فإن هذه النسبة ترتفع إلى (17.7%).

ثانياً، أن معظم الإصابات في الدول العربية قادمة من إيران أو على احتكاك بأشخاص كانوا في إيران (باستثناء الجزائر والإمارات ومصر). طبعاً، نحن نتمنى أن لا يكون هناك أي إصابات إضافية وان تكون الأرقام المعلنة دقيقة، ولكن من تجربتنا في ووهان نعلم أن كشف وبالتالي عزل كل الحالات المصابة وتلك المشكوك فيها، هو أهم إجراء يجب اتخاذه من أجل السيطرة على الفيروس، وتدقيقنا بالأرقام نابع من هذا الحرص.

أخيراً، الحذر واجب، والجدية والصرامة بالإجراءات الحكومية أكثر من ضروري. في الصين حتى اليوم لامس إجمالي عدد الذين خرجوا من المستشفيات 41٪ من إجمالي الإصابات، وهذا يدعو إلى التفاؤل، لأن هذه الخبرات حتماً سيتم نقلها إلى باقي الدول، وبحسب وفد منظمة الصحة العالمية الذي زار الصين لتقييم الوضع، فإن جهود الصين، وتضحيات أهل ووهان (في العزل منذ 35 يوماً) ساهمت في منع إصابة مئات آلاف البشر بالفيروس. وأنا أعتقد أن الخبرات المكتسبة وكذلك الوقت الذي ربحته البشرية بسبب صمود الصين ومنعها انتشار الفيروس بشكل كبير خارج أراضيها على مدى شهرين ونصف الشهر، سيسمحان لنا بالصمود أكثر إلى أن يتم الانتهاء من إنتاج لقاح لهذا الفيروس.



مهى مجدداً

كانت مهى تعيش حالة من القلق الشديد، ولكن أسلوبها دائماً كان تناول الأمور بشكل مضحك: «دكتور.. أفكر أن أجري فحصاً للكورونا»! هكذا قررت مهى في اتصالها الهاتفي «تعييني» دكتوراً خبيراً في الأمراض المعدية. كانت تريد استشارتي، كمئات الأشخاص الذين كانوا يتصلون، دون مبالغة، يومياً من كل أنحاء البلاد الناطقة بالعربية.

أجبتها حاسماً «إياكِ! لا تقصدي أي مستشفى. فاحتمال الإصابة بالعدوى كبير جداً في المستشفيات».

في الثاني من آذار، أي بعد أكثر من أسبوعين على اكتشاف الحالات الأولى في إيطاليا، أرسلت مهى جدولاً يظهر أن عدد الإصابات في إيطاليا تخطى 1600 إصابة. قالت «على ما يبدو أكلنا الضرب هنا في إيطاليا بسبب استخفافنا بالإجراءات». قلت لها أن لا تفعل مثلهم فالخطأ الأول هو الخطأ الأخير.

كانت تلك نقطة التحول التي تؤدي إلى الانهيار. فعدم الالتزام بالعزل يؤدي إلى زيادة حالات الإصابة. ما يرفع الضغط على القطاع الطبي بشكل كبير، وبالتالي ينهار هذا القطاع وتخرج الأمور عن السيطرة خصوصاً إن بدأت تقع إصابات بين العاملين الطبيين. فعدم إرسال مساعدات طبية سريعة خصوصاً دعم الفرق الطبية، واستمرار الناس بممارسة حياتهم الطبيعية بحجة أن هذه حريتهم الشخصية، يؤدي إلى تفاقم الأوضاع. وهذا فعلاً ما حصل لإيطاليا. فالدول الأوروبية لم تمد يد العون لها، وحين وصلتها المساعدات من الصين وكوبا وروسيا، كان الوضع قد أصبح خارج السيطرة، وتسبب بعدد كبير من الوفيات. كان ذلك عكس ما جرى في ووهان التي تم دعمها مباشرة

من باقي المقاطعات الصينية بآلاف العاملين الطبيين بالإضافة إلى الالتزام الكامل بالعزل، وهذا كله جنّبها وضعاً كهذا.

عدم الالتزام الذي كان مشتركاً بين أهم الدول الغربية، لم يكن لأن الناس تريد الذهاب إلى العمل وإن لم تعمل لا تأكل، كما في بلادي مثلاً أو في بعض البلدان النامية. أي لكسب قوت اليوم الذي لا يتوافر إلّا بهذه الطريقة، بل كان نوعاً من الاعتداد «بالحرية الشخصية» والاستسلام لإغراء «التمرد على القوانين» لتكريس الذات نداً للسلطة. لكن إن كان الأفراد، حتى قلّة منهم تكفي أصلاً بفوضاها لانتشار الفيروس، فما بال السلطات المسؤولة أخلاقياً وأمام القانون عن صحة مواطنيها تتصرف هكذا؟ فقد كانت حكومات عدة، وخصوصاً في بريطانيا والولايات المتحدة، تدفع باتجاه عدم التزام الناس. وكان الهمّ الأساسي هو الحفاظ على دوران عجلة الاقتصاد ولو على حساب حياة الناس. لذا لم تتخذ إجراءات سريعة للحد من انتشار الفيروس، ولم يتم استغلال القدرات والإمكانات المادية والتكنولوجية لصده.

لم تسارع تلك الحكومات لإعلان الفحوصات مثلاً مجاناً، على العكس، كانت مدفوعة طوال شهر شباط/فبراير المنصرم، ما دفع الآلاف في الولايات المتحدة الأميركية مثلاً إلى عدم إجراء الكشف المبكر، وبالتالي ساعد على انتشار كارثي للفيروس هناك. أما في الاقتصاد؟ فبينما كان القطاع الصحي يعاني نقصاً كبيراً في التجهيزات نتيجة لعدم تولفر الدعم الحكومي، ضُخت تrليونات من الدولارات للحد من تراجع الأسواق المالية. فهذه الأسواق تعني المصالح الاقتصادية للقلّة الحاكمة، بينما ترك الناس لمصيرهم. ومن ثم عينوا لهم عدواً لإيهامهم أنه سبب ما حصل.

أما الجانب الآخر المدهش لأنانية وعنصرية هؤلاء الحكام، فقد ظهر باستهدافهم الفئة الأضعف من المجتمع في صدد التخفيف من خطورة الفيروس، أقصد فئة كبار السن، حيث جرى ترويج فكرة مفادها أن الفيروس يقتل كبار السن فقط! وكأن هؤلاء هم ضحايا «طبيعيون» سيموتون بكل حال وخسارتهم ليست بهذه الأهمية كونهم، وهذا مضمر في السياسات العنصرية الاقتصادية، عبئاً اقتصادياً من الممكن غضّ النظر عن موتهم بالفيروس!

فمثلاً قال رئيس وزراء بريطانيا اليميني، النسخة الإنكليزية عن دونالد ترامب، في سياق ترويجه لنظرية «مناعة القطيع» التي تراجع عنها بعد فوات الأوان، أنه على البريطانيين الاستعداد لتوديع الكثير من أحبائهم!

ولنشرح ما هي استراتيجية مناعة القطيع: باختصار هي السماح للفيروس بالانتشار، حتى يصاب ما بين 70 إلى 90 في المئة من السكان تقريباً، فمن كانت مناعته ضعيفة لأسباب مختلفة، يمت. ومن ينج يكتسب مناعة. إنها شريعة غاب في مجال الصحة العامة. ولكن إلى الآن لا يوجد دليل على أن من يصاب بالفيروس سيكتسب مناعة تجعله محصناً من الإصابة مرة ثانية، بالإضافة إلى ذلك، فإن سرعة انتشار الفيروس قد تؤدي إلى كوارث صحية قبل تشكل أي مناعة لدى المجتمع، وفي هذه الحالة سيكون الجميع معرضاً للوفاة، وليس فقط أصحاب المناعة الضعيفة، خصوصاً أن الأعداد الكبيرة من المصابين ستشكل ضغطاً كبيراً على القطاع الصحي.

هذا المنطق تحركه أفكار «مالتوسية» (نسبة إلى توماس مالتوس أحد أبرز اقتصاديي القرن السابع عشر) تقدس الاقتصاد وتعتبر أن الإنسان في خدمة الاقتصاد وليس العكس. كما تعتبر أن عوامل مثل الكثافة السكانية وكبار السن والمعوقين، هي عبء على النمو الاقتصادي، لذا من الأفضل التخلص منهم.

فالغرب بشكل عام، وخصوصاً بريطانيا مارغريت ثاتشر وأميركا دونالد ريغان، بدأ منذ سبعينات القرن الماضي بالتراجع عن سياسة «دولة الرعاية الاجتماعية». فهو، أي الغرب أو بشكل أدق، الأنظمة الحاكمة في الغرب، اضطر بعد الحرب العالمية الثانية للسير بها خوفاً من «شبح الشيوعية» الذي كان يحوّم فوقه. وهذا دفعهم حينذاك إلى عقد ما سمي «تسوية تاريخية» بين رأس المال والعمل. إلّا أن هذه التسوية انهارت منذ السبعينات، وبدأت التقديمات الاجتماعية تتراجع، وعادت الفوارق الطبقية لتكبر. أهملت القطاعات التي تؤمن الحد الأدنى من الحماية للمواطنين كقطاعي التعليم والصحة، وخصوصاً الأخير، وهو ما فضحته هذه الأزمة بشكل لم يسبق له مثيل.

كشفت أزمة كورونا المستجدّ عن تناقض كبير بين العقلية التي تحكم هذه الدول ومعطيات العلم. فعدم التزام الناس بالتعليمات قد يكون متوقعاً، لكن أن يدعو رئيس وزراء بريطانيا مواطنيه للاستمرار في المصافحة باليد والمعانقة، وذلك خلال مؤتمر صحافي، علني! فهذا تصرف مذهل بخفته! كان وكأنه يفتخر بكسر هذه القواعد، على الرغم من أن العلماء والأطباء كانوا قد حذروا من هذه الممارسات. فهذه الدول التي امتازت يوماً بالعلم والعلماء، أصبحت اليوم تصم آذانها عن المنطق العلمي، في ظروف صحية الكلمة الفصل فيها للعلم. على عكس ما حصل في الصين ودول شرق آسيا بشكل عام، حيث كان العلماء والخبراء والاختصاصيون هم من أداروا عملياً هذه الأزمة.

أما المثال الأكثر وضوحاً؟ فهو الرئيس الأميركي بدون منازع. حاكم تحول إلى مثال يومي على السياسي العنصري، الشعبوي، المزدري للعلم والعلماء وللحقائق حتى ولو كان في ذلك خراب بلاده! فساعة يقول إنها مجرد انفلونزا، وأخرى يقول إن الفيروس سيختفي مثل المعجزة، وثالثة «يتنبأ» بأن الفيروس سيموت عندما ترتفع حرارة الجو..الخ! نتيجة لهذه الشعوذات وتناقضها الكامل مع العلم والعقل، كان الأميركيون آخر من علم بدخول الفيروس بلادهم وانتشاره. كان ذلك بداية شهر آذار وربما قبله، لكن التسييس وعدم الاستماع للعلماء لم يكن قد سمح للأميركيين بمعرفة ما مدى انتشار الفيروس، فدخلوا نفق الأزمة المظلم الذي أفقد عشرات الآلاف حياتهم حتى تاريخ كتابة هذه السطور.

كان الكثير من الأصدقاء في أوروبا، وخصوصاً لندن، يتواصلون معي لنتحدث ونتناقش بما يحدث. معظمهم كان مذهولاً بسلوك الأوروبيين الذين كانوا، كما قالوا لي، مستمرين في حياتهم بشكل طبيعي!

لارا مثلاً، وهي صديقة لبنانية تعيش مع عائلتها في لندن أعربت عن صدمتها بما تراه. قالت «مدهشة اللامبالاة هنا، واضح أنهم لا يريدون الالتزام.. عندهم اقتناع بأنهم على حق دائماً! قال لهم رئيس الوزراء أن يكملوا حياتهم بشكل عادي، فوافقوا! وعندما تلفت نظرهم إلى ما تفعله الصين مثلاً أو بقية دول العالم، ينظرون إليك باستهزاء وكأنهم يملكون ما لا يملكه غيرهم من حلول!» ثم استطردت بالقول «هناك عائلة صينية لم ترسل ابنها، عكس بقية الأهالي، إلى المدرسة منذ ثلاثة أسابيع. فهذه العائلة لا تستطيع استيعاب كيف أن المدارس لم تقفل أبوابها حتى الآن». وأردفت «أظن أنه كان عليّ أن أفعل مثلهم، فحتى هنا الصينيون ملتزمون بالعزل وإجراءات الوقاية».

أحد أصدقائي يعيش في كندا أبدى الملاحظة نفسها، قال مستغرباً ومعجباً «يا رجل، منذ إقفال ووهان والعمال الصينيون عندنا بالشركة يأتون للعمل واضعين كمامة وكفوفاً ويلتزمون بمسافة مترين للتباعد مع الآخرين. ما هذا !»، أجبته، إنها ثقافة جمعية يا صديقي، يمارسوها أينما ذهبوا.

لا شيء مستحيلاً

داتا اليوم 3/3/2020

عدد الإصابات اليومي يستمر في التراجع. فبعد أن انخفض في كل الصين باستثناء ووهان، إلى ما دون 15 إصابة يومياً، ها هي مدينة ووهان تسجل أقل عدد إصابات يومي منذ أكثر من شهر ونصف الشهر (114 حالة).

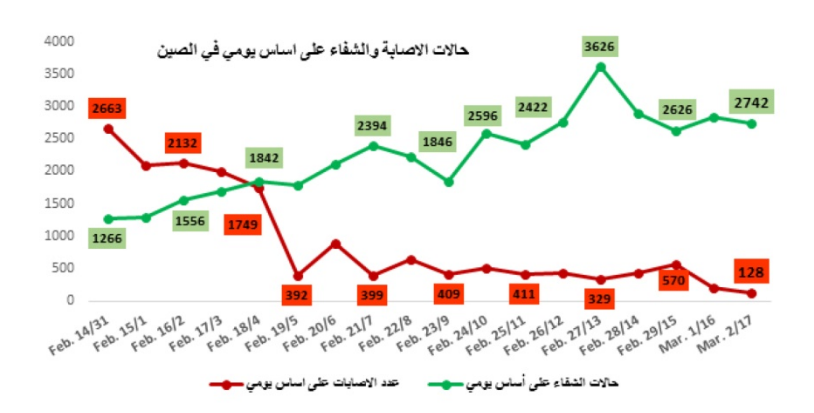
الرسم البياني يظهر عدد الإصابات اليومي في الصين (اللون الأحمر) والذي سجل اليوم 128 حالة إصابة جديدة، بينما كان يسجل منذ أسبوعين أكثر من 2000، ووصل في بعض الحالات إلى 15 ألف إصابة. في المقابل يظهر الخط باللون الأخضر عدد حالات الشفاء اليومية، وهذا العدد حافظ على معدل أعلى من 2500 حالة شفاء منذ حوالي الأسبوع، مما رفع نسبة حالات الشفاء إلى إجمالي عدد الإصابات لتصبح اليوم (59٪) من عدد المصابين.

أي إن (59٪) ممن أصيبوا بالفيروس تم شفاؤهم وخرجوا من المستشفى (إجمالي عدد الإصابات هو 80302، بينما إجمالي حالات الشفاء هو 47271. أما عدد الوفيات 2947، وبالتالي فإن عدد من بقي في المستشفى هو 30084 شخصاً).

هناك مؤشر لا يتم الإشارة إليه عادة، وهو عدد الإصابات المتوقعة. وهذا يدل على مدى انتشار الفيروس ومدى خطورة الوضع. فإذا كان هذا الرقم يسجل ارتفاعاً على أساس يومي، فهذا يعني أنه لم تتم السيطرة على الفيروس، وبالتالي انتشاره لا يزال مستمراً. هذا الرقم في الصين كان دائماً أعلى من حالات الإصابة الجديدة. ولكن منذ أسبوعين بدأ ينخفض بشكل كبير، ما يعني أن

الإجراءات المعتمدة تمكنت من عزل كل الحالات المصابة ومنعت احتكاكها بالآخرين. وبالتالي لم يعد هناك إمكانية لحصول إصابات جديدة. هذا المؤشر سجل اليوم 587 حالة مشتبهاً في إصابتها.

الاستنتاج: لا وسيلة حتى الآن للسيطرة على انتشار الفيروس سوى العزل التام للإصابات المؤكدة والمشتبه في إصابتها وكل من كان على احتكاك بها. الالتزام بالإجراءات وخصوصاً أساليب الوقاية. عدم التأخر بتنفيذ الإجراءات وإلا الأسوأ سيأتي. عدم الاستسلام للهلع بل الاستعداد للمواجهة.



إيه في أمل.. وحب أيضاً

كما أشرنا سابقاً، كان تسييس الفيروس هو العنوان الأساسي في لبنان خلال الأيام الأولى. فأحزاب السلطة (وجماهيرها) منقسمون منذ عقدين تقريباً بين محور يحابي أميركا وأوروبا وحلفاءهما، وبين محور يحابي إيران وسوريا وحلفائهما. لذا، انتشر على مواقع التواصل هاشتاغ «شكراً إيران»، وهو تعبير ساخر حمل مسؤولية وصول الفيروس إلى لبنان لإيران، لأن أول إصابة بالفيروس كانت لمسافرة على متن إحدى الطائرات الإيرانية التي وصلت إلى بيروت. وقد استخدمت هذه الحادثة بشكل كبير للحط من شأن مؤيدي إيران. وبما أنه كل شيء مطيّف في لبنان، فقد تحولت الحادثة إلى مناسبة للسخرية العنصرية من طائفة كاملة، لا بل أخذ الفيروس نفسه طابعاً طائفياً.

لكن، ما إن فتك الفيروس بإيطاليا وإسبانيا وأميركا، حتى تلقى مؤيدو المحور الغربي الرد بحملة ساخرة مضادة تهزأ بأنصاره بهاشتاغ «ماركة فيروسي فرنسية» مثلاً، في إشارة إلى إصابة إحدى الشخصيات المناصرة للمحور الغربي في باريس وعودتها إلى لبنان حيث تبينت إصابتها، أو هاشتاغ « فيروسي مايد إن إيتالي» أي «صنع في إيطاليا».

كانت تصرفات مؤسفة تنم عن عنصرية وتوتر اجتماعي تغذيها وسائل إعلام، لكن المهم بالنسبة لي كانت الوقائع الفعلية: فلبنانيون كثر يعيشون فعلاً في إيران وإيطاليا حيث بدأ الفيروس ينتشر بشكل سريع. لذا، وضعت نفسي بتصرف أي شخص يتكلم اللغة العربية في أي مكان، خصوصاً في هذين البلدين.

في ذلك الوقت، كانت الأمور في الصين تسير في اتجاه السيطرة الشاملة على الفيروس. لكننا كنا لا نزال في العزل، ويمنع منعاً باتاً الخروج من المنزل. لذا، حولت كل اهتمامي إلى نقل الإرشادات والمعلومات لمن يحتاج إليها، ومشاركة تجربتي من خلال الكتابة عنها يومياً لمتابعي صفحتي الذين أصبحوا كثيرين. أردت خصوصاً بث الأمل بأن السيطرة على الفيروس ممكنة، وليس كما يروج بعض الساسة الغربيين بهدف تغطية فشلهم أو تفضيلهم التأخر باتخاذ الإجراءات الضرورية لعدم تضرر الاقتصاد.

كنت أعتقد أن إمكانات بلادنا الضعيفة ستؤدي إلى تفشٍ كبير للفيروس. لذا، منذ تسجيل أول حالة دعوت لاتخاذ إجراءات صارمة. وعليّ أن أقرّ بأني فوجئت بدرجة تجاوب الناس. كانوا بحاجة إلى أدنى إرشاد أو توجيه موثوق به في خضم ما كان يبث من إشاعات، وما كان يخاض من نقاشات متضاربة بين علماء وشركات أدوية، وما يضخ من معلومات صحية معقدة عسيرة على الهضم عندما تتناولها على معدة خائفة. كان الناس فعلاً خائفين من الأسوأ. كنت أوازي بين التحذير من الفيروس، والحرص على عدم بث الهلع. ساعدتني التجربة التي اكتسبتها من تفاعلي مع عشرات الآلاف من متابعي خلال الأزمة في أن أكون سهل التناول وواثقاً ومستعداً لكل الأسئلة. لا بل بعض الفيديوهات التي قمت بنشرها عبر صفحتي أو صفحات أخرى حصلت على ملايين المشاهدات، وبعضها الآخر تم اعتماده كمادة إعلامية تبث من خلال قنوات لبنانية على مدار الساعة من أجل التوعية.

لحظة: هل قلت تواً ملايين؟ تنبهت فجأة إلى أن العدد الكبير من المقابلات التي أجرتها معي وسائل إعلام مختلفة حول العالم، وربما بسبب أسلوبي الذي كان يتعمد بث الأمل لا الخوف، حسب تعليقات مئات المتابعين، قد حولتني إلى ما لم أكن أتوقع حصوله: لقد أصبحت شخصية عامة في الفضاء الناطق باللغة العربية!

وكأي شخصية عامة، كان ما أقوله يتعرض للانتقاد تارة وللتأييد مرة أخرى، وكل لأسبابه. وبالتالي فالناس لم تكن تجمع على صحة ما أقوم به، خصوصاً في المرحلة الأولى حين قررت البقاء في ووهان. فحين تكون شخصية عامة ولو بمستوى متواضع مثلي وفي قضية محددة، يقارنك الناس من حيث لا يدرون بأنفسهم: منهم من يتمنى أن يكون معك، أو مكانك، ومنهم من يفكر بشكل لا واعٍ ربما، أن شجاعتي، أو مهما كانت صفة ما أقوم به، هي اتهام له هو بالجبن: فهو لم يكن ليفعل ما أقوم أنا بفعله أبداً.

هكذا، اعتقد كثيرون بداية أني ببقائي هنا في ووهان، أعرض نفسي للخطر لأجل.. الشهرة! لا بل إن بعضهم كان يذهب للقول بأنني مجبر من قبل السلطات الصينية على قول ما أقوله وإلى ما هنالك من الأفكار المضحكة. ما دفعني في العديد من المناسبات إلى التوضيح مراراً وتكراراً: إن وجودي في ووهان لا يشكل أي خطر على حياتي، بل على العكس تماماً: هذا هو التصرف الصحيح.

وبمرور الأيام أثبت أني كنت على حق في عدم مغادرتي إلى لبنان، أولاً حفاظاً على صحتي بالحجر المنزلي، وثانياً حفاظاً على صحة أهل بلدي، وتفادياً لنقل العدوى إليهم في حال كنت مصاباً. وثالثاً، تمكنت من نقل تجربة الصين في التصدي لهذا الفيروس المستجدّ، عبر تجربتي الميدانية والشخصية.

في البداية، لم أتوقع أن يكون لي دور حقيقي ومؤثر في هذه الحرب. لكن وجودي في قلب الحدث ونشاطي في التوعية ونقل الصورة الميدانية عبر فايسبوك (شكراً زوكربرغ ولو لمرة)، جعل عدد متابعي يرتفع بشكل يومي سريع، خصوصاً من اعتبروني ملجأهم الأول للاستفسار حول الفيروس ومصدراً للمعلومات الموثوق بها عنه. كنت أجيب يومياً، وبدون مبالغة، عن أكثر من ألف سؤال، إن كان حول العوارض أو طرائق الوقاية والعزل المنزلي، أو تعقيم المشتريات من الخارج، أو كيفية التصرف خارج المنزل أو عندما نعود إليه.

كنت سعيداً بالفعل، كأي جندي قام بواجبه. فمساهمتي المتواضعة ساعدت على الحفاظ على حياة الكثيرين. كنت أتواصل يومذاك مع أشخاص من لبنان، سوريا، الكويت، إيران، الإمارات، قطر، الجزائر، فرنسا، إيطاليا، تركيا، بريطانيا، الولايات المتحدة، تايلاند... الخ. خصوصاً من لبنان وإيران، حيث كنت أتابع على مدار الساعة، عائلات عزلت نفسها بشكل طوعي لشكّها بأنها كانت على احتكاك بمصابين.

في المقابل، لم يبخل هؤلاء الناس عليّ بالكلام الرائع، وكنت في بعض الأحيان أضحك وحدي بصوت عالٍ عندما أقرأ شكراً مؤثراً من أحدهم، لا بل إن دموعي كانت تنساب فرحاً على غفلة مني لقراءتي شكراً نابعاً من أعماق القلب، من أناس لا أعرفهم ولا أعرف خلفياتهم الدينية أو السياسية أو العرقية. رسائل التشجيع والحثّ على الاستمرار، كانت تلك ميداليتي كجندي نجح في مهمته.

أتمنى لو أنني أستطيع ان أنقل كل ذلك الحب هنا، أن أنقل كل الرسائل الرائعة، فقط كي أظهر أنه عندما نتصرف بأخلاق ومبادئ إنسانية نكسر كل الحدود وخصوصاً في بلادنا الحدود الدينية التي زرعها أرباب السياسة بيننا كي يفرقونا ومن ثم ينهبونا مجتمعين. بينما فعلياً، نحن همّنا واحد ومصيرنا واحد ومستقبلنا لن يكون إلّا كذلك.

وكعيّنة من هذه الرسائل التي احترت كثيراً أي منها سأختار، فهي فعلاً بحجم الحب الموجود في هذا الكون، ولا يمكن لهذه الصفحات ولا أضعاف أضعافها أن تتسع لها. رسالة مصطفى مثلاً، وهو رب عائلة، تواصل معي لأول مرة من مدينة قمّ، عندما كان يُعتقد أنها مركز تفشي فيروس كورونا في إيران. تبادلنا الخبرات والإرشادات والمعلومات. بعدها بأيام، فوجئت بتعليق له على فايسبوك يتحدث فيه عني. «آلاف الاتصالات والرسائل تنهال عليه لكنه أجابني دون تململ أو تأفف، وأوضح لي أدق التفاصيل. إذا دققت في لهجته قد تشك أنه ليس من طائفتك، لكن دقق في حديثه ستعرف أن طائفته هي المحبة، التسامح والإنسانية». وختم بقوله «من إيران شكراً على المعلومات القيمة، يا ليت الكل يتعلم منك معنى قيم الإنسانية».

أليس هذا وساماً؟

الرجل المريض

لطالما نظر إلينا المستعمر، نحن أبناء الدول المستعمرة، نظرة المتفوق حضارياً وعرقياً واقتصادياً وعلمياً. واخترع نظريات كانت من الأدوات المستخدمة لتبريره استعبادنا ونهب ثرواتنا. كان المستعمر البريطاني يكتب على مداخل الحدائق العامة في شنغهاي «لا يدخلها الكلاب والصينيون». وكان الاستعمار الفرنسي يجعل من مستعمراته مثل الجزائر، مختبراً للتجارب النووية. وفي الأزمة الحالية، طالب أطباء فرنسيون، وبشكل علني خلال إحدى المقابلات المتلفزة، أن «يتم اختبار اللقاحات على الدول الإفريقية كما كان يحدث سابقاً!» الأمر الذي أحدث فضيحة مدوّية في فرنسا والعالم.

هذا المستعمر، سابقاً أو حالياً، يطبق تعاليه على أي «ضعيف» إن كان هذا الضعيف شعباً يستعمره بشكل مباشر، أو غير مباشر عبر نهب خيراته بالواسطة، أو حتى إن كان هذا الضعيف في بلاد المستعمر شخصياً، من خلال التمييز والعنصرية والاستغلال. وما تفكير رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون تجاه الكبار في السن من البريطانيين، وقبول «بديهية» موتهم المحتمل بالفيروس، إلّا غيضاً من فيض. هكذا، يصبح متوقعاً أن تكون الضحية المثالية في المجتمع الأميركي من الملوّنين أو الأجانب، الذين عانوا قروناً من التمييز والعنصرية، إضافة طبعاً إلى الضعفاء من البيض.

من يعرف تاريخ الصين، يعلم أنه مرّ بمرحلة مفصلية طبعت تطوره، هي ما كان يطلق عليها اسم مرحلة «حرب الأفيون». كان ذلك أواسط القرن التاسع عشر، وقد أدت إلى تراجع كبير في الدور الاقتصادي للصين بعد أن كان ميزانها التجاري يسجل فائضاً كبيراً مع كل باقي الدول. فلعقود طويلة كانت الصين تُعتبَر واحداً من أهم الاقتصادات على المستوى العالمي (حسب المؤرخ

الاقتصادي ماديسون (Maddison Angus)، سيطرت الصين على المشهد الاقتصادي العالمي مئات السنين، حيث شكّلت ثلث الناتج المحلي الإجمالي العالمي ما قبل عام 1700). إلّا أنّ ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، وإعلانها موت العالم القديم، وبالتالي موت النظام الذي حكم هذا العالم القديم أي النظام الاقطاعي، حرم الصين هذا الموقع المتقدّم عالميّاً وأنتج تفوّقاً كبير لدول الثورة الصناعية على مستوى الإنتاج الصناعي والعسكري. ومن بعدها بدأت تلك الدول وخاصّة بريطانيا، بالبحث عن أسواقٍ ومستعمراتٍ جديدة لتصريف فائض إنتاجها، فبدأت الحروب تُشنّ في أكثر من بقعة في العالم، وكان نصيبُ الصين ما يعرف بحرب الأفيون.

في حالة الصين، وبعد محاولات عديدة من أجل ردم الفجوة في الميزان التجاري بين بريطانيا العظمى والصين والذي كان يميل بشكل كبير لمصلحة الأخيرة، فالصين كانت تصدر الكثير ولكن لم تكن تستورد شيئا تقريباً، قام الاستعمار البريطاني بالإيعاز لشركة الهند الشرقية التي كانت قد استعمرت الهند، بزراعة الأفيون على نطاق واسع لتصديره إلى الصين، حيث لم يكن يجد التجار البريطانيون ما يبيعونه للصينيين، بالمقابل كانو يشترون الكثير من السلع الصينية التي يدفعون مقابلها الفضة، ونتيجة لذلك خرجت كميات كبيرة من الفضة من بريطانيا. لذا، ومن أجل إيقاف هذا النزف بالفضة، بدأ التجار البريطانيين والأميركيين بتهريب الأفيون إلى جنوب الصين والحصول مقابله على هذا المعدن. وبعد أن كان يتم تهريبه عبر التجار، بدأ الاستعمار بالضغط على الامبراطور الصيني «شيان لونغ» من أسرة «تشينغ» من أجل تشريع بيع الأفيون.

كان الإمبراطور قد رفض سابقاً ولمرات عدة استيراد وتشريع بيع الأفيون في بلاده، لما لذلك من نتائج سلبية كبيرة اقتصادياً واجتماعياً. إلّا أنه، وبعد شن حرب الأفيون الأولى (1840 - 1842) والثانية (1856 - 1860) والتي دخلت خلالها الجيوش الغربية إلى بكين، قام بالتوقيع على معاهدة نانجينغ سنة 1842 وتيانجين سنة 1858، اللتين افتتحتا ما يسمى بـ«قرن الإذلال» حيث أصبح للاستعمار الغربي بشكل عام والبريطاني بشكل خاص الحق في التدخل بشكل سافر في كل مفاصل الحياة الاقتصادية في الصين بما يخدم مصالح الغرب، كما أنه خلال هذه الحروب تم احتلال العديد من المقاطعات الصينية ومنها هونغ كونغ التي لم يستعدها الصينيون حتى سنة 1997. وواحدة من النتائج المدمرة لهذه الحروب، تشريع استيراد الأفيون الذي أدى إلى انتشار هذا المخدر الفتاك بشكل كبير بين الصينيين، وبالتالي أضعف القدرات الاقتصادية لهذا البلد. وخلال بضع سنوات، كان قد تم تقسيم الصين بين عدة دول استعمارية منها بريطانيا وفرنسا وروسيا، وأضيف

لها لاحقاً اليابان، بالإضافة إلى تشجيع الاقتتال الداخلي بين الصينيين، حيث تقسمت الصين وأصبحت دويلات متقاتلة متناحرة.

يومذاك، أطلق الاستعمار على الصين لقب «رجل آسيا المريض». طبعاً كان مريضاً.. بجهودهم. فبعد أن تسبب بتدمير النسيج الاجتماعي والقدرات الاقتصادية لهذا البلد من أجل السيطرة عليه، قام بوصمه بهذه الصفة تحطيماً لمعنويات سكانه.

حسناً. كان ذلك في القرن التاسع عشر. ولكن هل تخلص الغرب اليوم من سلوكه الإجرامي هذا؟ أبداً. ففي 3 شباط/فبراير 2020، وخلال تصدي الصين بكل ما تملكه من قوة لفيروس كورونا الجديد، كتبت مجلة «وول ستريت جورنل» الأميركية مقالاً بالعنوان العنصري التالي: «الصين هي فعلاً رجل آسيا المريض!».

استفزني كثيراً هذا العنوان، خصوصاً أنه جاء ليدعم الحملة العنصرية ضد الصينيين والآسيويين في العالم كله. فقد تعرض مئات الصينيين لاعتداءات جسدية في العديد من مناطق العالم. والأمر نفسه حصل مع طلاب ومقيمين من بلدان آسيوية أخرى. أذكر تماماً صورة طالب من سنغافورة تعرض للضرب المبرح في لندن، وفيديو من فرنسا لامرأة تعتدي على فتاة آسيوية في مترو الأنفاق وهي توجه لها عبارات عنصرية وسط ذهول المواطنين مما يشاهدونه.

صدقوني، لا «مريض» على هذه الأرض إلّا الرجل (النظام)العنصري. رجل لا يزال يعيش في زمن الاستعمار البائد، ويمارس سلوك الاستعلاء والتمييز العرقي والاستغلال الطبقي. هذا هو الرجل المريض في عصرنا وفي كل عصر. لا بل إنه مرض وفيروس كل الأزمنة الخطير.

ووهان: الثقة بالنصر
داتا اليوم 7/3/2020

بعد أكثر من شهر ونصف الشهر، ولأول مرة، سجل عدد الإصابات اليومي في مدينة ووهان أربعاً وسبعين إصابة أي أقل من 100 إصابة .

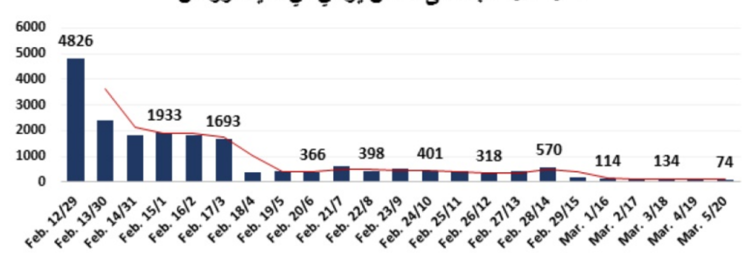
كيف تمكنت الصين من السيطرة على الفيروس في هذه المدينة التي تفشى فيها الفيروس بشكل كبير؟

الجواب: التخطيط، العلم، الالتزام، وتوظيف كل إمكانات الدولة في خدمة الشعب.

وهذا يعني أن السيطرة على الفيروس أمر ممكن. ولكن علينا التصرف بمسؤولية وجدية وأن نتعلم من تجارب الآخرين وخصوصاً الصين.

ملاحظة: هل ووهان هي مصدر الفيروس؟

اليوم في الصين هناك كلام جدي عن أنه من الممكن أن لا تكون ووهان هي مصدر الفيروس. فكونها المكان الأول الذي اكتشف فيه الفيروس، لا يعني بالضرورة أنها المصدر. سنتحدث بشكل مفصل عن هذا الأمر لاحقاً، فقط ننتظر المزيد من الأبحاث والمعطيات. وطبعاً بعيداً عن النظريات القائمة على الإشاعات والتضليل.



حالات الاصابة على أساس يومي في مدينة ووهان
6000
5000
4000
3000
2000
1000
0
4826
1933
1693
366
398
401
318
570
114
134
74
Feb. 12/29
Feb. 13/30
Feb. 14/31
Feb. 15/1
Feb. 16/2
Feb. 17/3
Feb. 18/4
Feb. 19/5
Feb. 20/6
Feb. 21/7
Feb. 22/8
Feb. 23/9
Feb. 24/10
Feb. 25/11
Feb. 26/12
Feb. 27/13
Feb. 28/14
Feb. 29/15
Mar. 1/16
Mar. 2/17
Mar. 3/18
Mar. 4/19
Mar. 5/20

«الفيروس الصيني»

تعلمنا دروس التاريخ أن الرأسمالية تتحول إلى الفاشية عندما تتعمق أزماتها، وبالتالي تلجأ إلى خطاب العنصرية والكراهية لتبرير عدم قدرة قادتها على حل تلك الأزمات. لا بل تلجأ إلى العنف أي الحروب، وهذا تحديداً ما حصل عشية الحرب العالمية الثانية: كساد سمي بالعظيم، إفلاس للأسواق، انهيار لاقتصادات أهم الدول. أنتج كل ذلك ظهور الفاشيات في إيطاليا وألمانيا وإسبانيا، وبالتالي تم جرّ البشرية نحو حرب عالمية أدت إلى ما أدت اليه.

في هذه المرحلة من التاريخ، وأعني منذ العام 2000 وحتى اليوم، الرأسمالية تمر في أزمة حقيقية، أطلق عليها الراحل سمير أمين صفة «مرحلة الشيخوخة»، وهي المرحلة التي تعجز خلالها الرأسمالية التي تتميز بصيغتها الإمبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة، عن حل أزماتها. فحتى الأزمات الدورية تتحول إلى أزمة تهدد النظام الرأسمالي كله. لذا، وخلال مرحلة كهذه، لا يعود للغة العقل والعلم مكان في الخطاب الإمبريالي. فكل كلام علمي سيؤدي حكماً إلى استنتاج أنه علينا تغيير المنظومة التي تحكم العالم. لذا نرى ان قادة الإمبريالية يلجأون إلى وسائل اقتصادية مناقضة تماماً للمنطق الرأسمالي نفسه.

إن من يدير هذا النموذج العالمي الآحادي يلجأ دائماً إلى أدوات البلطجة والعدوان من أجل استدامة تسلطه. فهو يصارع من أجل البقاء على الرغم من أن التاريخ حكم عليه بالموت. هكذا تراه يستخدم أدوات مثل الحرب التجارية، التي هي نسخة معدّلة عن «حرب الأفيون». فبدل فرض الأفيون من أجل ضرب القدرات الاقتصادية للصين، وتعديل فائض الميزان التجاري الذي يميل بشكل كبير لمصلحتها، كان يتم فرض عقوبات اقتصادية ومحاولة لإيقاف التطور التكنولوجي الذي

تعمل عليه الصين. بدا ذلك خصوصاً في حرب الأميركيين ضد شركة الاتصالات «هواوي» وتقنياتها الفائقة التطور للجيل الخامس.

في ظل هذا الواقع أتت أزمة فيروس كورونا، وكشفت كما قلنا سابقاً التناقض الكبير بين النهج الحاكم في الدول المتقدمة وخصوصاً الولايات المتحدة والعلم. ومن لا يلجأ إلى العلم في مثل أزمات كهذه سيكون مصيره الفشل حكماً. وهذا ما يجري حالياً في الولايات المتحدة. فقد كانت استراتيجيتهم تعتمد على خطين: أولاً الاستغلال السياسي والاقتصادي لانتشار الفيروس في الصين، وبعد ذلك، عندما بدأ انتشار الفيروس في الولايات المتحدة، تحميل الصين مسؤولية وجود هذا الفيروس.

كل ذلك كان يحدث في إطار بلطجة حقيقية لا تمت إلى المنطق والعلم وعلاقات الاحترام بين الدول بصلة. لم يقل الساسة الأميركيون لأنفسهم: ماذا فعلت سياساتنا الصحية بمواطنينا؟ على العكس، استخدموا أيديولوجيا «الرجل المريض» والاستعلاء العنصري على نطاق واسع. كالقول مثلاً: هل يعقل أن الصين سيطرت على الفيروس ونحن لا؟ هل يعقل أن عدد الوفيات لديهم أقل من عندنا؟

كل هذه الأسئلة كانت مرتبطة بهذه الخلفية الأيديولوجية، فبالنسبة إلى هؤلاء الساسة، ما يعجزون هم عن فعله، من المؤكد لن نتمكن نحن من القيام به، إنها النظرة الفوقية التي ينظرها إلينا «الرجل المريض».

منذ بداية انتشار الفيروس، بدأ الاستغلال السياسي له، خصوصاً من قبل من يعرفون «بصقور» الإدارة الأميركية. مع أني لا أعتقد أنه في تلك الإدارات صقور وحمائم، فجميعهم أمام تهديد مصالحهم يتحولون إلى صقور شرسة، حيث ترتبط مصالحهم ببقاء الهيمنة الأميركية على العالم. هذه الهيمنة التي يعتقدون أنها مهددة من قبل قوة صاعدة، هي الصين طبعاً، تطرح نظاماً عالمياً بديلاً. نظاماً قائماً على المنفعة المشتركة بدل التسلط والعدوانية الأميركية السائدة اليوم.

وما العنوان الذي استخدمته «وول ستريت جورنال» إلّا ترجمة لهذا المنطق الذي يستخدمه الساسة الأميركيون، خصوصاً وزير الخارجية مايك بومبيو، الذي لم يتورع عن الاعتراف بأنه غش وسرق وكذب وقتل خلال توليه مركز مدير المخابرت المركزية.

حاول بومبيو، بما يمثله، الاستفادة من الأزمة التي وقعت فيها الصين منذ البداية. كانت واحداً من تلك الأساليب محاولته تشويه صورة الصين أمام العالم من خلال وصف الفيروس بداية بأنه «فيروس ووهان». ثم حاول فرض هذا التوصيف على بيان قادة الدول الصناعية السبع، بكل ما يحمله هذا التوصيف من عنصرية. إلّا أن قادة تلك الدول رفضوا هذه اللعبة الخبيثة.

بعد أسابيع من الاستفزاز العلني والتحريض الذي أثار غضب الطرف الصيني، إضافة إلى منظمة الصحة العالمية والأوساط العلمية، بدأ الرئيس الأميركي دونالد ترامب باستخدام مصطلح «الفيروس الصيني». وحينما سئل لماذا تطلق عليه هذا التوصيف العنصري أجاب «لأنه قادم من الصين، فإذاً هو فيروس صيني».

قامت جهات علمية عديدة ومنها مجلة «نايتشر» Nature بالرد على هذا التوصيف اللاعلمي والعنصري والمخالف للقوانين والمعاهدات الدولية. وكذلك قال مايك رايان المدير التنفيذي لبرنامج الطوارئ الصحية بمنظمة الصحة العالمية أن «المنظمة كانت واضحة مذ بداية تفشي المرض: فالفيروسات لا تعرف حدوداً ولا تهتم بعرقك أو لون بشرتك أو كم من المال لديك في البنك. من المهم حقاً أن نكون حذرين في اللغة التي نستخدمها» قال الرجل وأضاف «نشأ وباء الأنفلونزا في عام 2009 في أميركا الشمالية، ولا نسميها أنفلونزا أميركا الشمالية، لذا من المهم جداً أن يكون لدينا النهج نفسه عندما يتعلق الأمر بالفيروسات الأخرى».

موقف المنظمة كان يعبر عن التزامها بالمبادئ التوجيهية التي كانت قد أصدرتها سنة 2015 والتي تدعو إلى وقف ربط الأمراض الفيروسية بالمناطق أو المواقع التي يحدث فيها التفشي للحد من وصمة العار والآثار السلبية، وهو ما كان يرمي إليه ترامب بشكل فظ.

يوماً بعد يوم كان هذا التحريض يتعاظم. فأمام كل تقدم تحققه الصين في عملية السيطرة على الفيروس، كنا نشهد انتشاراً لإشاعة جديدة تحاول ضرب هذا الإنجاز.

كنت متيقناً منذ البداية أن التضليل والتحريض الذي ركز على ما يأكله الصينيون لم يكن بريئاً. وكانت الأيام تثبت لي أني كنت على حق.

على سبيل المثال، في مطلع شهر آذار، وبعد أن كانت النتائج القادمة من الصين مشجعة، وجرى التحقق أن السيطرة على الفيروس ممكنة، عكس كل ما كان يبث لتبرير عدم القيام بأي

إجراءات في الغرب، انتشرت أخبار على مواقع التواصل تتحدث عن ظهور فيروس جديد في الصين تسبب به «أكل الصينيين للجرذان». وتم تداول هذا الخبر على نطاق واسع، وبما أنني أصبحت «متخصصاً في قضايا الصين»، لم أسلم من مئات الأسئلة حول هذا الأمر.

بعد بحث بسيط، وجدت أن ما يتم الحديث عنه هو فيروس موجود منذ عشرات السنوات يسمى متلازمة «هانتا فيروس» (Hantavirus)، وهو يأتي نتيجة الاحتكاك بالقوارض ولا ينتقل من الإنسان إلى الإنسان، وتم اكتشاف هذا الفيروس وتشخيص الإصابة به للمرَّة الأولى في جنوب غربي الولايات المتحدة في عام 1993. واعتباراً من عام 2013، حدثت حوالى 637 حالة في الولايات المتحدة، معظمها في الولايات الغربية. كما حدثت حالاتٌ في الكثير من بلدان أميركا الوسطى والجنوبية. بالإضافة إلى ذلك، مئات الناس تصاب به سنوياً في كل دول العالم، لا بل هناك علاج ولقاح لهذا الفيروس لذا هو لا يشكل خطراً أبداً.

كان فحوى الحملة عنصرياً شرساً. وكانت التعليقات من نوع «فليقل أحدهم للصينيين إن هناك شيئاً اسمه بقرة وآخر اسمه خروف .. لا ضرورة لأكل الجرذان إلّا إذا كانوا يريدون القضاء على البشرية». وغيرها من التعليقات التي كانت العنصرية الرخيصة تفوح منها، من حيث يدري أو لا يدري مطلقوها.

هذه المقولات زرعت في رأس الناس مسؤولية الصينيين عن الفيروس بسبب نظامهم الغذائي، وكان من شبه المستحيل سلخها من وعيهم أو لا وعيهم. لا بل أصبح الصينيون مسؤولين عن انتشار كل أنواع الفيروسات في العالم، وكأن كل وباء انتشر سابقاً كان مصدره الصين، وعلى الرغم أن لغة العقل والعلم تقول إن ذلك غير صحيح، فتاريخ الفيروسات في العالم وهو في الحقيقة تاريخ البشر البيولوجي، يؤكد أن الفيروسات كانت تظهر في كل الأماكن دون الاكتراث لعرق أو شعب أو دولة، عندما تتشكل ظروف طبيعية مؤاتية لظهور الفيروس سيظهر.

يومذاك، كتبت على صفحتي على فيسبوك :

«من «طاعون جستنيان» سنة 541 م إلى «كوفيد-19»: لا للعنصرية.

سنة 2009 انتشر فيروس H1N1 أو ما نعرفه نحن العرب بـ«انفلونزا الخنازير». إلى اليوم لم يتم حسم النقاش بشأن مصدر الفيروس. فبعضهم يقول إن المصدر هو المكسيك بينما يعتقد آخرون أنه الولايات المتحدة. ولكن لماذا هذا الجدل؟

لنأخذ مثالاً آنياً. عندما انتشر فيروس كورونا الجديد (كوفيد 19) قلنا إنه إلى الآن لا نعرف المصدر. فعلى الرغم من أن اكتشاف الحالات المصابة حصل في ووهان - الصين إلّا أن ذلك لا يعني أبداً أن مصدر الفيروس هو الصين، طالما أننا لم نحدد الحالة صفر. هناك فرضيات عديدة منها أن الحالة صفر أتت من الولايات المتحدة، وفرضيات أخرى تقول إن الحالة صفرحصلت في أحد أسواق السمك في ووهان. لذا، وبالاستناد إلى المنطق العلمي نفسه، فإن مصدر H1N1 غير محدد إلى الآن على الرغم من أن الحالة الأولى اكتشفت في ولاية كاليفورنيا الأميركية.

ولكن، إذا اعتمدنا منطق تعاطي الإعلام والساسة الأميركيين مع فيروس كورونا، فعلينا أن نقول إن H1N1 هو فيروس أميركي أو «فيروس كاليفورنيا» وأن على أميركا أن تعتذر من العالم كما تطلب هي الآن إلى الصين أن تعتذر. وأيضاً علينا أن ننسج روايات حول ما يأكله الأميركيون. لماذا؟

بحسب منظمة الصحة العالمية، فإن وباء (جائحة) H1N1 انتشر في 214 دولة، وأدى إلى سقوط 284.500 ضحية، أما عدد الحالات المؤكدة فوصل إلى أكثر من مليار. وعلى الرغم من أن هذا الفيروس يعتبر ضعيفاً من حيث العدوى بالمقارنة بكورونا الجديد، إلّا أن معظم الدراسات تؤكد أن الولايات المتحدة لم تتخذ إجراءات كافية للحدّ من انتشاره على المستوى العالمي. ما سمح بأن ينتشر بشكل واسع.

هل سمع أحدكم بإغلاق مدن أو منع سفر إلى الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٩؟ أبداً. وبالتالي، وبالاستناد إلى الروايات الأميركية الحالية حول أن الصين تتحمل مسؤولية انتشار هذا الفيروس عالمياً (على الرغم من أن الصين أغلقت كل مقاطعاتها ومنعت انتشار الفيروس السريع العدوى لشهرين تقريباً) وتطلب من الصين الاعتذار، وتسمي هذا الفيروس بـ«الفيروس الصيني»، يصبح من الطبيعي أن نعامل الولايات المتحدة بالمثل ونعتبر أن ما ينطبق على كورونا الجديد ينطبق أيضاً علىH1N1 . هل علينا القيام بذلك؟

طبعاً لا. والأكيد أننا لم نقم بذلك حينذاك، ولم يقل أحد إن هذا فيروس أميركي، أو أن من يتحمل مسؤوليته هم المواطنون الأميركيون بسبب طعامهم وما إلى هنالك من تشويه يحصل اليوم بحق الصين. لا بل اتحد العالم حينذاك لمواجهة تلك الأزمة، وتمكن من السيطرة عليها بالرغم من أن الكلفة البشرية كانت كبيرة جداً.

حسناً. هل للفيروسات بلد أو عرق أو حتى دين؟

لقد قمت خلال اليومين الماضيين بمراجعة سريعة لتاريخ الفيروسات والأوبئة في العالم خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية (كل أنواع الجوائح إن كانت بسبب فيروس أو بكتيريا). والخلاصة الأساسية أن هذه الأوبئة الفتاكة كان مصدرها كل بقع الأرض تقريباً، فعلى سبيل المثال «الطاعون الأسود» الذي انتشر بين الأعوام 1347-1351 أدى إلى وفاة 200 مليون إنسان. أما الحمى الصفراء أواخر الـ1800 فأدت إلى وفاة حوالي 150 ألف إنسان في الولايات المتحدة. وبعد الحرب العالمية الأولى، أدت «الانفلونزا» (مع التحفظ على تسميتها بالإسبانية) إلى وفاة 50 مليون إنسان حول العالم. بينما فيروس «««MERS الذي ظهر في شبه الجزيرة العربية سنة 2012 وهو من عائلة كورونا، أدى إلى وفاة 858 شخصاً، وكان معدل وفياته مرتفعاً ولكن انتشاره بطيء. وكذلك فيروس «إيبولا» الذي ظهر في نسخته الأخيرة في أفريقيا الوسطى سنة 2014، أدى إلى وفاة ١١ ألف إنسان حيث أن معدل الوفيات الناتجة منه هو الأعلى، بينما انتشاره بطيء.

لذا، فإن الفيروسات موجودة بيننا وبالملايين، وهناك ظروف محددة تحولها إلى وباء، وقد يظهر هذا الوباء في أي مكان على هذا الكوكب، هذا ما يقوله تاريخ الجوائح. وبالتالي فإن إلصاق انتشار الفيروسات بشعب معين أو عرق أو دين، فهذا أمر غير علمي بالدرجة الأولى، ويعبر عن عنصرية تجاه تلك الشعوب.

إن تجارب البشرية مع أزمات كهذه تقول إننا بحاجة إلى التعاون والتضامن من أجل الانتصار، وفي أزمتنا الحالية، لا مفر من هذا التعاون، فحتى ترامب الذي كان يتنمر ويتعاطى بعنصرية، ها هو يطلب مساعدة الصين، وهي بدورها لن تتأخر عن المساعدة لا بل عليها القيام بذلك من منطلق إنساني، ولا يمكن إلّا أن تكون إلى جانب شعب الولايات المتحدة الذي يعاني ظروفاً صعبة خصوصاً وأن نظامه يقدس المال وليس الإنسان.

إن النصر على هذا الفيروس لن يكون بالبعيد، والطريق نحو ذلك لا يمكن سلوكها إلّا بالالتزام والتضامن والتضحية.»

«أمي مريضة»

أرسل لي صديق مقطع فيديو لأحد الطلاب الصينيين الذين يعيشون في لبنان. كان الشاب طالب لغة عربية في الجامعة اللبنانية، وقد وصل إلى البلاد قبل ظهور الفيروس بستة أشهر حسب ما قال في الفيديو. أي إنه لم يكن على احتكاك بأي مكان يوجد فيه الفيروس المستجد.

يتحدث الشاب في الفيديو بلغة عربية فصحى سليمة. يقول إنه، ومنذ بدء تداول الأخبار عن ظهور فيروس كورونا المستجد في الصين، يعاني تنمر بعض اللبنانيين وممارسات عنصرية. ويضيف أمير (بالطبع هذا ليس اسمه الحقيقي بل اسم اعتمده تسهيلاً للتواصل) «جئت إلى لبنان قبل نصف سنة، وكنت سعيداً جداً، خصوصاً في هذه البلدة الجميلة التي أعيش فيها واسمها شحيم. ولكن، منذ شهر تقريباً، أنا حزين جداً، وذلك بسبب فيروس كورونا». ويتابع الشاب الصيني وقد بدا عليه التأثر الشديد: «عندما أمشي في الشوارع، إن كان في بيروت، أو صيدا أو حتى شحيم، دائماً هناك أشخاص يعربون عن خوفهم مني، أو يتجنبونني، أو حتى يشتمونني بمناداتي باسم: كورونا. أنا أتفهم خوفكم من الفيروس، ولكني لا أستطيع أن أتحمل الشتائم، ما الفائدة إن شتمتني؟ الجواب: لا فائدة، فقط هذا يدل على أنك إنسان من دون ضمير ومن دون إنسانية».

انتابني الغضب وأنا أتابع كلامه متخيلاً أن يحدث معي الموقف نفسه هنا أو في أي بلد آخر في العالم. فأكثر ما أعجبني بالشعب الصيني أنهم ليسوا عنصريين، وهذا ما شجعني على البقاء كل هذه الفترة هنا. عكس الكثير من البلدان، التي يتعرض فيها الملونون والعرب والمسلمون أو أتباع الثقافات الأخرى بشكل عام لعنصرية بيّنة.

يتابع أمير كلامه في مقطع الفيديو الذي كان قد نشره على صفحته على الفايسبوك «يشتمون الصين ثم يقولون إنهم يمزحون معي. سؤالي لكم، إن كانت أمك مريضة، هل تقبل أن أمزح معها أو أشتمها؟ الصين بالنسبة لنا نحن الصينيين هي أمّنا، وهي الآن مريضة، ونتمنى لها الشفاء العاجل. الآن بعض الصينيين يعانون الفيروس داخل الصين، وبعض الصينيين يعانون الشتائم والعنف خارج الصين، هذا شيء مؤلم جداً جداً. أخيراً، أتمنى لكم جميعاً الصحة والعافية».

قمت بمشاركة هذا الفيديو على صفحتي، وكان تفاعل الناس الرافض لما حصل مع أمير رائعاً فعلاً، خصوصاً احترامهم الشديد لانتمائه الوطني، ووقوفه إلى جانب أهله وشعبه بالرغم من أنه موجود على بعد آلاف الكيلومترات. شارك المتابعون الفيديو مئات المرات، وسريعاً أصبح أمير حديث الناس والشاشات في لبنان. هكذا، اتصلت بي العديد من القنوات والصحف لمقابلته، معتقدين أني أعرفه أو أن هناك اتصالاً بيني وبينه، وهذا غير صحيح.

أهلي أيضاً تأثروا كثيراً بفيديو الفتى الصيني. اتصلت بي أختي حنان وقالت، «انظر أخي، بما أن الشاب يقطن شحيم وهي قريبة من بلدتنا برجا، فنحن نريد دعوته إلى غداء عائلي في منزلنا، ما رأيك؟».

أعجبتني الفكرة جداً. أثنيت عليها وقلت لها إني سأحاول التواصل معه. هكذا، أرسلت له عبر الفيسبوك قائلاً: «مرحبا أمير، أنا أدهم السيد، طالب لبناني موجود حالياً في ووهان. أنا من بلدة برجا بالقرب من بلدة شحيم التي تعيش فيها أنت الآن، إن احتجت إلى أي شيء رجاء أخبرني. لدي الكثير من الأصدقاء في شحيم، وأيضاً من الممكن أن أرسل إليك مساعدة من برجا».

أجابني أمير «مرحباً بك، انتبه إلى نفسك في ووهان. شكراً لك، أنا أعيش عند صديق لي وهو يساعدني كثيراً».

قلت له «أهلي يريدون دعوتك اليوم إلى الغداء. مارأيك؟». شكرني أمير، وأخبرني أنه كان مدعواً تلك الليلة إلى مكان آخر. وسأل «أهو ممكن في يوم آخر؟». اتفقنا على اليوم التالي على أن تذهب أختي وأخي ليصطحباه من شحيم إلى برجا.

في اليوم التالي، أرسل لي أهلي صورة من غداء العائلة مع أمير. كانت صورة رائعة. شاركت هذه الصورة عبر الفيسبوك، وكتبت معها كلاماً لأهلي يقولون فيه لضيفهم المميز:

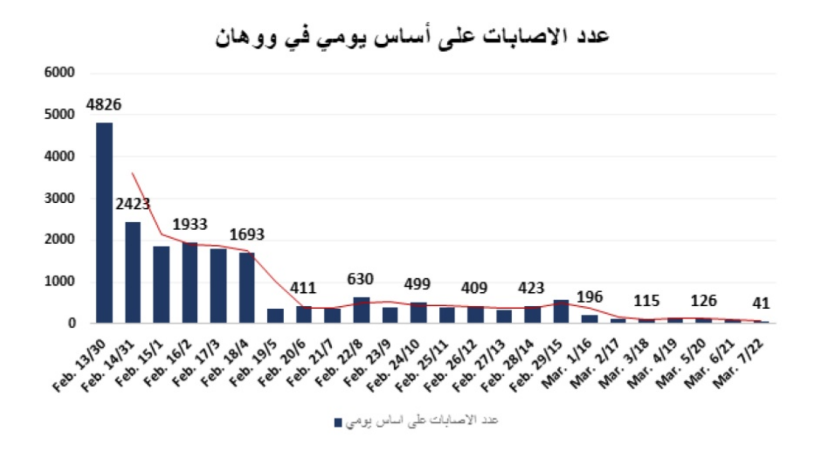
«ابننا أدهم طالب لبناني عندكم في ووهان، والصينيون اعتبروه ابناً لهم. وأنت طالب صيني في لبنان، ونحن نعتبرك مثل ابننا تماماً».

لأول مرة تحت الخمسين حالة

داتا اليوم 7/3/2020

46 حالة إصابة جديدة فقط في كل الصين، ومن ضمنها 41 في مدينة ووهان. بدأت عملية إقفال بعض المستشفيات الميدانية المتخصصة بعلاج وعزل الإصابات. حيث أن عدد الذين لايزالون في المستشفى فقط 19 ألفاً، بينما تم تجهيز أكثر من 40 ألف سرير خلال الشهر الماضي للسيطرة على الفيروس (في ووهان). والآن لم نعد بحاجة إلى نصف هذا العدد. خصوصاً وأن عدد حالات الشفاء اليومي لايزال يسجل 2000 حالة كمعدل وسطي. وإذا استمر الوضع هكذا، ستغلق كل المستشفيات الميدانية في ووهان خلال أسبوع.

الجميل في الأمر، أن الإجراءات المشددة لم تتغير، ولم يتسرع أي مسؤول للقول إننا انتصرنا على الفيروس. ألا يستحق شعب كهذا وقيادة كهذه الثقة والاحترام؟ بلى يستحقان.



البطولة العسكرية

صباح الثالث عشر من آذار، أرسلت لي مي فيديو يتحدث عن تغريدة كتبها «ليجان زا هو» نائب رئيس إدارة المعلومات بوزارة الخارجية الصينية. وأرفقت الفيديو برسالة تقول فيها، «يبدو أننا كنا على حق منذ البداية، فها هو «ليجيان» يتهم الجيش الأميركي أنه أدخل الفيروس إلى ووهان».

كانت الحملة التشويهية للصين من قبل الساسة الأميركيين قد وصلت إلى حدود استفزازية قصوى، خصوصاً تلك التي قادها وزير خارجية أميركا مايك بومبيو، وعلى الرغم من محافظة السلطات الرسمية الصينية على خطاب دبلوماسي متوازن، وهو بالمناسبة يستفزني جداً، إلّا أن تصريحاً واحداً من هذا المسؤول كان كافياً لإعادة خلط كل الأوراق.

قرأت التغريدة وكانت فعلاً واضحة ومباشرة ولا تترك مجالاً للتأويل، يقول موجهاً كلامه لمراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها (CDC) في الولايات المتحدة الأميركية: «متى أصيب المريض الأول في أميركا؟ كم هو عدد الأشخاص المصابين بالفيروس؟ ما هي أسماء المستشفيات التي تعتني بهم؟ من الممكن أن يكون الجيش الأميركي هو من جاء بالوباء إلى ووهان. كونوا شفافين، أعلنوا بياناتكم للعامة! الولايات المتحدة تدين لنا بتفسير».

ولكن هذا التصريح، الذي كان يغمز من طرف مسؤولية محتملة للجيش الأميركي في نقل الإصابة إلى ووهان خلال اشتراكه في دورة الألعاب العسكرية العالمية التي جرت في المدنية، لم يكن تصريحاً رسمياً حسب الأعراف الصينية. بل كان يعبر عن رأي شخصي لهذا المسؤول، حيث أنه كتبه على صفحته الخصوصاً على تويتر، أما التصريح الرسمي بحسب تلك الأعراف فيكون من

خلال مؤتمر صحافي رسمي. وفي اليوم التالي، وعند سؤال المتحدث باسم وزارة الخارجية خلال مؤتمر صحافي عن هذا التصريح قال وهو يردد الموقف الرسمي الصيني منذ اليوم الأول وحتى اليوم، والذي يعتبر أن هذه المسألة محض علمية «منشأ الفيروس يمكن تحديده فقط بالعلم، نحتاج إلى الاعتماد على وجهات النظر العلمية والمهنية، لا نأمل رؤية أي أحد يستخدم هذه المسألة لوصم دول أخرى».

سارعت إلى صفحتي على الفيسبوك، وكتبت تعليقاً حول هذا التصريح الذي كان قد بدأ ينتشر وتنتشر معه نظريات المؤامرة، نافياً أن يكون تلميحاً إلى عمل عسكري أميركي أو حرب بيولوجية بل هو مجرد إعادة طرح للسؤال حول مصدر الفيروس ولكن بطريقة سياسية تتناسب مع الهجمة الأميركية، فالآن على الطرف الأميركي مسؤولية الإجابة عن تلك الأسئلة. ولكن لا شك أن التصريح كان مفاجئاً لكل المتابعين، وما زاده غموضاً هو أنه لم يأت بعده أي توضيح حول تفاصيل هذا الافتراض. إلّا أنه كان واضحاً جداً من سياق التغريدة أنه يقصد دورة الألعاب العسكرية. وبالتالي كان من المؤكد أن هذا التصريح لا يتحدث عن «حرب بيولوجية»، بل عن عدم تشخيص دقيق للحالة المرضية التي كانت منتشرة في الولايات المتحدة، لذا فهو يفترض أن الفيروس كان منتشراً في الولايات المتحدة قبل انتشاره في الصين، ولكن دون علم السلطات هناك.

أما الدليل الذي استخدمته كي أؤكد على أنه لم يقصد «حرباً بيولوجية» بل عدم تشخيص دقيق للحالة المرضية في الولايات المتحدة، هو أن «ليجان زا هو» أرفق تغريدته بفيديو لروبرت ريدفيلد، مدير مركز مكافحة الأمراض والوقاية منها في الولايات المتحدة أثناء جلسة استماع في الكونغرس الأميركي في 11 آذار/مارس، وخلال إجابته عن سؤال حول ما إذا كان بعض مرضى الانفلونزا قد تم تشخيصهم بشكل خاطئ بينما هم مصابون بفيروس كورونا المستجد، قال الرجل إن بعض حالات الوفاة بكوفيد-19 كانت شخصت على أنها مرتبطة بالإنفلونزا في الولايات المتحدة. من ثم تمت إعادة طرح السؤال عليه منعاً لأي لغط بالصيغة التالية «إذن يمكن أن يموت بعض الناس في الولايات المتحدة بسبب ما يبدو أنه إنفلونزا في حين أنه قد يكون في الواقع فيروس كورونا؟»، وأجاب ريدفيلد حرفياً «بعض الحالات تم تشخيصها بالفعل بهذه الطريقة في الولايات المتحدة».

وإذا ما ربطنا هذا الأمر مع معلومات واردة في تقرير[8] سابق صادر عن (CDC) في أواخر شباط/فبراير، يتحدث عن أاه كان هناك ما لا يقل عن 32 مليون حالة مرضية بالإنفلونزا في الولايات المتحدة في موسم الإنفلونزا 2019-2020. فهذا الأمر يجعلنا نعيد طرح أسئلة ليجان مجدداً وبإلحاح أكبر، فهل كان هناك انتشار لفيروس كورونا في الولايات المتحدة، لكن السلطات لم تشخصه كفيروس جديد بل كإنفلونزا موسمية. لكن، ما يمكن تأكيده حتى الآن، هو أن التاريخ الرسمي المعلن عن أول إصابة (22 كانون الثاني/يناير) ووفيات (29 شباط/فبراير) بمرض كوفيد-19 في الولايات المتحدة غير صحيح. فمن المؤكد حالياً أن وفيات قد حصلت بداية شهر شباط/فبراير بحسب السلطات الصحية في مدينة نيويورك، وكذلك في مقاطعة «سانتا كلارا» بولاية كاليفورنيا. وفي تعليق على هذا الأمر قال جيفري في. سميث، المدير التنفيذي لمقاطعة سانتا كلارا «يبدو أن الفيروس كان ينتشر في منطقة خليج سان فرنسيسكو في كانون الثاني/يناير أقله، وربما في وقت أبكر». أما مايكل ملحم عمدة مدينة «بيلفيل» في ولاية نيوجرسي فيقول في فيديو إنه والكثير الكثير غيره كانوا مصابين بفيروس كورونا الجديد في تشرين الثاني/نوفمبر 2019 أي قبل شهر من اكتشاف أول حالة في ووهان.

تغريدة «ليجان» هذه، كانت الحجة المباشرة للرئيس الأميركي لاستخدامه المصطلح العنصري الذي كان يستخدمه ويروجه وزير خارجيته منذ اليوم الأول على إغلاق ووهان، أي «الفيروس الصيني» أو «فيروس ووهان». وكما مسرحيات الأطفال، بدأ ترامب يستخدم هذا المصطلح بشكل منفّر جداً، وتذكرون أنه عندما سئل عن سبب قوله بأنه فيروس صيني، أجاب «لأنه جاء من الصين». استمرت هذه المسرحية التي تفوح منها العنصرية الغبية إلى أن حصلت حملة عالمية كبيرة قادها الوسط العلمي أجبرته على التوقف عن استخدام هذا التعبير.

لنعد إلى سؤال ترامب: هل جاء الفيروس حقاً من الصين؟

بالنسبة لي، وعلى الطريقة الصينية، التي هي بالمناسبة الطريقة الصحيحة، فإن الإجابة عن هذا السؤال متروكة للجهات العلمية كي تحسمه، ونقصد ما هو مصدر هذا الفيروس وحتى متى ظهر للمرة الأولى خارج الصين وخصوصاً في الولايات المتحدة. وكل كلام جازم حول هذا الموضوع قبل ظهور أدلة علمية واضحة، لن يكون إلّا موقفاً سياسياً لا يمكن الاستناد إليه.

في ما يلي نتائج واحدة من الدراسات التي أعدها باحثون في جامعة كامبريدج للبحث عن مصدر هذا الفيروس، وكنت قد كتبت عنها على صفحتي على الفيسبوك التالي:

هل يمكن للابن أن يولد قبل أبيه؟

باحثون من جامعة كامبريدج توصلوا إلى النتيجة التالية: بعد تحديد ثلاث فئات للفيروس، لا دليل علمياً على أن ووهان هي مصدر الفيروس.

وكما في المرات السابقة، في ما يلي تحديث للمعطيات حول مصدر الفيروس بالاستناد إلى دراسة مهمة جداً قام بإعدادها مجموعة من الباحثين البريطانيين والألمان من جامعة كامبريدج، ونشرت في المجلة الأكاديمية العلمية الدولية (PNAS)، بعنوان «تحليل الشبكة الوراثية لسلالات الحمض النووي لفيروس سارس- كوف2».

طبعاً لن نستخدم لغة علمية معقدة، خصوصاً وأننا سنشارك رابط[9] البحث لمن يهمهم الاطلاع على تفاصيل أكثر.

عملت الدراسة على تصنيف الفيروس إلى فئات A و B و C، بما يشبه شجرة العائلة الخصوصاً به، أو التسلسل

- فيروس الفئة A هو أقرب إلى فيروس الكورونا وانتقل من طيور الخفاش وحيوان البنغول وهو أصلي.
- فيروس الفئة B جاء من الفئة A.
- فيروس الفئة C جاء من الفئة B.

بمعنى أبسط، الإصابات الأولى كانت بالفئة A، ومن ثم بمرور الوقت طرأ تغيرات على الفيروس وتحول إلى الفئةB ومن الفئة B ولدت الفئةC .

أما المهم جداً فهو أن الفئة (A الأصلية) موجودة بشكل أساسي في الولايات المتحدة وأستراليا، بينما هي نادرة في مدينة ووهان وشرق آسيا بشكل عام. بينما الفئة B التي تعتبر نتاجاً للفئة A فهي موجودة بشكل أساسي في ووهان وكذلك في شرق آسيا. وبالتالي هذا ما دفع الباحثين للقول بأنه لا دليل علمياً على أن ووهان هي المصدر. فمن المستحيل أن يولد الابن قبل الأب. لذا، فإن كانت ووهان هي المصدر كان من المفترض أن تكون الفئة A هي الفئة المسيطرة فيها، بينما تكون الفئة B هي الفئة المسيطرة في باقي البلدان وخصوصاً تلك التي انتقل إليها الفيروس في المرحلة الثانية. إلّا أن العكس هو الذي حصل. مما قد يعني بأن ووهان أصيبت بالفيروس في الجولة الثانية من انتشاره. بينما في أوروبا انتشرت الفئة C.

يقول الدكتور بيتر فوستر، وهو المشرف على هذه الدراسة، إن «فيروس B اكتشف بشكل أولي عند ظهور المرض في ووهان، وساد اعتقاد بأنه الفيروس الأصلي وهذا خطأ، وخلال تفشي الوباء اكتشفت إصابات بالفيروس من الفئة «C»، موضحاً أن «حالات الإصابة بفيروس A الأصلي كانت قليلة للغاية في المدينة». وهذا أيضاً يعيدنا إلى تصريح كبير علماء الأوبئة في الصين زونغ نان شان (الجبل) الذي قال في أواخر شباط/فبراير إنه «لا يمكن مساواة «الاكتشاف الأول» أي الإصابة الأولى، بالإصابة –المصدر»، وأضاف «على الرغم من ظهور الوباء في الصين أولاً، لكن مصدره ليس بالضرورة في الصين».

إن كان فعلاً مصدر الفيروس ليس من ووهان، ونحن نترك مجالاً للشك ونستخدم دائماً كلمة «قد»، لأن الأبحاث لا تزال مستمرة، فهذا يعني أن الصين كانت الدولة الوحيدة التي استطاعت التشخيص السريع للفيروس، بينما دول أخرى وخصوصاً التي ظهرت فيها الفئة A أي مصدر الفيروس لم تتمكن من تشخيص وجود فيروس جديد إلّا بعد أشهر على تشخيصه في الصين، بينما كان من المفترض أن يتم تشخيص الفيروس في تلك الدول قبل الصين وليس بعدها.

قد يقول قائل، وما همنا الآن ما هو مصدر الفيروس، ما يهمنا هو أن نقضي على هذا الفيروس اللعين. وطبعاً أنا أوافق بشكل كامل على ذلك، مع الإشارة إلى ملاحظتين:

1- الوصول إلى مصدر الفيروس أو «الحالة صفر» هو أمر مهم جداً من الناحية العلمية، لأنها تساعد الباحثين على فهم كيفية انتقال الفيروس إلى الإنسان، وبالتالي تسرّع عملية السيطرة عليه.

2- لم يتم تسييس أي وباء سابقاً كما حصل مع هذا الفيروس. فمنذ إعلان الصين تشخيص حالات إصابة بفيروس جديد، بدأت حملة ممنهجة تهدف إلى تشويه صورتها. فمثلاً، اعتبر الحجر الصحي في مدينة ووهان أنه انتهاك لحقوق الإنسان، بينما اليوم كل الدول تعتمد هذا الإجراء. لقد أكد العلم مراراً وتكراراً أنه لا يجب إلصاق الفيروس بمكان أو شعب، إلّا أن المسؤولين الأميركيين يصرّون على تسميته بالفيروس الصيني كموقف عدائي عنصري.

للأسف هذه الحملة مستمرة إلى اليوم ولكن بفرق أن الفيروس بدأ ينتشر في الدول التي كانت تخوض هذه الحملة، وهي اليوم تحاول أن تغطي إخفاقها وعدم قدرتها على حماية شعوبها من خلال تسعير هذه الحملة، ولكن دائماً تأتي الحقائق العلمية لتكشف كذبهم.

تحت العشرين إصابة

داتا اليوم 10/3/2020

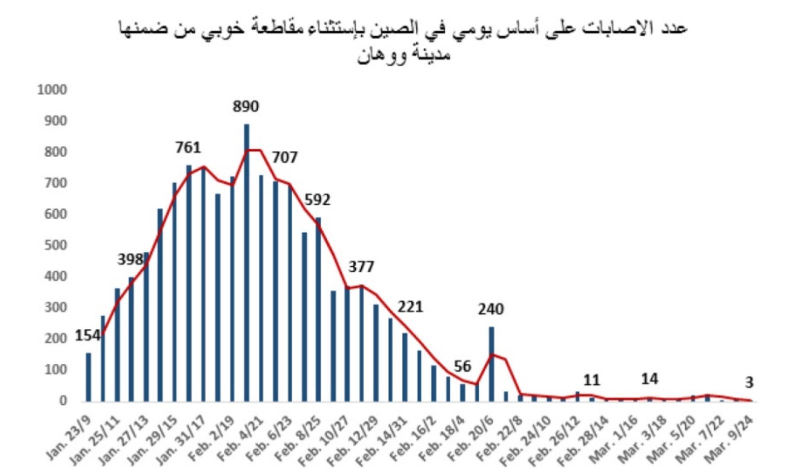
زار الرئيس الصيني مدينة ووهان صباح اليوم في خطوة تدل على أن الإعلان عن السيطرة على الفيروس في الصين أصبح قريباً.

وللتأكيد على هذا الاستنتاج، عدد الإصابات اليوم في كل الصين هو 20 إصابة فقط. 17 إصابة منها في ووهان و 3 إصابات في كل المدن والمقاطعات الأخرى. في المقابل فإن مجموع من تم شفاؤهم وعادوا إلى منازلهم سجل اليوم 59982 حالة شفاء من أصل 80948 حالة إصابة والتي هي مجموع كل الإصابات في الصين خلال الثلاثة أشهر الماضية. أي إن حوالي (75%) ممن أصيبوا بالفيروس تم شفائهم. ويبقى في المستشفى حوالي 17800 مصاب (إجمالي عدد الوفيات 3100).

ومع استمرار حالات الشفاء على أساس يومي بتسجيل أرقام عالية (1800 كمعدل وسطي)، يتوقع أن تقفل المزيد من المستشفيات الميدانية خلال الأسبوعين القادمين. أما الوفيات فهي في انخفاض مستمر واليوم سجلت 17 حالة وفاة في كل الصين.

كنت في السابق لا أتمنى لأي مدينة أو بلد أو شعب أن يحصل معه ما حصل في ووهان. اليوم، أتمنى لكل بلد ينتشر فيه الفيروس أن يحصل معه ما حصل في ووهان من حيث السيطرة على الفيروس.

ملاحظة: نحن مازلنا في ووهان تحت العزل التام، ولا يمكننا حتى اليوم الخروج من المنزل، والجميع ملتزم. وهل يتحقق النصر بغير الالتزام والقتال والإصرار والصبر؟ إنها معجزة أيها السادة.



اللحية الثورية

كثافة المقابلات الإعلامية التي كنت أجريها يومياً كانت تجعلني لا أحتاج إلى الاتصال بأهلي عبر الفيديو. كما أنني كنت أخشى من إجراء اتصال طويل معهم فيلاحظون أنني أسعل بشكل متواصل عندما أتكلم فترة طويلة. على الرغم من أنني كنت قد أقنعتهم بأن هذا السعال لا علاقة له بالفيروس.

ولكن ما لاحظته بعد فترة أنني فعلياً لم أرهم قط خلال تلك الفترة. فإن كانوا هم يتمكنون من رؤيتي عبر الإطلالات الإعلامية، لكني لا أراهم أبداً، فقط أسمع صوتهم. فآخر مرة اتصلوا بي عبر الفيديو، وهي بالمناسبة نادراً ما تحصل، كانت قبل إغلاق ووهان بيومين. كنت يومذاك في مكتبة الجامعة، وكانت هناك أحاديث تدور حول وجود فيروس، لكن لم يكن الوضع يشير إلى خطورة ما، فاتصلوا بي من خلال شقيقتي بيسان، حيث كان الجميع مجتمعين في منزلها. ومنذ ذلك الوقت لم أكن قد رأيتهم قط، سوى في صورة فوتوغرافية بعيدة حول طاولة الغداء عندما زارهم الطالب الصيني أمير.

بداية شهر شباط/فبراير، تواصلت معي مخرجة لبنانية تعرض عليّ فكرة تصوير وثائقي عن يومياتي. كانت الصبية متحمسة كثيراً للفكرة، إلّا أنني كنت أماطل باستمرار لأنني كنت مشغولاً بأمور أعتقد أنها كانت أهم من تصوير نفسي كل اليوم، والأهم من ذلك أنني كنت مريضاً طوال الوقت وأمكث في منزل ليس منزلي. أي إنه في حال نشر هذه الفيديوهات فإن أهلي سيكونون في وضع لا يحسدون عليه. لكن، بعد أكثر من شهر من التأجيل بحجج عديدة، اتفقنا أن نصور حلقة تلفزيونية تشبه الوثائقي، وهذا الأمر لا يحتاج إلى الكثير من الوقت والتفاصيل.

عندما توجه فريق العمل إلى منزل أهلي للتصوير، كان من المفترض أن أظهر معهم مباشرة عبر تقنية «سكايب». وخلال تهيئتهم لمكان التصوير، كنت قد أصبحت على اتصال معهم مباشرة عبر الفيديو، ولكن لم يكن يوجد أحد في الطرف الآخر. تقدمت ابنة شقيقتي إلى أمام الشاشة، ومن ثم لحقها والدي ووالدتي. عندما رأيتهم يتحركون أمامي، تملكتني غصّة، ولم أعد أعلم ماذا يجب أن أقول. كان إحساساً متداخلاً من الحنين والشوق والحب والخوف وأيضاً الغضب. رأيتهم كما لو أني لم أرهم منذ سنين. كانت لحية أبي الطويلة (اللحية الثورية كما أقول له) قد أصبحت بيضاء تماماً. أما أمي، فما أن رأتني حتى انهمرت دموعها. كان صمتٌ برهة، حاولت أن أكسره بضحكة بدت أقرب إلى البكاء، ممازحاً والدي «ما هذا يا معلم؟ لقد ابيضت ذقنك. هل مضى كل هذا الوقت منذ رأيتك للمرة الأخيرة؟».

إن كانت مشاعر الحب والحنين والشوق في لقاء الأهل مفهومة، فإن الخوف عليهم كان أيضاً مبرراً. كنت أخشى دائماً أن أخسر أي أحد من أقاربي وأصدقائي وأنا بعيد عنهم، وكان ذلك قد حصل أكثر من عشر مرات وأنا في الصين. كنت أخاف من العمر الذي يمر بسرعة وأنا بعيد عنهم. كان آخر من خسرتهم هو خالي، رجل ذو شاربين طويلين جداً لا نرى مثله إلّا في الصور التي تحكي عن تاريخنا البعيد، يعيش في الطبيعة ويربّي جميع أنواع الماشية، كما أنه يحب الحياة وصاحب حضور ناعم جداً. اكتشفت إصابته بالسرطان قبل شهر ونصف الشهر من موعد عودتي إلى لبنان في إحدى العطل. كنت أخشى ان يتمكن منه ذلك الخبيث قبل وصولي، إلّا أن أملي بأن بنيته الجسدية قد تجعله يقاوم فترة أطول جعلتني أطمئن قليلاً. ولكن تقديراتي لم تنجح، فخلال شهر واحد فقط، وقبل موعد عودتي بأسبوعين، تمكن ذلك الخبيث منه، فكتبت له من الصين بأحرف من حرقة البعد التي تضيف إلى وجع الخسارة أوجاعاً أخرى «مثل الكذب يا خال.. 28 يوماً كانت كفيلة بإزاحة جبل.. من بعيد الأمور أصعب».

كنت أخشى دائماً أن يتكرر هذا الأمر.

أما الغضب، فقد تستغربونه، لكني سأشرح لكم: أنا غاضب من حال بلدي، من نظامنا السياسي الذي يدفعنا بخبث وبالقوة إلى الهجرة والابتعاد عن أهلنا وأحبائنا. إما لكي نكمل تعليمنا وإما كي نحصل على فرصة عمل دون الحاجة إلى الاستزلام والتبعية والإذلال في بلدنا. أنا لست غاضباً فقط، بل حاقدٌ على هذا النظام المتخلف الذي يعمل لمصلحة تأبيد سلطة

من هم في الحكم، والذين بدورهم يكرسون منطقاً طائفياً تقسيمياً يحافظ على ديمومة تحكمهم بالناس، وعلى نموذج اقتصادي يدفع اللبنانيين يومياً نحو الفقر المدقع، ويزيد في الوقت نفسه من ثروات هذه الطغمة المالية الحاكمة.

خلال عرض الحلقة، تحدثت عن هذه الحادثة، وكتبت أيضاً على فيسبوك بالعامية اللبناني:

«اليوم كان أول يوم بحكي مع أبي فيديو.

كنا عم نسجل شي لبرنامج. شفت كيف دقنو صارت كلها بيضاء، وكيف عمرهن وعمري عم يمرقوا بسرعة ونحنا بعاد.

أنا بعيد عن بلدي وأهلي لأن عنا نظام متخلف، بيدفشنا لنفل.

مش بس الكورونا خطر، النظام المتخلف أكثر خطورة، الأول بيقتل، بينما الثاني بيقتل وبهجر وبذل.

#أنا_حاقد_على_النظام

#بوست_سياسي_مش_عاطفي»

8 إصابات فقط في ووهان

داتا اليوم 12/3/2020

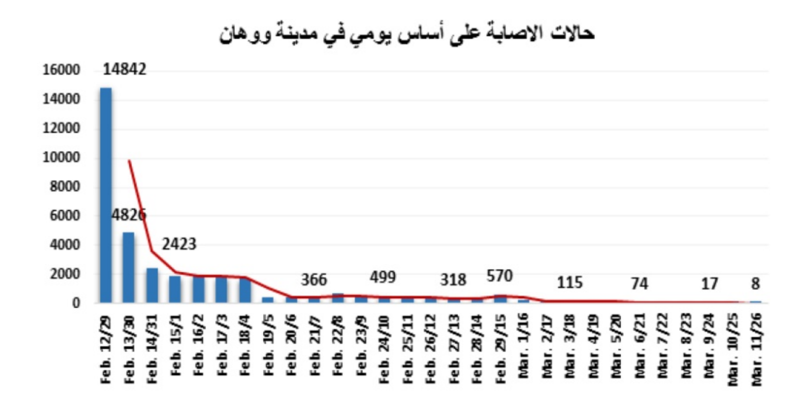
هي ثلاث جبهات تناغمت لتخوض معركة أسطورية، والنصر قاب قوسين أو أدنى:

1- حكومة تخطط، تضع كل إمكاناتها في خدمة الشعب، تقيم، تحاسب، وشعارها الأساس الإنسان أولاً.

2- فرق طبية مضحية، مثابرة، تعتمد العلم كمرجع، متضامنة ومتحدة (حوالي 42 ألف عامل طبي جاؤوا إلى ووهان من كل مقاطعات الصين لدعم الفرق الطبية).

3- شعب ملتزم، صابر، متضامن، يثق بالقيادة ويحاسب في الوقت المناسب (العشرات من المسؤولين وخصوصاً في ووهان تم إقالتهم من مناصبهم).

إلى اليوم لم يعلن النصر النهائي، لذا نحن في ووهان ما زلنا في العزل الكامل ولا أحد يخرج من منزله. فالدرس الأساسي هنا هو عدم الاستهتار.



أطباء.. لا قنابل

في أواسط شهر آذار/مارس، كانت الأوضاع الصحية تزداد خطورة في إيطاليا، وأصبحت بحاجة ماسة إلى دعم ومساعدات طبية عاجلة، خصوصاً أجهزة تنفس اصطناعي. قالت لي مهى، لقد أرسل لنا الصينيون فرقاً طبية ومساعدات، وكذلك فعل الكوبيون. أضافت معلقة على فيديو لوصول الأطباء الكوبيين إلى إيطاليا، «أنظر إليهم، كم هم متواضعون، إنهم يشبهوننا، الجميع يتكلم عنهم كأبطال هنا».

قلت لها، «انتبهي بومبيو (وزير الخارجية الأميركي) يقول إنهم آتون لنشر الأفكار الشيوعية، وإن هؤلاء الأطباء هم عناصر مخابرات كوبية». أجابت، وهي التي تتكلم بلسان الإيطاليين كما أنا أتكلم بلسان الصينيين: «فعلاً هذه وقاحة، نحن نموت هنا، والوضع يزداد خطورة، ولم يلتفت أحد لنا حتى الآن سوى هذه الدول ومنها كوبا. لماذا يستمرون في تسييس المأساة هكذا!».

كانت حملات الافتراء الأميركية تزداد ضراوة واتسعت لتشمل، لا الصين فحسب، بل كل من ساهم في زيادة التضامن الأممي لمواجهة الفيروس. فالآن لم تعد تنفع أساليب الإنكار والشعوذات التي يطلقها المسؤولون الأميركيون، فالفيروس بدأ يفتك بالشعب الأميركي، وهم يحتاجون إلى أساليب جديدة للتهرب من المسؤولية.

هكذا، هاجم مسؤولون أميركيون الدور الكوبي الذي لا يختلف على رقيه وإنسانيته شخصان، بالرغم من إمكانيات الكوبيين المحدودة بسبب الحصار الخانق الذي تفرضه عليها الولايات المتحدة منذ نجاح الثورة هناك في خمسينات القرن الماضي. وإني أراهن أنك لو سألت اليوم أي أميركي عن سبب فرض بلاده حصاراً على كوبا، فهو لن يجد أي جواب سوى لأنها

جزيرة شيوعية. وهذا يعني أن شعباً كاملاً يعاقب منذ أجيال فقط لأن لديه رأياً ومعتقداً سياسياً مغايراً للولايات المتحدة، التي ترفع بنفسها راية الديموقراطية وحرية الرأي لا بل الحرية شخصياً متمثلة برمزها أي تمثال الحرية.

إذاً، كوبا هذه، التي قال زعيمها الراحل فيديل كاسترو إن بلاده «لا تسقط القنابل فوق رؤوس الآخرين، ولا ترسل آلاف الطائرات لقصف المدن، ولا تملك أسلحة نووية أو كيميائية أو بيولوجية. بل عشرات الآلاف من العلماء والأطباء الذين نشأوا على فكرة إنقاذ الآخرين... يقول، نرسل أطباء.. لا قنابل. أطباء.. لا قنابل». وكان هذا ما فعلته كوبا تماماً خلال هذه الأزمة. فقد أرسلت آلاف الأطباء إلى دول تحتاج إلى المساعدة، وحتى إلى دول لم تقف إلى جانبها في حقها في رفع الحصار الأميركي عنها كإيطاليا مثلاً. ولكن عندما اشتدت الأزمة على الشعب الإيطالي، كان جواب الشعب الكوبي: قادمون لنكون إخوانكم في الإنسانية.

أما الطرف الثاني الذي تعرض للهجوم الأميركي، فلم يكن سوى منظمة الصحة العالمية! كانت هذه الشراسة في الكراهية لا تصدق! ما أثار استنكاراً عالمياً واسعاً خصوصاً في الوسط العلمي والطبي. أما ما هو ذنب المنظمة؟ فببساطة تصريحها الذي قالت فيه إنه وبعد تقييم دقيق لما قامت به الصين، فإنها وجدت أن هذه الأخيرة تصرفت بشكل شفاف، وقدمت نموذجاً في عملية السيطرة على الفيروس ممكن لباقي الدول الاحتذاء به. ما أثار غضب المسؤولين الأميركيين الذين يجهدون لوصم الصين وإظهارها بأنها سبب انتشار هذا الفيروس. لذا قرر ترامب التوقف عن تمويل المنظمة، وهدد بالانسحاب كلياً منها.

عدد الإصابات في ووهان أربع فقط
داتا اليوم 14/3/2020

بدأت الصين تستعيد عافيتها الكاملة بعد ثلاثة شهور من المواجهة الشرسة مع عدو خطير جداً. وبالرغم من أن أعداد الإصابات تراجعت بشكل كبير، إلّا أن الحذر والوقاية هما عنوان المرحلة الحالية.

سنة ٢٠١٣ أطلقت الصين مبادرة اقتصادية ضخمة عرفت باسم «مبادرة الحزام والطريق». وعملت من خلالها على بناء نمط جديد في العلاقات الدولية قائم على الربح المشترك (Win-Win) وأحد عناوين هذه المبادرة كان «مصير مشترك للبشرية».

يتميز الصينيون بأنهم يعملون كثيراً ويتكلمون قليلاً. اليوم بدأت الصين المرحلة الثانية من مواجهة الفيروس، وهي مرحلة دعم الدول التي تحتاج إلى دعم، وبذلك تكون قد بدأت بتنفيذ شعار «مصير مشترك للبشرية»، حيث أكدت هذه الأزمة أنه فعلاً للبشر مصير مشترك. هذا بالإضافة إلى تكثيف الأعمال والدعم للفرق التي تطوّر لقاحات.

المساعدات وصلت إلى العديد من البلدان ويتوقع أن تزداد في الأيام القادمة. حيث وصلت مساعدات طبية إلى إيران والعراق وإيطاليا، بالإضافة إلى فرق طبية متخصصة كانت قد شاركت في الحرب ضد الفيروس في ووهان. كما أن مساعدات طبية وصلت إلى لبنان.

يعتبر الكثير من الإيطاليين اليوم أن أوروبا خذلتهم، وتخلت عنهم في أصعب الظروف، بينما الصين وقفت إلى جانبهم حتى قبل أن يطلبوها. إن ما نشهده هو نمطٌ جديدٌ في العلاقات

الدولية، نقيض تماماً لما كان سائداً، حيث حافظت أمبراطوريات القهر على سيطرتها عبر سحق شعوب وأمم.

منذ البداية كانت صرختنا، فلنتوحد لمواجهة عدو البشرية، وهذه الصرخة مستمرة حتى ولو تمت السيطرة على الفيروس في الصين، فهذه الحرب هي من أجل البشرية.

أنا اليوم متضامن مع الشعب الإيطالي والإيراني والكوري وكذلك مع الشعب الأميركي الذي يُعتقد أن الفيروس منتشر بشكل كبير بينهم، بينما حكومتهم كانت لا تتردد في التعبير عن شماتتها بالصين في الأيام الأولى على انتشار الفيروس هنا. ولا أحد ينسى تصريح وزير التجارة الأميركي عن أن الاقتصاد الأميركي «يستفيد مما يجري في الصين». هذه العقلية هي الفيروس الأخطر الذي يجب القضاء عليه، من أجل مصير أفضل للبشرية.

«آن أن يعترفوا»

لم أفاجأ مطلقاً حين وصلتني رسالة من صديقة فيسبوكية تقول فيها الكلام التالي «آن الأوان للصين أن تعترف أنها هي من صنعت هذا الفيروس في المختبر، أميركا تؤكد ذلك، وأيضاً استراليا. كل وسائل الإعلام تتحدث عن ذلك، لا تقل لي إن هذه إشاعات فلتفرج عن اللقاح لأنها هي من صنعت الفيروس وهي تملك اللقاح».

هذه الصديقة التي لم أكن أعرفها قبل هذه الأزمة، كانت متضامنة مع الصين، ولكن الكمّ الهائل من الإشاعات والتضليل، وخصوصاً اللعب على وتر تعب الناس من الوضع المستجد المتمثل بالعزل، كان له تأثير في تقبل أفكار كهذه. أجبتها أنه ومع الأسف هذه جزء من الحملة على الصين، ولا يوجد أي دليل علمي يؤكد هذا الكلام. لا بل إن كل الدلائل تشير إلى العكس تماماً. أما بالنسبة إلى اللقاح، فالصين وغيرها من الدول تعمل منذ أواسط كانون الثاني/يناير، على إنتاج لقاح، وأعتقد أنها أصبحت في مراحل متقدمة. الآن أصبحنا في مرحلة التجارب السريرية أي الاختبارات على متطوعين، أقله هذه معلوماتي حول الصين. ولكن طبعاً هذا سيكون عنواناً لخلافات قادمة. لأن لوبي الأدوية في الولايات المتحدة لن يسمح لبلد آخر بإنتاج اللقاح وسيسعى أيضاً إلى تسييس هذا الأمر، من أجل محاولة احتكاره وجني المليارات من خلال بيعه و الاستمرار في التحكم في حياة الناس.

بعد أن أرسلت لها روابط لمجموعة من الدراسات، قالت وكأنها لا تريد القراءة، أو تعبر عن قلق ممزوج بتعب الحجر المنزلي: «أنا لا أثق بترامب، ولكن عدة دول تتهم الصين». أجبتها أنه منذ اليوم الأول على إغلاق ووهان طرحت نظرية «مؤامرة مختبر ووهان» هذه، ولكنهم يبتعدون عن هذه «النظرية» بقدر ما يكونون مشغولين باختراع إشاعات وأفكار تضليلية أخرى، ولكن ما إن تبهت تلك الأفكار، حتى يعودوا إلى ترويجها مجدداً، فهذا هو النهج المعتمد من قبل الإدارات

الأميركية على مر التاريخ. أضفت «سأرسل لك تسجيلاً صوتياً أختصر لك التسلسل الزمني لتصدي الوسط العلمي لهذه المقولات الزائفة، وما الإصرار عليها إلّا لتغطية الفشل».

ولدت مقولات التسرب المخبري أو التصنيع البشري للفيروس ميتة. فبالنسبة إلى الوسط العلمي، أول دليل على عدم صحة هذه الفرضية كان التسلسل الجيني للفيروس الذي نشرته الصين في 12 كانون الثاني/يناير. حينذاك، لم يكن قد تم تسييس الفيروس بعد وكان الهدف محض علمي. ولكن بعد أن بدأت حملة التسييس تلك، أصدرت مجموعة من العلماء بياناً [10] نشرته مجلة «ذا لانسيت» في 19 شباط/فبراير 2020، حذر هؤلاء فيه من المعلومات المغلوطة التي يتم ترويجها والتي ممكن أن تضلل الناس وتؤدي إلى كوارث صحية. وأضافوا «ندين بشدة نظريات المؤامرة التي تتحدث عن أن فيروس كورونا المستجد ليس طبيعي المنشأ».

إلا أن أصحاب هذه النظرية «المؤامراتية» لم يتوقفوا عن نشر سمومهم. بل على العكس فعّلوا هذه النظرية من خلال الترويج لامتلاك أدلة على أن الفيروس خرج من مختبر ووهان، ما ذكرنا مجدداً «بأدلة» أسلحة الدمار الشامل المختلقة لغزو العراق. لكن ولسوء حظهم، فالعلم لم يقف مكتوف الأيدي لمعرفة المصدر الفعلي.

هكذا، نشرت عشرات الأبحاث والبيانات التي تؤكد حتى الآن أن هذا الفيروس تطور بشكل طبيعي، وأن مصدره حيواني ولم يتم تعديله أو تخليقه في مختبر. وآخر هذه الأبحاث[11] تم نشره في 17 آذار في مجلة «Nature» تحت عنوان «الأصول المحتملة لفيروس SARS-CoV-2»، من قبل مجموعة من العلماء الأميركيين بإشراف الدكتور كريستيان أندرسن، من معهد «سكريبس»، وأكدوا أن تحليلهم «يظهر بوضوح أن فيروس كورونا المستجد ليس مصنّعاً في المختبرات، ولا فيروساً معدلاً بشكل متعمد» من جانب البشر. وهذا ما أكّده لاحقاً «صائد الفيروسات» الدكتور ايفان لبكين الذي شارك أيضاً في هذه الدراسة، وقال في مقابلة «لا يوجد أي دليل يدعم النظرية التي تقول بأن فيروس كورونا الجديد تم تخليقه وتسريبه من مختبر بوسط الصين».

100 كواي تعيدك من الموت!

صباح 20 آذار/مارس، وكما روتين العزل اليومي، كنت أُدخل الداتا إلى الجداول التي كنت قد أعددتها على اللابتوب. اتصل بي رقم مؤلف من خمسة أرقام. تأملت الرقم جيداً، فهو لا يشبه الأرقام الصينية المؤلفة عادة من 11 رقماً، كما أنه ليس رقماً دولياً.

أجبت، وكان على الطرف الآخر من السماعة فتاة تتكلم بالصينية. وكما عادة عاملات الهاتف هنا، بدأت تتحدث بسرعة دون أن تتحقق إن كنت أسمع أو لا. قاطعتها بعبارة أستخدمها دائماً في مثل مواقف كهذه. قلت لها «تيم بو دونغ»، وهي تعني أني لا أفهم ما تقولين. حينئذ عرّفت عن نفسها بكلمتين باللغة الإنكليزية، قالت «تشاينا يونيكوم» (Unicom China)، وهي تعني بأنها من شركة الاتصالات الصينية التي أنا مشترك فيها. ومن ثم سألتني أيضاً بكلمات مختصرة جداً إن كان لدي ويتشات، فأجبتها بالإيجاب وتوجهنا مباشرة إلى ذلك التطبيق الذي يوفر لنا خدمة الترجمة الفورية، وهكذا تستطيع هي أن تتكلم بالصينية وأنا أتمكن من الترجمة. بعد أن أضافتني في ويتشات، ومن خلال رسالة نصية قالت لي: «لقد انتهت صلاحية خطك، فهل تريد إعادة تفعيله؟» أجبتها: «لقد دفعت بالأمس 100 كواي». قالت: «تحتاج إلى دفع مئة أخرى». فأجبتها أني لا أملك المال الآن، وأنا لا أحتاج إلى تعبئة خطي طالما أننا في الحجر.

لم أقم بتعبئة خطي منذ ما قبل بداية العزل المنزلي. ونحن عملياً لم نحتج إلى تفعيله لأننا كل الوقت في المنزل، وهناك يمكننا أن نستخدم شبكة «واي فاي». إلّا أنني قبل يوم واحد، وخلال تصويري عبر تقنية الفيديو المباشر لعمل المتطوعين أمام مدخل السكن، كان «النت» ينقطع كثيراً، لذا قمت بإعادة تعبئة الخط بمبلغ 100 كواي.لكن يبدو أن حسابي كان مكسوراً على مبلغ أكبر. على الرغم من أنني كنت أملك المبلغ الذي تحدثت عنه تلك الفتاة، إلّا أن الغموض الذي رافق هذا

الاتصال دفعني إلى عدم إعادة تعبئة الخط خوفاً من أن تكون شخصاً يحاول الاحتيال عليّ. فلم أكن قد تلقيت اتصالاً من هذه الشركة خلال كل فترة وجودي في الصين، حتى عندما يتوقف خطي عن العمل.

لم أكن قد أنهيت المكالمة مع هذه الفتاة، حتى وصلتني رسالة من صديقة على فيسبوك تسألني فيها عن مقال يقول بأن عدد الوفيات الحقيقي في الصين هو حوالي 14 مليون شخص. ويستند المقال إلى تحليل أجرته امرأة تدّعي أنها صينية تعيش خارج الصين.

يخلص هذا التحليل إلى أن الداتا الحديثة التي نشرتها شركات الاتصالات في الصين تظهر أنه هناك أكثر من 14 مليون خط هاتف أصبحوا خارج الخدمة خلال شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير 2020، وبالتالي تستنتج هذه الفتاة أن كل هؤلاء توفوا بالفيروس ولكن السلطات لم تصرح عنهم!

بعد قراءتي لهذه «النظرية» ضحكت، وأرسلت لهذه الصديقة مباشرة «سكرين شوت» للمحادثة مع شركة الاتصالات الصينية. ودون شرح طويل قلت لها: «حسناً، أنا خطي خارج الخدمة منذ شهر تقريباً، فهل يعني ذلك أني متوفى؟ وكنت أستطيع تفعيله بمبلغ 100 كواي، فهل كلفة العودة إلى الحياة رخيصة إلى هذه الدرجة؟ »

كانت المفاجأة أن هذا الخبر منتشر على نطاق واسع جداً. وكان أكثر من شخص قد أرسل لي يسألني عن هذا الأمر. مما دفعني إلى أن آخذ الأمر بجدية أكثر، وقمت لاحقاً بكتابة نص تفصيلي عن هذا الأمر، وكذلك تصوير فيديو خاص لشرح عدم واقعية افتراضات كهذه. وباختصار، بالإضافة إلى تفاصيل ما حدث معي شخصياً حول عدم ضرورة تفعيل الخط خلال العزل، وخصوصاً أن مدينة ووهان ومقاطعة هوبي تضمان حوالي 51 مليون إنسان يخضعون للعزل الكامل، أي لا يمكن أن نجد أي مكتب لإعادة تعبئة الخطوط، وهذا يعني أن فئة كبار السن الذين لا يجيدون تفعيل خطوطهم عبر« النت»، سيصبحون تلقائياً خارج الخدمة. وهذا على ما يبدو سبب اتصال تلك الموظفة وعرض المساعدة في إعادة تعبئة الخط. ومن ناحية أخرى، فإذا أخذنا الرقم الذي يتم ترويجه، أي 14 مليون، وإذا اعتمدنا في المقابل معدل وفيات قريب من المعدل العالمي أي 5.5%، فسيكون عدد الإصابات في الصين خلال الأشهر الثلاثة الماضية حوالي 254 مليون و 545 ألفاً، فهل يمكن لأي عاقل أن يصدق رقماً كهذا؟

ولكن هذا المقال التشكيكي كان جزءاً من كل. فبالإضافة إلى هذه الفرضية، ظهرت فرضيات حول الرماد الناتج من إحراق الجثث، حيث قيل إن هناك عشرات آلاف الجرار المعبأة والتي تعود إلى ضحايا الفيروس. وأيضاً الرئيس الأميركي نفسه شكك في عدد الوفيات، وهذا التشكيك نابعٌ من فرضية واحدة: إذا كان عدد الوفيات مرتفعاً في الولايات المتحدة إلى هذه الدرجة، فإذاً يجب أن يكون عدد الوفيات أيضاً مرتفعاً في الصين! فإن لم نتمكن نحن من السيطرة على الفيروس، هم أيضاً لا شك لا يمكنهم ذلك.

فعلاً هذه هي الفرضية! ومن أجل تصديقها، علينا أن ننسى كل ما قامت به الصين من إجراءات استثنائية في سبيل السيطرة على الفيروس وتخفيض عدد الوفيات، وأيضاً علينا أن ننسى في المقابل أن الولايات المتحدة لم تتصرف ولم تتخذ إجراءات حقيقية إلّا بعد أن كان الفيروس قد اكتسح البلاد. لا بل يريدوننا أن ننسى أنهم همّشوا تعليمات الخبراء لمصلحة التضليل الإعلامي للجمهور، لا بل روجوا الشعوذات. وكذلك، يريدوننا أن نغضّ النظر عن نهج أقل ما يقال فيه إنه كان ضمنياً يعتمد على نظرية: «دعه يمرض دعه يمت». كيف يمكن تجاهل الفرق الكبير بين النظام الصحي شبه المجاني في الصين، وخصوصاً في هذه الأزمة حيث كان مجاناً بالكامل، والنظام الصحي في الولايات المتحدة حيث يتحمل المريض كلفة العلاج، التي هي من أعلى الفواتير الصحية في العالم؟.

إلا أن الهدف الأساسي لهذا التشكيك كان تضليل الشعب الأميركي تحديداً، فترامب على أبواب الانتخابات الرئاسية وهو لا يريد أن يُظهر فشله الكارثي. لذا فمن خلال الترويج لمقولة «الصين تخفي الأرقام»، يمكنه صناعة وعي يشكك في نجاحات الآخر من أجل تبرير فشله. اليوم مهما ارتفع عدد الإصابات والوفيات في الولايات المتحدة، سيقول ترامب لقد قمنا بعمل رائع (Great Job) لأن الوضع كان ليصبح أسوأ بكثير. وإن حاججه أحدهم بالقول إن الصين تمكنت من السيطرة على الفيروس بعدد أقل من الإصابات والوفيات، سيلمح مباشرة إلى أن الأرقام في الصين غير صحيحة وبالتالي لا يجب المقارنة بها.

أحد الأسئلة التي كانت تطرح دائماً علينا عن وضع الطلاب الأجانب في ووهان من حيث الإصابات والوفيات. وفعلاً، كان لافتاً جداً أنه لم تحصل أي وفاة بيننا، حتى الإصابات كانت محدودة جداً. هذا الأمر لفت نظري كدليل استخدمته في عدد من المقابلات على أنه ليس هناك إخفاء

لعدد الوفيات، لا بل كدليل على فاعلية الإجراءات المتخذة لحماية السكان. فإذا اتخذنا هؤلاء الطلاب، وحتى المقيمين الأجانب في ووهان، كعينة، فهذه العينة تشمل على أقل تقدير حوالي 25 ألف شخص من جنسيات مختلفة. هؤلاء موزعون على كل أحياء ووهان. ولقد كانوا يمارسون حياتهم بشكل طبيعي قبل الإغلاق. وبما ان الفيروس لا يميّز بين أجنبي وصيني، كان يفترض أن يصيب الفئتين بمعدل الإصابة نفسه تقريباً، وكان من المفترض وقوع أعداد كبيرة من الإصابات والوفيات بين هؤلاء لو أن الأرقام التي يطرحها بعضهم عن ملايين الوفيات صحيحة. فإن استطاعت السلطات إخفاء وفيات الصينيين، فكيف يمكنها أن تفعل ذلك مع الأجانب؟.

ولنترك الصين في حالها. ولنقارن بين ما حصل في لبنان وما حصل في نيويورك مثلاً. فقد ظهر الفيروس في لبنان، وهو بلد يفتقد الإمكانات بشكل كبير، قبل أن يظهر في مدينة نيويورك الأميركية. وعلى الرغم من ذلك، فانه لا يمكن مقارنة عدد الإصابات والوفيات بين لبنان ونيويورك. فحتى الآن لم يتخط عدد الإصابات في لبنان 800 إصابة، وعدد الوفيات لايزال تحت 50. بينما في نيويورك هناك مئات آلاف الإصابات وعشرات آلاف الوفيات. فهل توافرت للبنان معلومات عن الفيروس أكثر من نيويورك؟ طبعاً لا. إلّا أن الفرق هو أنه في لبنان تم اتخاذ إجراءات منذ تسجيل الإصابة الأولى بالاعتماد على التجربة الصينية في هذا المجال، وبدأت إجراءات العزل مبكراً جداً، وهذا ما لم يحصل في نيويورك. هذه المقارنة بلبنان يمكن أيضاً تعميمها على الكثير من بلدان العالم، اليابان مثلاً، وكوريا الجنوبية وعشرات الدول الأخرى التي سجلت إصابات بالفيروس قبل الولايات المتحدة، إلّا أنها تمكنت من السيطرة على الفيروس ونسب الوفيات والإصابات فيها أقل بكثير من الولايات المتحدة.

نعم في الصين حصل ما يشبه المعجزة، وهذه المعجزة تحققت لأن هناك نظاماً اتخذ إجراءات حاسمة منذ بداية اكتشاف الفيروس، وشعباً التزم بها وصمد. وهذه الإجراءات مستمرة إلى اليوم بالرغم من السيطرة شبه الكاملة عليه.

في الصين اشتراكية، حتى لو أنها ذات خصائص صينية، ولكنها تبقى بجوهرها نظاماً يعتمد مقولة مصلحة المجتمع هي الأهم. في الكثير من الدول الأخرى وخصوصاً الولايات المتحدة الشعار هو «دبر راسك». بالطبع سيكون هناك فرق، أليس كذلك؟ طبعاً إنه كذلك. وللإجابة بشكل أوضح عن هذا السؤال، وخصوصاً للتدليل على الفرق بين نظام اشتراكي ونظام ليبرالي، يمكن مراجعة

عدد الأسرّة في المستشفيات في دول الإتحاد السوفياتي السابق والدول الغربية الأخرى، سنجد مثلا، انه في روسيا سنة 1985 كان عدد تلك الاسّرة 13 سريراً لكل ألف شخص، وهو اليوم 8 أسرة للنسبة نفسها، أي إنه لايزال يحافظ على رقم مرتفع نسبياً على الرغم من تغيير النظام. أي إن الميراث الاشتراكي لا يزال حاضراً. أما في الولايات المتحدة فقد كان عدد الأسرّة سنة 1985 يعادل (5.5) أسرّة لكل ألف شخص، في حين انه اليوم لا يتجاوز (2.5) سرير. هذا مثال يظهر لنا كيف يمكن أن تتغير الأولويات بحسب النظام الحاكم.

قال كبير مستشاري منظمة الصحة بروس إيلوار، بعد أن أنهى جولة تقييمية إلى الصين «إنهم يعرفون كيف يبقون الناس على قيد الحياة هنا». فهل علينا أن ننصت إلى هذا العالم حين يقيّم ما جرى في الصين؟ أو نصغي إلى من طلب حقن الناس بالمعقمات؟

في ما يلي ما كتبته على صفحتي حول هذا الأمر:

لماذا عدد الوفيات قليل نسبياً في الصين؟

وكيف تمكنت من السيطرة على الفيروس؟ وهل هذا ممكن في باقي الدول؟

يقول بروس إيلوار قائد فريق منظمة الصحة العالمية خلال مؤتمر صحفي بعد انتهاء جولتهم لتقييم الوضع في الصين أواخر شباط/فبراير الماضي، حيث لم يكن الفيروس قد تحول إلى وباء عالمي:

«إن أصبت مستقبلاً بالفيروس، فأريد أن أعالج في الصين، مستشفى واحد في هذه المدينة يوجد فيه أجهزة أكسجة تعادل ما تملكه دولة في أوروبا».

«لقد قامت الصين بتنفيذ البروتوكولات بشكل دقيق، وعلى الرغم من أن هذا الفيروس سريع الانتشار، إلّا أنهم تتبعوا كل الحالات المصابة».

لقد تحدثت سابقاً عن أحد أصدقائي الذي غادر ووهان قبل ليلة واحدة من إغلاقها. لقد استخدم الصينيون كل ما يملكون من أجل السيطرة على الفيروس. في حين كان ترامب يقول لشعبه إنها مجرد انفلونزا ولن تصل إلى الولايات المتحدة.

يقول الصديق الطبيب أيمن لقناة «فرانس 24» وهو الموجود في الخطوط الأمامية في مستشفيات شمال إيطاليا، إن واحداً من أسباب استمرار ارتفاع الإصابات والوفيات في إيطاليا أنه ليس هناك التزام كامل بالحجر المنزلي إلى الآن. كما أن المستشفيات لم تعد تستوعب عدد الإصابات. في الصين كان الالتزام يقارب 100% ولمدة وصلت إلى 60 يوماً. كما حولت الكثير

من المرافق العامة إلى مستشفيات، ووصل إلى ووهان أكثر من 42 ألف عامل طبي للمساعدة في علاج المرضى.

وللتدليل على أنه كان من الممكن السيطرة على الفيروس والحدّ من الإصابات والوفيات في الدول الغربية بشكل عام وبريطانيا بشكل خاص، وكذلك للتدليل على أن المعلومات المطلوبة كانت متوافرة، يقول رئيس تحرير المجلة الطبية «ذا لانسيت» (The Lancet) ريتشارد هورتن إن الدول الغربية وخصوصاً بريطانيا قد أضاعت شهر شباط/فبراير، ولم تحضر نفسها لمواجهة الفيروس حيث أن الرسالة من الصين كانت واضحة جداً منذ أواسط كانون الثاني/يناير. ويضيف: «كان يمكننا أن نتجنب كل ذلك».

وفي ما يلي أهم ما قاله هورتن أواخر شهر آذار/مارس في حديث لقناة «بي بي سي» ونشرت هذه الملاحظات[12] في مجلة «ذا لانسيت» في 28 آذار/مارس 2020.

- ما يحصل الآن في المملكة المتحدة يشكل فضيحة وطنية بكل ما للكلمة من معنى. كيف سمحنا أن تصل الأمور إلى ما آلت إليه الآن؟

- كان يجب على الحكومة أن تكون حاضرة لصد انتشار المرض عند ظهوره لأول مرة في الصين. لقد أهدرت العديد من الفرص للحد من انتشار الفيروس.

- لا يجب أن نكون في هذا الوضع، لقد علمنا بقدوم فيروس كورونا قبل 11 أسبوعاً.

- الرسالة التي وصلتنا من الصين في الأسبوع الأخير من كانون الثاني/يناير قالت ببالغ الوضوح بأن الفيروس الجديد يتمتع بقدرات انتشار وبائية كبيرة وهو ينتشر في عدد من المدن بسرعة عالية.

- لقد علمنا بذلك مسبقاً، وتحديداً منذ 11 أسبوعاً، ولكننا أهدرنا شهر شباط/فبراير بدل أن نستغله لاتخاذ الإجراءات التي كان بإمكانها أن تسرّع وتيرة إجراء الفحوصات، وتجهيز المعدات للوقاية الشخصية وتوزيعها، لكننا لم نفعل أي شيء.

- إنه لنفاق أن نصفق للعاملين في النظام الصحي الوطني في حين أن الحكومة لا توفر لهم الدعم الكامل للمواجهة. إنهم يرتدون أقنعة الجراحة، ويرتدون مآزر بلاستيكية رقيقة، وهذه كلها ليست ضمن معايير منظمة الصحة العالمية.

- كان بإمكاننا تفادي كل ما يحصل، آسف لقول ذلك؛ ولكن كان بإمكاننا تفاديه.

أما السياسيون في بعض الدول، فوحدهم يدّعون أنهم لم يكونوا على علم بما يحصل، ولم تصلهم هذه المعلومات، لأن آخر اهتماماتهم صحة الناس. لذا هم اليوم يبحثون عن ذرائع لتغطية فشلهم في حماية شعوبهم، من نوع «الصين أخفت المعلومات عنا». لقد حكموا العالم من خلال الكذب، ولكن مشكلتهم أنهم لا يستطيعون الكذب على الفيروس، على الرغم من أن ترامب صرخ في وجهه مئات المرات «great job We did a»، ولكن لا ينفع الكذب مع الفيروس.

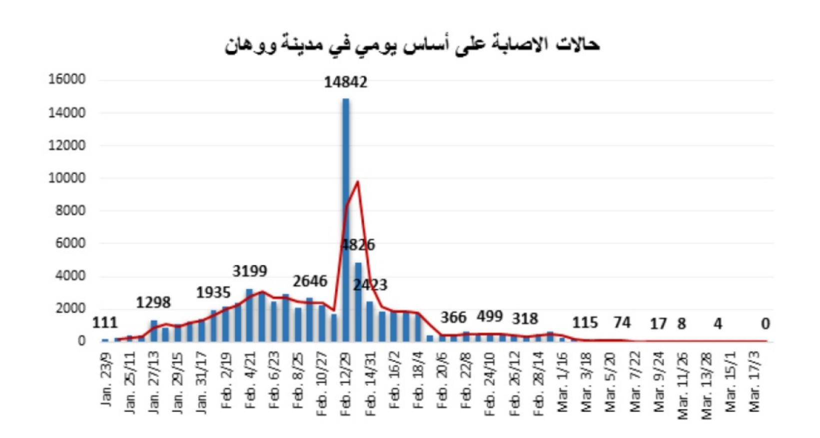
صفر 0

داتا اليوم 19/3/2020

لطالما اعتبرنا أن الصفر هو نتيجة نحصل عليها عندما نفشل في تحقيق هدف معين.

اليوم الصفر هو دليل على النصر. لأول مرة منذ بداية انتشار الفيروس، مدينة ووهان تسجل صفر إصابات جديدة.

لقد تحقق المستحيل، فمنذ اليوم الخامس قلت بأنه لا مستحيل في هذه البلاد. قريباً سيتم فتح المدينة مجدداً، قريباً سيحل الربيع في ووهان.



ما هو السر؟

21 آذار/مارس، لليوم الثالث على التوالي نسجل صفر إصابات في ووهان. إنه موعد حلول الربيع في لبنان وأيضاً هو عيد الأم.

كنت قد أعددت فيديو كي أعايد به أمي على طريقتي الخصوصاً. فقصصت مقطعاً من الوثائقي الذي صوّر في منزلنا، تسأل فيه المحاورة أمي عن شعورها عندما سمعت بأن هناك فيروساً انتشر في المدينة التي يسكن فيها ابنها؟. تجيب أمي «صدمت. ولكنه كان يطمئننا إلى ان الوضع جيد، ويقول إنه لن يخرج من المدينة». كانت الكاميرا تدور على الحضور، أبي يجلس إلى جانب أمي، وتجلس إلى جانبه زوجة عمي. ومن الجهة الأخرى تجلس المحاورة وإلى جانبها خالتي. تعود الكاميرا إلى وجه أمي وكان قد سبقها صوتها الذي يقول «الحمدالله كل يوم أطمئن عليه، ولكن كنت متأثرة كثيراً وخائفة»، كانت الدموع قد بدأت تنهمر من عينيها الصغيرتين والمتعبتين، وكان أبي يربت ظهرها محاولاً التخفيف عنها. حاولت المحاورة كسر هذا الجو بسؤالها: «لم تبكين؟ أنت تعلمين أنه بخير، وقلت إنك يومياً تطمئنين عليه!». قالت لها أمي وهي تحاول قمع دموعها «كيف سأقول ذلك؟»، ويغلبها البكاء مرة أحرى، ثم أضافت تلك الشهادة التي ما بعدها شهادة «أدهم حنون جداً، هو إنسان، نعم إنسان، إنسان بكل ما للكلمة من معنى. إذا تحدثنا عنه هنا في لبنان وليس فقط في ووهان، عندما تحصل أي مشكلة للناس تجدينه في الصفوف الأمامية، في الانتفاضة وفي أزمة النفايات والكهرباء والتلوث يكون دائماً في الطليعة. يحب القيام بهذه الأمور، إنه مناضل. وهو الآن في ووهان يقوم بالشيء نفسه، أدهم يناضل في ووهان».

كتبت معلقاً على هذا الفيديو الذي اعتمدته كمعايدة «إن كان هذا رأي أمك بك، فلا تنتظر رأي أي شخص آخر، لأنك قد حصلت على الرضى». كنت أعرف رأيها بي، لكنها كانت المرة

الأولى التي تضطر للبوح بما تفكر فيه علناً. أضفت «خلال تشييع أحد الرفاق، وقفت والدته وأدت له التحية العسكرية. حينذاك حسدته، وهو المتوفى، على ذلك!. اليوم أنا أحسد نفسي على هذه النعمة، على أجمل تحية».

كنت بمعايدتي العلنية هذه أمارس طريقتي المفضلة بالتعبير عن نفسي، فبدل معايدة ضيقة بيني وبين أمي، تصبح المعايدة رسالة، وأمي فكرة أوسع من الروابط البيولوجية، فكرة التضحية والحب والنضال. ألم يشبّه ماكسيم غوركي الثورة بالأم لأنّها تخلق لنا عالماً جديداً، وخلدها باسم روايته العظيمة «الأم». إنها بهذا المعنى الشعب بكل ما يختزنه من قوة وقدرة وإبداع الحياة.

في الحروب، نشبّه الوطن بالأم، كذا فعل السوفيات بتمثال «الوطن الأم» الذي جسد حبهم للوطن. والوطن أيضاً هو الشعب البنّاء المنتج المناضل من أجل الأفضل، من أجل العدالة والمساواة والكرامة. ألم يشبه أمير وانغ الطالب الصيني في لبنان بلاده الصين بالأم؟ ألم يقل إن «الصين بالنسبة لنا نحن الصينيين هي أمّنا؟»، بلى قال ذلك، وهو بذلك يعيد ما قاله أجداده على مر سنوات النضال الشاقة التي خاضها الشعب الصيني كغيره من شعوب العالم المضحية من أجل تحقيق الكرامة الوطنية.

بعد أن وصلنا إلى صفر إصابات في ووهان، سُئلت: ما هو سر نجاح الصين؟

أجبت أن السر يكمن في كفاح الشعب. باختصار، إنها القوة الجبارة التي ينتجها اتحاده، فوحدة الشعب وحدها قادرة على فعل كل ذلك، وحدة صانعي التاريخ المنتجين بأيديهم وأدمغتهم، هؤلاء هم قوة الصين التي تمكّن الحزب الشيوعي الصيني من استنهاضها وصنع من خلالها المعجزات.

لا يكفي عدد السكان الكبير لتكون قوة كبيرة تحقق المستحيل، على العكس تماماً، قد تكون هذه النقطة هي تحديداً نقطة ضعفك لا قوتك. أما إن عرفت كيف تستنهض طاقات هذه الملايين، فحينئذ لن يهزمك أحد. عندما سار ملايين الصينيين تلك المسيرة الطويلة التي غيرت وجه بلادهم إلى الأبد، كانوا فعلياً يصنعون تاريخهم الجديد ولم تستطع أي قوة أن توقفهم، فالثورة الولّادة كالأم

أرشدتهم نحو طريق خلاصهم، فساروا نحوه. كان لديهم حلم، والحلم لن يكون حقيقة إلّا بالتخطيط والنضال، وهذا ما أنتجته الثورة.

إذاً، تاريخ الصين الحديث كان ولادة متجددة من هذه «الأم»، الشعب والثورة والوطن. أمام كل تحدٍ يفرضه التاريخ، كانت تتحد قوة الشعب كي تخلق صيناً جديدة، أقوى وأعدل. وكانوا يجدون إلى جانبهم كل أحرار العالم، كما يحصل اليوم، وكما حصل في مرحلة البناء، حيث شارك عشرات آلاف المناضلين من أطراف الأرض الشعب الصيني في بناء بلده.

عندما يتحدث المختصون عن الاقتصاد الصيني يقولون انها «المعجزة الاقتصادية». بلد كان مثقلاً بالفقر والجوع نتيجة للحروب الداخلية والأطماع الاستعمارية. تأتي ثورة توحّده وتضعه على طريق النهوض، وخلال أقل من 70 عاماً يولد من كل ذلك القهر قوة اقتصادية كبيرة هي اليوم في المرتبة الثانية عالمياً، وفي الوقت نفسه يرتفع المستوى المعيشي للشعب. هل سألتم يوماً كيف تمكنت الصين من فعل ذلك؟ أليس هذا أيضاً سراً يجب أن نبحث عن مفاتيحه؟ مع العلم ان الصين وعكس الكثير من البلدان لم تعمد إلى احتلال أو استعمار غيرها من البلدان والشعوب للاستيلاء على ثرواتها وقوة سواعد أهلها لإنجاز نهضتها، بل على العكس، كانت هي نفسها محتلة ومستعمرة، وحتى اليوم مهددة بوحدة أراضيها، كما في قضية تايوان وهونغ كونغ. كما أن الصين نالت استقلالها في الوقت نفسه تقريباً الذي تحررت فيه معظم «دول الجنوب» من قبضة الاستعمار. وكغيرها من الدول، كان هذا التحرر ثمرة نضالات وتضحيات ملايين البشر. وبهذا المعنى، فإن الصين بنت قوتها الاقتصادية بالاعتماد على العوامل الذاتية، والاستثمار في إمكاناتها التي كانت بشكل أساسي قوة الشعب. ولكن لماذا تمكنت الصين من تحقيق هذا الإنجاز بينما لم يُتح لبلد آخر، كالهند، يماثلها بعدد السكان والجغرافيا وحتى تاريخ نيل الاستقلال، أن يحقق ما حققته الصين؟

عملياً ليس هناك سر بل تفسير: فالاستقلال غير كاف وحده فكيف إن كان استقلالاً ناقصاً، أي سياسياً دون المستوى الاقتصادي؟ فهل يمكن فصل هذين المستويين؟ أبداً. أنت بحاجة إلى قائد يستطيع إنجاز التكامل بين الاتكال على الذات والاستثمار في إمكانات البلد. أي استنهاض قوة الشعب لتحقيق الأهداف. وهذا تحديداً ما حصل في الصين. ففي هذا الأخير حصلت ثورة فعلية، بغضّ النظر عن تقييمنا الأيديولوجي أو السياسي لها. هذه «الثورة-الأم» التي كان يقودها حزب اسمه الحزب الشيوعي الصيني هي من حكمت البلاد منذ العام 1949. ولهذه الثورة أهداف بدءاً

بـ«الغذاء والكساء لكل صيني» وصولاً إلى «تحقيق أحلام الأمة الصينية بالنهوض»، وأيضاً «سعادة الشعب الصيني». لا بل إنه وخلال السنوات الماضية، تطورت هذه الشعارات لتصبح: «تحقيق السعادة للشعب الصيني والبشرية»، أو ما يطلق عليه هنا في الصين تعبير«مصير مشترك للبشرية». ومنذ ذلك الحين، وضعت أهداف ثابتة وخطط مرنة للسنوات المئة المقبلة، يسميها الصينيون «أهداف المئويتين»: أي مئة سنة على تأسيس الحزب الشيوعي الصيني (2021) حيث سيتم القضاء النهائي على الفقر، و مئة سنة أخرى على تأسيس الصين (2050) حيث يسعى الصينييون إلى إنجاز بناء دولة «اشتراكية حديثة مزدهرة وقوية وديمقراطية ومتقدمة ومتناغمة».

وإلى اليوم، يأتي رؤساء ويذهب آخرون، إلّا أن هذه الأهداف لا تتغير، عكس الخطط التي تخضع للتقييم والتطوير والتغيير حسب الظروف التي تفرضها كل مرحلة. حصل ذلك مثلاً في النقلة النوعية على مستوى الفكر الاقتصادي والسياسي عام 1979. عندما اعتمدت الصين سياسة «الإصلاح والانفتاح». وبهذا المعنى، يصبح واضحاً أن الصين لا يحكمها شخص، بل حزب، وصل إلى الحكم نتيجة ثورة. وإلى اليوم لا يزال الحزب والشعب يتناغمان من أجل تحقيق أهداف الثورة، التي هي نفسها تلك الأهداف التي ذكرناها سابقاً. وهكذا، كانت الصين تنمو على مدار السنوات الماضية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

قد يسأل سائل: وهل كانت الأمور وردية إلى هذا الحد؟ طبعاً لا، الثورة كما يقول مهدي عامل هي «طمي الأرض لا يعرفها من يخاف على يديه من وحل الأرض» وبهذا المعنى يعرفها أيضاً بأنها لن تكون نظيفة فهي «التي تخرج من أحشاء الحاضر متسخة به». وبالتالي، فعلى مدى هذا المسار الطويل، حصلت الكثير من الإخفاقات، إن كان على المستوى النظري أو العملي. والشيوعيون الصينيون أنفسهم يعترفون بذلك، لا بل كانت لديهم الجرأة لنقد مراحل كاملة من تاريخهم.

فمثلاً، سياسة «الإصلاح والانفتاح» هي في ذاتها قضية إشكالية كبيرة، كانت بمنزلة انقلاب على ما كان سائداً قبلها. حتى أن الكثير من الأحزاب الشيوعية في العالم يسقطون صفة الشيوعية عن الحزب الشيوعي الصيني لجرأته في إنتاج مهام تعتبر من «خارج الصندوق».

على المستوى الداخلي أيضاً، هناك تحديات كبيرة يعرفها القادة الصينيون جيداً، وهي تهدد كل المنجزات التي تم تحقيقها إلى الآن، لذا فقد تم وضعها على رأس سلم الأولويات. فخلال سنوات

التقدم التي أنتجتها سياسة الإصلاح والانفتاح، رافق ذلك سلبيات كثيرة، منها الفساد وعدم المساواة في الدخل والفجوة بين الريف والمدينة وبين شرق وغرب الصين بالإضافة إلى القضايا البيئية. فمثلاً، بعد أن وصلت مستويات الفساد إلى مراحل متقدمة باتت تهدد الإنجازات، اعتمدت الصين سياسات صارمة في هذا المجال أطلق عليها سياسة «ضرب النمور والذباب واصطياد الثعالب». ويقصد بـ«النمور» كبار الفاسدين، وأما الذباب فهو صغارهم. ماذا عن الثعالب؟ يقصد بهم أولئك الفاسدون الذين نجحوا في الهروب خارج البلاد.

حسناً، هل يمكن تفسير ما حصل في ووهان خارج هذا المسار النضالي التاريخي للشعب الصيني؟ قطعاً لا. إنه الأمر نفسه يتكرر دائماً، في النضال من أجل الاستقلال وتوحيد البلاد، وفي النضال من أجل النهوض الاقتصادي والاجتماعي، واليوم في النضال من أجل الحفاظ على صحة الناس. إنه المسار نفسه. لذا لا يصبح مستغرباً نجاح الصين، وهذا هو السر إن كان هناك من سر. فمن جهة، التزام الشعب وقدرته على التحمل في سبيل تحقيق الأهداف، ومن جهة أخرى، التخطيط والقيادة السليمة في الحرب التي تخاض للقضاء على الفيروس. هكذا، سُخرت كل الإمكانات، وبعد صبر وقتال شرسين، وصلوا إلى مرادهم. إنه مخاض ولادة الصين الجديدة، صين ما بعد الفيروس لن تكون أبداً ما كانت عليه قبلها، بل موحّدة أكثر ومثابرة أكثر وآمل أن تكون مقاتلة على المستوى الدولي أكثر، أي أن تقف بشكل حازم أكثر في وجه العدوانية الأميركية.

من ينظر إلى الصين وما يجري فيها من هذه الزاوية، سيستطيع حكماً التحرر من الأفكار المسبقة التي نتشربها يومياً على شكل أيديولوجيا تأتينا عبر التلفاز والمناهج التعليمية والأفلام الهوليوودية وغيرها من أساليب بناء الأيديولوجيا الإمبريالية المعادية لتحرر الشعوب. هذا التزييف للوعي يجعلنا نضيّع التمييز بين الخطأ والصواب، فيصبح مثلاً عدو الساسة الأميركيين عدوّنا، لا لشيء إلّا لأنه عدوهم ولا يؤمن بقيمهم.

يقول نلسن مانديلا وهو يجيب أحد الإعلاميين الأميركيين الذي سأله عن سبب علاقته ببعض قادة الدول مثل كاسترو وياسر عرفات وغيرهما على الرغم من أنهم «لا يلتزمون بمعايير حقوق الإنسان»، حسب رأي هذا المراسل الذي عبّر عن خيبة أمله بعلاقات منديلا هذه بعد خروجه من معتقلات التمييز العنصري. فأجابه مانديلا «واحد من الأخطاء التي يرتكبها المحللون السياسيون هي أنهم يعتقدون أن أعداءهم يجب أن يكونوا أعداءنا. لدينا نضالنا الخاص الذي كان

قائماً، نحن شاكرون للعالم لدعمه نضالنا، ولكن نحن منظمة مستقلة بسياساتها الخصوصاً وموقفنا تجاه أي بلد يتحدد بموقف ذلك البلد تجاه نضالنا. ياسر عرفات وفيديل كاسترو ومعمر القذافي دعماً نضالنا إلى أقصى حد، لذا لا يوجد أي سبب على الإطلاق يجعلنا نتردد حول الإشادة بما فعلوه تجاه حقوق الإنسان، كما فعلوا في جنوب أفريقيا. يستند موقفنا فقط إلى حقيقة أنهم يدعمون بشكل كامل النضال ضد الفصل العنصري، هم لم يدعمونا فقط بالخطابات، إنهم يضعون كل إمكاناتهم تحت تصرفنا ومن أجلنا لانتصار قضيتنا. هذا هو الموقف».

وطبعاً هذا هو الموقف، صديقي هو من وقف إلى جانبي عندما احتجت إليه. وعدوي هو من لا يفوت فرصة كي يعتدي عليّ. على هذا الأساس، كم حرب شنت الصين علينا نحن العرب؟ صفر. في المقابل، هل نحن بحاجة لتعداد حروب وتآمر الولايات المتحدة والغرب بشكل عام علينا؟

في إحدى المقابلات المباشرة، سألتني المحاورة سؤالاً طرحه عليها أحد متابعي برنامجها: «هل صحيح أن استطاعة الصين السيطرة على الفيروس كانت بفضل نظامها الديكتاتوري؟ خصوصاً وأنهم يملكون داتا كبيرة ومفصلة عن كل المواطنين بما فيها معلوماتهم الشخصية؟».

وجدت أن السؤال جيد، ويفتح النقاش على أسئلة مهمة بتنا نعتبر الإجابة عنها من البديهيات. لا ضير إذاً من إعادة النظر بتلك البديهيات على ضوء هذه الأزمة العالمية لكورونا.

أجبت السائلة بما يلي «كل بلد في العالم له نظامه الخاص، هناك أنظمة ملكية ودول يحكمها حزب واحد أو حزبان وإلى ما هنالك، ولكن بغض النظر عن تعريفنا للنظام وتسميته بناء على خلفياتنا السياسية والأيديولوجية، الآن المهم هو النتيجة، هنا تم إيقاف الاقتصاد كله وتسخير كل الإمكانات من أجل حماية الناس، في المقابل من تسميهم «ديمقراطية» يعدّون للناس الكمامات التي وفروها لهم، وكأنهم يعيّرونهم بذلك، وبالمناسبة، هل النظام الأميركي ديمقراطي بالمعنى الغربي المثالي للكلمة؟ أليس هو نظام الحزبين بدل الحزب الواحد؟ أليس نظاماً يتحكم في قراراته المال السياسي بشكل مشرّع قانوناً؟. وأكثر من ذلك، ألا يجب إعادة النظر «بديمقراطية» تنتج رجل معادياً للعلم، عنصرياً، مدافعاً عن مصالحه الخصوصاً على حساب مصالح شعبه، داعياً لحقن الناس بالمطهرات؟

هل تبقى الديمقراطية صالحة في ظل العنصرية والتمييز بين المواطنين؟ وهي الآفات التي كان من المفترض أن يتحرر منها البشر منذ عقود؟ كيف تسكن الديمقراطية والعنصرية تحت سقف واحد؟ تخيلي مثلاً أن أقول، أنا نظام ديمقراطي لكن أميز بين السود والبيض، ما هذه الديمقراطية؟ إنها أبشع أنواع الديكتاتورية، إنها أنظمة الفصل العنصري.

حسناً، بعيداً عن تقييم الآخرين، إن كانت ما تسميها بـ«الديكتاتورية» تؤدي إلى السيطرة على واحد من أخطر الأوبئة التي عرفتها البشرية، بينما الأنظمة الأخرى «الديموقراطية» أو الملكية أو غيرها من الأنظمة تفشل، ألا يكون علينا إعادة النظر في موقفنا منها؟ ولكن، وبغض النظر، إن وصف النظام الحاكم في الصين بأنه ديكتاتوري، هو غالباً موقف سياسي-أيديولوجي من هذا البلد الذي يسمي نظامه «اشتراكية ذات خصائص صينية» وليس «ديكتاتورية». وبكل الأحوال فإن تعريف الديمقراطية هو نفسه تعريف أيديولوجي. فهي مثلاً حكم الأكثرية، من أجل ماذا تحديداً؟ من أجل مصالح الشعب؟ أو مصالح الـ (1%) الأغنى كما يسود في ما يسمى «العالم الحر» اليوم؟. ومن سماه أصلاً العالم الحر؟ ولم نعتمد نحن هذه التسمية؟

يقول يانيس فاروفاكيس (Yanis Varoufakis) وهو وزير مالية اليونان في الحكومة التي تشكلت بعد الانتخابات التي نتج منها فوز حزب «سيريزا» اليساري بما يشبه «الثورة الديمقراطية»: بدأ المفاوضون الأوروبيون بالثابتة التالية: لا يمكن السماح للعملية الديمقراطية في اليونان أن تتدخل في السياسات الاقتصادية!». هذا يعني بكل بساطة ان للديمقراطية في الغرب حدوداً تقف عند المستوى السياسي، وفي المجال الاقتصادي تمارس أبشع أنواع الدكتاتوريات.

وبما أن المجال الاقتصادي يتحكم في القرار السياسي، فتصبح الدكتاتورية مقنّعة «بديمقراطية سياسية» مزيفة، الهدف منها نهب الناس وإيهامهم أنهم أحرار. في ندوة لفاروفاكيس بعنوان «الرأسمالية ستأكل الديمقراطية»، يتحدث عن وجهة نظره حول الرأسمالية والديمقراطية بناء على تجربة مباشرة. فيستنتج أن الرأسمالية لم تكن يوماً مع الديمقراطية الحقيقية، ومن الخطأ اعتبار الثانية نتاجاً للأولى. كما يشرح كيف أن فصل المجال السياسي عن الاقتصادي، وحصر «الديمقراطية» الليبرالية في المجال السياسي، أدّى إلى سيطرة المجال الاقتصادي على السياسي، وبالتالي أصبح من الطبيعي أن نرى حكومات ووزراء ليس لهم أي سلطة، بل السلطة الفعلية هي في يد الدائنين وأصحاب الثروات.

فهل هو ممكن أن نجيب عن سؤال تعريف الديمقراطية على أنها «حكم الأكثرية من أجل ماذا تحديداً؟». نعم ممكن، من أجل مصلحة الواحد بالمئة. لذا، فهذه المقولات هي مقولات أيديولوجية نسفها من كان يعاني هذه الأكاذيب داخل المجتمعات «الديمقراطية» نفسها، أي من كان يعاني التمييز العنصري والعبودية والاستغلال الطبقي داخل «العالم الحر».

يقول «جيمس بالدوين» سنة 1965 وهو أحد القادة ضد التمييز العنصري في الولايات المتحدة، واصفاً كذبة ما يسمي بـ«الحلم الأميركي»: «إن تحقيق هذا الأخير كان على حساب الأميركي الأسود». وأضاف «لقد قطفت القطن، وحملته إلى السوق، وبنيت سكك الحديد، كل ذلك من أجل لا شيء».

كنت قد أجبت آلاف المرات خلال السنوات الأخيرة عن سؤال كهذا، لذا بالنسبة لي كان أمراً ممتعاً أن أزوّد الناس بمعلومات يجهلونها عن هذا البلد الذي بحكم دراستي وإقامتي كنت قد درست تاريخه الاقتصادي، لذا قلت لها مضيفاً إلى الإجابة: «في العام 1990 كان (67%) من الشعب الصيني تحت خط الفقر. أي ما يقارب 755 مليون إنسان. وما يعادل حينه حوالي (15%) من سكان الكوكب. لكن بفضل التخطيط والقيادة السليمة من جهة، وإصرار ونضال الشعب من جهة ثانية، والأهم بسبب الثقة المتبادلة والتناغم بين ما يحتاج إليه الشعب وما تطرحه الحكومة. أدى كل ذلك، وبحلول العام 2015، إلى انتشال 723 مليون إنسان من الفقر. واليوم هناك فقط (2.5%) من الشعب الصيني تحت خط الفقر، إن كان هذا اسمه ديتكاتورية، فأنا مع الديكتاتورية التي تنجز أموراً كهذه».

أما الملاحظة الثانية، فهي الادعاء بأن «الغرب الديمقراطي» لم يقم بإجراءات التتبع التي قامت بها الصين، لأن ذلك منافٍ للديمقراطية! ألا يستحق هذا الكلام التوقف ملياً عنده؟ هل أتكلم عن كم الفضائح التي تم نشرها في السنوات الماضية، عن التجسس على مواطني دول «ديموقراطية النظام» عبر التنصت على هواتفهم ومراقبة محتويات بريدهم الألكتروني أو تجميع الداتا عبر فايسبوك وبيعه للشركات لأهداف تجارية وإلى ما هنالك؟ أو الأفضل مراجعة وثائق ويكيليكس للتعرف إلى نوع ديمقراطية الغرب؟ ولتوفير الوقت أليس الأفضل أن نسأل عن مصير جوليان أسانج، مؤسس الموقع نفسه، الذي يعاني حتى اليوم من الاعتقال التعسفي في بريطانيا بظروف يشوبها احتمال التسبب بموته، والمحاكمة الجائرة التي يخضع لها هناك بأمر من الولايات المتحدة

الأميركية، فقط لأنه نشر ما تقوم به بعض حكومات «الغرب الديمقراطي» سراً وعبر سفاراتها والتي تخالف فيها قوانين وضعتها بنفسها، وقيماً ترفعها في الظاهر وتخالفها في الباطن وتعمل سراً عكس إرادات شعوبها.

لكننا هنا لن نناقش في الأنظمة وفاعليتها وحسن أو سوء إدارة الحكام، ما يهمّنا هنا القول، إن الغرب لم يقم بما قامت به الصين لأنه ببساطة لا يملك القدرة أو النية للقيام بذلك، حيث أن هذا الموضوع، أي بناء قدرات تكنولوجية ضخمة يمكن الاستفادة منها وتطويعها لخدمة الناس في فترات الأزمات الكبرى، لم يقوموا بها ولم تكن أصلاً من أولوياتهم.

في الحرب تفرض حالة الطوارئ. تذهب الدول إلى الحرب لتحقيق أهداف، وتستخدم كل ما هو ممكن من أجل ذلك. لو كانت للدول الغربية ذات «النظام الديموقراطي» القدرات، ولو كان لحكامها منفعة خصوصاً مباشرة لما ترددوا في استخدامها. تماماً كما استخدموا القنابل الذرية للانتصار على اليابان، خارج أي رادع أخلاقي أو اهتمام بمصير البشر. إلّا أنهم بنوا أنظمة لدول منحازة تماماً لنخب حاكمة، كل هدفها زيادة الثروة والقوة، على حساب الشعوب بمن فيها شعوبهم.

الإنسان أولاً

كيف سيكون العالم بعد أزمة كورونا؟ لا شك أن هذا سؤال يطرحه الكثيرون. يمكن القول إن الكثير من المفاهيم التي كانت تعتبر من البديهيات يجب إعادة النظر فيها، خصوصاً موضوع مجتمع الاستهلاك الذي دخلنا في نفقه منذ عشرات السنين وأفقدنا معنى الحياة. حيث أصبحنا مجرد آلات استهلاكية، نهضم ما هو نافع وما هو عكس ذلك، وكله بتوجيه من شركات دعائية ضخمة توجه وعينا حول ما تريده أن يكون أولوياتنا. ألا يستحق أن نفكر في كل ذلك الآن؟ لقد مرّت أكثر من 4 أشهر ولم أشتر أي منتج خارج ضروريات الطعام والشراب. هل لهذا تأثير في سعادتي؟ أو سعادتك؟ أبداً. أنا لا أقول إنه يجب العودة إلى عصور خلت، والتخلي عن كل ما أنتجه التطور، على العكس، فقط هي دعوة للتفكير، دعوة للتحرر من ثقافة الاستهلاك التي هي الاستغلال الرأسمالي. وتجربة العزل هذه هي أهم درس لنا حيث تعلمنا الكثير.

العالم لن يكون كما قبل، هذا ليس استنتاجاً، بل هذه دعوة. أي، دعوة للتغيير، للانتقال إلى نظام يقدس الإنسان لا المال، يساعد البشرية على تخطي الأزمات المصيرية التي تعصف بها، يفتح الأفق أمام إبداع القوى المنتجة وليس خنقها ضمن مخططات تخدم مراكمة فائض القيمة لقلة قليلة تدير العالم. يجب أن تسود لغة التضامن بين الأمم، يجب استكمال مخاض ولادة العام الجديد، ودفن القديم غير مأسوف عليه. إنتاج عالم يعتبر الإنسان أولاً، وكل شيء آخر هو في خدمته.

أما على مستوى تقييم تجربة التصدي للجائحة، التي قد تظهر لنا الفرق بين نهجين على المستوى العالمي. فلنطرح هذا السؤال الذي طرح عليّ مئات المرات: هل تأخرت الصين في الإجراءات؟ حقاً؟ وما هي هذه الإجراءات التي كانت مطلوبة من الصين ولم تقم بها؟ فعندما اتخذت قراراً «كلاسيكياً غير مسبوق» حسب توصيف منظمة الصحة وقررت عزل 51 مليون إنسان، كان

العالم منقسماً بين مستغرب ورافض لهذا الإجراء! لكن السلطات لم تكترث لهذه الآراء، لأنه بكل بساطة كانت متيقنة أنها هكذا ممكن أن تحمي الشعب.

لم يكن قرار إغلاق ووهان سهلاً. كان تقدير علماء الأوبئة في الصين أننا أمام فيروس سريع الانتشار، ولا يمكن إيقافه إلّا من خلال العزل. وضعت هذه الخلاصة أمام القيادة الصينية في بكين. وكانت تتضمن اقتراحاً يقول بوجوب إغلاق مدينة ووهان ومقاطعة هوبي تماماً. من المرجح أن تكون هذه الخلاصة ناتجة من اجتماع لجنة الصحة الوطنية في الصين، التي عقدت اجتماعاً طارئاً في 20 كانون الثاني/يناير بعد عودة «الجبل» من ووهان.

كان على القيادة السياسية أن تختار بين أن تغلق ووهان وتتحمل التداعيات الاقتصادية الضخمة لذلك، أو أن تتصرف على أساس البروتوكولات المعتمدة عالمياً، التي لا تتضمن إجراءً ضخماً كهذا والذي لم يكن قد سبق تنفيذه في أي مكان. لكن عندئذ، سيكون الإنسان هو الضحية.

نحن نتكلم عن عزل ما يقارب 50 مليون إنسان. التجارب التاريخية تقول إنه لا يوجد أي دولة في العالم لجأت إلى مثل هذا الخيار. بل التجربة القريبة في الزمن، ونعني بذلك جائحة 2009 التي انطلقت من الولايات المتحدة، لم يتم التلميح خلالها حتى إلى إجراء كهذا، بل ترك العالم لمصيره، حتى أنه لم يتم إيقاف الطيران إلى الولايات المتحدة.

لذا، وفي صباح 21 كانون الثاني/يناير، كان على طاولة المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني تقرير يخيّره بين خيارين: الاقتصاد أو الإنسان. وكان عليه أن يتخذ قراراً تاريخياً قد يحمل تداعيات كبيرة ليس أقلها تراجع غير مسبوق للاقتصاد الصيني أو حتى انهيار تام كان يتمناه الخصوم.

اتخذ القرار: ووهان ستغلق تماماً، وكذلك مقاطعة هوبي.

تصف مجلة «نايتشر» Nature هذه الإجراءات بأنها «إجراءات غير مسبوقة في محاولةٍ لاحتواء تفشي الفيروس». كان هناك انقسام حول هذه المسألة: فكثير من الدول الغربية ووسائل إعلامها اعتبرت هذا الإجراء بأنه «تقويض لحقوق الإنسان»، أما الوسط العلمي في هذه الدول، فكان بمعظمه مؤيداً لخطوة كهذه، ولو مترافقاً بعض الشيء بالدهشة لضخامتها. قال الدكتور ويليام

شافنر وهو أستاذ الطب في قسم الأمراض المعدية في جامعة فاندربيلت، تينيسي: «هذه أكبر تجربة للصحة العامة في تاريخ البشرية. وقد وفرت لبقية العالم بعض الوقت الإضافي».

اليوم ومع تسجيل صفر إصابات، يمكننا البدء بالتقييم: لقد جنب هذا القرار التاريخي الصين مئات آلاف الضحايا وملايين الإصابات. وبالتالي على مستوى حماية الإنسان كان هذا خياراً صحيحاً. إلّا أن كلفته الاقتصادية كانت ضخمة.

فأن تغلق مدينة مثل ووهان، تعتبر التاسعة في الأهمية اقتصادياً على مستوى الصين (الناتج المحلي الإجمالي (GDP) 219.37مليار دولار سنة 2018)، وتضم أهم معامل إنتاج الحديد والفولاذ وكذلك مصانع السيارات ويوجد فيها فروع لأكثر من 300 شركة من بين أهم 500 شركة عالمية، لهو قرار أكثر من شجاع وأخلاقي. والأهم من ذلك هو الموقع الجغرافي لووهان، فهي تعتبر عقدة مواصلات أساسية في الصين، إن كانت برية عبر القطارات أو نهرية عبر نهر يانغتسي. لقد أغلقت المدينة في ذروة استخدام المواطنين لوسائل النقل البري بمناسبة عطلة الربيع كما كنت قد أشرت بداية كلامي، خصوصاً شبكة القطارات السريعة، التي من الصعب أن تعمل إن كانت ووهان مغلقة. فمعظم الرحلات يجب أن تمر بها، وبالتالي أدى إغلاقها إلى خسائر ضخمة في هذا القطاع. كما أن إجراءات الإغلاق الكامل الذي اتخذ قراره كان يعني إيقاف كل أنواع الإنتاج في ووهان. وهذا كان يعني تراجعاً بنسبة مئة بالمئة في الإنتاج، أي الكارثة.

هذه التقديرات كانت طبعاً حاضرة أمام القيادة السياسية. لا بل أعتقد أنه كانت لديهم تقديرات أسوأ من ذلك، فليست ووهان وحدها التي أغلقت، بل مجمل الاقتصاد الصيني شلّ بشكل مباشر. إلّا أن الخيار كان حاسماً: الأولوية هي لحماية الناس.

سئل السفير الصيني في لبنان «وانغ كيجيان» عن الكلفة التي دفعتها الصين خلال العزل، فكان جوابه «الثمن الأغلى الذي دفعناه كان تلك الأرواح التي سقطت نتيجة إصابتها بالفيروس، هذه هي الخسارة الكبرى، كل شيء آخر من الممكن تعويضه». فالناس هم أهم وأثمن رأس مال، هم من يصنعون القيمة، ومن دونهم لا قيمة لأي شيء. أما الاقتصاد فهو في خدمتهم وليس العكس.

الاقتصاد أولاً

وماذا عن الغرب؟ ألا يجوز طرح السؤال نفسه؟ بلى تأخر الغرب في اتخاذ الإجراءات اللازمة لتطويق الفيروس والقضاء عليه كما أوضحت سابقاً.

أما الأخطر حالياً من التأخر في اتخاذ الإجراءات هو التبكير في إيقاف إجراءات العزل. فإن تأخرت في الإجراءات منذ البداية سيؤدي ذلك إلى كارثة صحية على مستوى بلدك. ولكن إن أوقفت الإجراءات قبل السيطرة على الفيروس، فهذا سيجعل من بلدك بؤرة ومركز انتشار جديداً للفيروس إلى العالم. أنت تعلم اليوم أنه لديك آلاف، لا بل ملايين الإصابات، فلم لا تفرض استمرار سياسة التباعد الجسدي، وهو الأساسي في سياسة العزل لا بل تدعو إلى إعادة فتح المدن للتجوال الحر قبل تسجيل صفر إصابات؟

ما معنى هذا؟ المال والسيطرة أليس كذلك؟

لنقارن بين سلوكين: من المعروف أنه على الرغم من تسجيل صفر إصابات في ووهان، إلّا أنه كباقي مدن الصين، لن يتم فتح المدينة وإعادتها إلى طبيعتها قبل تسجيل صفر إصابات لعدة أيام متتالية.

وهذا الأمر ليس عبثياً، حيث تظهر دراسة[13] نشرت في مجلة «ذا لانسيت» في 25 آذار/ مارس عن تأثير تخفيف إجراءات التباعد الاجتماعي في النتائج المحققة في عملية السيطرة على الفيروس، ان موعد الثامن من نيسان/إبريل الذي حدد لإعادة فتح كل المرافق العامة في ووهان، هو موعد دقيق جداً من حيث المحافظة على الإنجاز الذي تم تحقيقه. وكذلك لمنع نشوء موجة انتشار جديدة للفيروس بشكل سريع.

ولنأخذ مثلاً آخر. في الولايات المتحدة تأخرت إجراءات العزل حتى أواسط شهر آذار/ مارس 2020، أي شهراً ونصف الشهر منذ ظهور الإصابة الأولى في الولايات المتحدة. كان الفيروس قد انتشر بشكل واسع جداً، خصوصاً في مدينة نيويورك، وعلى الرغم من ذلك، فلم تشمل الإجراءات كل الولايات. كما برزت مشاكل عديدة على المستوى الصحي أهمها عدم توافر التجهيزات التي تحتاج إليها مراكز العلاج. هذا بالإضافة إلى المنافسة في الحصول على تجهيزات حيث بدأت الولايات بالمضاربة بعضها على بعض بدل التعاون، وهذا أمر اشتكى منه علناً حاكم ولاية نيويورك. نتيجة لكل هذا، كان الفشل في المواجهة هو المتوقع. لذا، وعندما بدأت الولايات المتحدة تحصد نتائج هذه التصرفات اللامسؤولة، بدأت مرحلة لوم الآخرين.

ولكن الأخطر من كل ذلك هو الإصرار على التصرف بخفة صبيانية بقضية موت أو حياة الملايين. سئل الرئيس الأميركي في أحد المؤتمرات الصحفية عن سبب قوله إنه سيعيد فتح الولايات المتحدة مجدداً في عيد الفصح، فكان جوابه «لأنه تاريخ جميل، أليس كذلك؟ بلى إنه كذلك».

هذا النوع من التصريحات أغضب العلماء الأميركيين كثيراً، حتى داخل الفريق الصحي في البيت الأبيض، حيث خرج الدكتور فوتشي ليعلق على هذه التصريحات قائلاً «نحن لا نستطيع تحديد موعد للفيروس، هو من يحدد لنا الموعد»، ورفض إعادة الفتح في عيد الفصح. وعلى الرغم من استجابة الرئيس الأميركي للتحذير هذ المرة، إلّا أنه استمر في إطلاق التصريحات التي تقول بأن أميركا يجب أن تعود إلى العمل، وهي تصريحات شعبوية تستهدف غرائز اليمين الأميركي، الذي بدأ يخرج بتظاهرات مسلحة للمطالبة بإعادة الفتح.

علق أحد الأصدقاء الافتراضيين على نص نشرته على صفحتي على فيسبوك قائلاً: «لقد أصبح الأمر نافراً من حيث دفاعك عن الصين، أنا فقط ألفت نظرك». كنت أتوقع أن ينظر الكثيرون إلى ما أقوم به على أنه دفاع أو حتى انحياز أعمى إلى الصين. وعلى الرغم من أني كنت واضحاً جداً منذ اليوم الأول على بدء نقلي لما يحدث في ووهان، حيث قلت إني سأنقل الحقيقة في وجه كل الإشاعات والتضليل والفبركات الإعلامية والسياسية. لذا أجبت ذلك الصديق، «منذ اليوم الأول ومنذ الساعة الأولى أنا أدافع عن الحق في وجه الكذب والافتراء والتضليل. لذا فإن دفاعي هو ليس عن بلد في ذاته، بل عن كل الشعوب، أليس الشعب الأميركي الذي تخطت الإصابات فيه النصف مليون

إصابة ضحية لهذه الأكاذيب؟ منذ اليوم الأول أدافع عن كل البشر، ولن أتراجع حتى لو بقيت وحيداً، كلما كان هذا الأمر نافراً كان لي الشرف أكثر».

واليوم، وأنا أنهي ما بدأت كتابته، لا بل على مدى كتابة هذه الكلمات، كنت أقول لنفسي، ألن تقرأ الناس في كلماتي انحيازاً إلى دولة دون أخرى أو شعباً دون آخر؟ ربما. لكني مقتنع بالجواب نفسه: أولاً، الانقسام على المستوى العالمي والوطني هو دائماً انقسام طبقي وليس عرقياً أو قومياً، وبالتالي أنا منحاز لمصلحة الشعوب في وجه مستغليهم أينما كان هذا الشعب، وتجربة هذا الوباء تقول لنا إنه على الشعوب أن تتحد في وجه قاتليها لأنه لا خلاص إلّا بالوحدة. وبالتالي إن ملحمة ووهان هي المعنى الحقيقي للقوة التي يمكن أن ينتجها اتحاد الشعب، ولكن المفارقة أنه هنا في ووهان يوجد نظام منحاز لمصلحة شعبه وليس لمصالح الطغم المالية الحاكمة. لذا فهذه المدينة تمكنت من الانتصار بفضل كل ما قامت به الصين دولة وشعباً، وهذا الأمر ليس بتنبؤ، بل واقع يؤكده العلم وأعيشه يومياً هنا في ووهان، بهذا المعنى أنا لا أستند إلى توقعات بل إلى نتائج تم تحقيقها بالنضال والتضحية. في المقابل، تعاني الكثير من الشعوب الأخرى أنظمة ظالمة مجرمة، لم تعط أهمية لحياة شعبها وهذه حقائق بات الكل يعرفها. إذاً، أنا منحاز للشعوب دائماً، إلّا أن المشكلة والحل تكون في النظام، فإما أن يكون نظاماً يقدس الإنسان وبالتالي يرفع قيمته، وإما يكون مقدساً للمال ويسهم في إذلاله، وأنا قطعاً منحاز لذلك الذي يقدس الإنسان لا المال. الحقائق لا الأكاذيب. فمن حق الناس أن يعرفوا الحقيقة، لأنه بدونها ستتمكن الأنظمة من استعبادهم. وفي زمن الأوبئة، التضليل والأكاذيب ستؤدي إلى خسارة مئات آلاف الأرواح.

اليوم، وأنا واحد من البشر على هذه الكرة الأرضية أخشى القادم عندما أرى دولاً مثل الولايات المتحدة، تسعى لإعادة الحياة إلى طبيعتها على الرغم من أن الفيروس لا يزال منتشراً بشكل كبير جداً، فقط لتطبيق نظرية «الاقتصاد أولاً». فالاختلاط مجدداً بشكل مبكر، قد يؤدي إلى موجة ثانية أشد فتكاً. وكذلك موضوع اللقاح، بدأت محاولات عرقلة جهود إنتاجه وذلك خدمة للوبي الدواء الذي سيطر منذ عقود على هذا القطاع، وتحكم في صحة ومصير الناس. بالرغم من كل ذلك، قادة هذه الدول يقولون مصالحنا الاقتصادية أهمّ، على الناس أن يعودوا إلى العمل حتى لو أدى ذلك إلى فنائهم. هل كان موقف الطبقة المستغِلة في التاريخ غير ذلك؟ إنه نموذج جديد من الاستغلال حتى الموت.

إن مصير البشرية لا يمكن أن تتحكم فيه مجموعة من الوحوش.

«يمكننا أن نقول.. لقد عشنا»

كنت أنتظر لحظة الخروج إلى شوارع ووهان مجدداً. منذ أن طلب منا عدم الخروج أبداً، أصبحت يومياً أخرج إلى الشرفة، أنظر إلى الشارع الفارغ تماماً، إلى المتاجر المقفلة، أراقب الأشجار الشاهقة الارتفاع وهي تبدّل أوراقها، يطول الأمر، فتبدأ باكتساء لون أخضر. انتظر العمال الذين يغسلون الطرقات مرتين في اليوم، إنهم رمز للانتظام والالتزام. عندما يأتون عند طلوع شمس الصباح، أذهب إلى النوم، ويكون قد مر عليّ يوم جديد من أيام العزل، أو الحجر، أو النضال. كنت ممتلئاً شوقاً للخروج. فالخروج يعني النصر في المعركة. وهل هذا بسيط؟ أبداً، إنها ملحمة في الصمود والقتال سيذكرها التاريخ. إنها حياة جديدة تُكتب لنا.

النصر بعد نضال شاق هو بالنسبة لي المعنى الحقيقي الوحيد للحياة. أنا الذي اخترت هذه الطريق منذ صغري، وأدمنتها. ما أن أخرج من معركة حتى أدخل في أخرى. أصبحت حياتي أشبه بالحياة القائمة على حب الناس، لا بل حب المقهورين منهم. أسأل نفسي دائماً هل هذه رومنسية نضالية أبعدتني عن الواقع؟ وإن كانت كذلك، ما همني، فأنا سعيد جداً حتى لو أني لن أحصل على أي مقابل شخصي بمباشر، فما أريده قد تحقق. إذاً، ها هي الحياة تضعني أمام تجربة جديدة، تمتحنني مجدداً، تقول لي، هل اقتنعت أكثر أنه «على هذه الأرض ما يستحق الحياة»؟ ولن تحصل عليه إلّا بالنضال، بالقتال، بالتضحية وحينئذ فقط ستعرف المعنى الحقيقي للسعادة. هذه تجربة جديدة، أقرأ منها شعراً قرأته آلاف المرات، فمن المستحيل أن أنسى في لحظات كهذه ناظم حكمت، أشعاره تتداخل في رأسي لتزيد سعادتي وتوقد ناراً من المشاعر. يقول مخاطباً زوجته مقدماً لها معنى الحياة، والذي هو لا شيء خارج النضال من أجل مبادئنا «زوجتي، يا بديل روحي، أيا خديجة بيرايندة، إنني أفكر في الموت، وأفكر في حياتنا المنصرمة. حزين أنا مرتاح وغارق في دنياي. لا

فرق أينا يموت قبلاً وكيف وفي أي مكان، أنت وأنا استطعنا أن نحبّ بعضنا كما أحببنا أعظم قضية لدى البشرية. وناضلنا في سبيلها إذن يمكننا أن نقول: «لقد عشنا!»».

صباح 30 آذار/مارس، لقد حان الوقت للخروج مجدداً. خرجت من بوابة السكن وضحكتي خلف الكمامة لا يمكن وصفها. كنت أشعر أنني أطير لا أمشي. أخذت هاتفي، وبدأت تصوير فيديو مباشر. قلت، مع ضحكة تخفي صوتي «من شوارع ووهان مجدداً»، لم أكن أعلم كيف يمكنني أن أصف مشاعري، فمهما حاولت أن تصف ما تشعر به في لحظات كهذه سيظل قاصراً. في مثل مواقف كهذه، تتداخل العواطف بالأفكار، وتنتج تناقضاً يشبه البكاء عند الفرح. قلت «أنا فعلاً لا أسير على الأرض، أنا أركض، أو أرقص، كل ما أستطيع أن أقوله لكم إن 45 يوماً من الحجر المتواصل، و68 يوماً منذ إغلاق ووهان تبخرت تداعياتها السلبية بلحظات، تحولت إلى فخر واعتزاز»، كانت دموع الفرح تلك في عينيَّ.

وأيضاً تقودني أشعار ناظم حكمت، وأعيش كلماتها. يقول في قصيدته «ذبحة قلبية» التي كتبها في سجنه التركي سنة 1948 وهو يعبّر عن أهمية التضامن الأممي، «إذا كان نصف قلبي هنا أيها الطبيب، فنصفه الآخر هناك في الصين، مع الجيش الزاحف نحو النهر الأصفر...» كنت أشعر أنني ذلك الجيش، وما ذلك الزحف إلّا هذه الخطوات الأولى التي أخطوها الآن خارج المجمع السكني، كان ينقصني راية النصر، لأغرسها على ضفاف نهر اليانغتسي، معلنا نصراً جديداً للبشرية. نعم للبشرية.

في موقفي هذا الكثير من التداخل بين العقل والمشاعر، صحيح. فهكذا أصبحت علاقتي بهذه المدينة، بووهان. هي اليوم بالنسبة لي التجسيد الحقيقي للتضامن بين الناس من أجل حياة أفضل، هي المقاومة بكل معانيها، هي القوة الكبيرة للشعب، هي الأم التي وهبت لي حياة جديدة. وأنا أسير في الخارج، أنظر إلى الأماكن، إلى المحال، الساحات، الشجر. إلى أطفال يلعبون على ضفاف «البحيرة الجنوبية». أحاول أن أحفظ كل هذه المشاهد. لا أعلم متى سأرحل عن ووهان، ولكن لن أنسى هذه المشاهد، ولن أنسى من قاتل من أجل أن تعود الضحكة إلى وجوه هؤلاء الأطفال، إلى وجوه تستحق الفرح وتستحق الحياة.

هنا، انتهى الحجر المنزلي، وبدأت ووهان تعود تدريجاً إلى حياتها الطبيعية. ولكن لم تنته قصتنا مع الفيروس. فمعركتنا هي معركة الإنسان في كل مكان، وهي مستمرة إلى أن يحلّ الربيع

في كل مكان. إلى أن نقضي على هذا العدو، وكل عدو للإنسانية.

لقد حل الربيع في ووهان
30/3/2020

لم أكن أعلم كم سيطول ليل 22 كانون الثاني/يناير. لم أتوقع أن تستمر هذه الليلة 67 ليلة متواصلة، وأن يكون خروجي من المنزل بشكل طبيعي، مؤجلاً لكل هذا الوقت، على الرغم من أنني كنت مستعداً لهذه التضحية.

منذ أسبوع، كنت أتوجه يومياً إلى مدخل السكن حيث أنا، لأسأل إن كان مسموحاً لي بالخروج، وكان الجواب يأتي: «ليس بعد».

اليوم، كان الجواب الذي طال انتظاره. قال لي مع ضحكة لم أرها على وجهه المتعب من قبل «لقد حل الربيع». وكأن ذلك المتطوع ناضل 67 يوماً فقط، ليكون له شرف النطق بهذه الجملة.

اليوم بدأ الربيع في ووهان. اليوم ستنتهي أطول ليلة في حياتي. ليلة أضاءت سماءها ملايين النجوم. منهم من لم يستطع الانتظار ليسمع تلك الكلمات الثلاث، فقرر البقاء نجمة ستضيء سماء ووهان لأجيال وأجيال. ومنهم من لم ينم طوال ٦٧ يوماً، ليحول عتمتنا نوراً، فكان مثالاً للمقاتل في المجال الطبي واللوجستي والعلمي... ملايين أخرى، التزمت منازلها، صمدت، صبرت، قاتلت اللامرئي، فسطرت بذلك ملحمة لم يكن ليتخيلها الصينيون القدامى حتى في أساطيرهم.

اليوم، أخاف على شعوب تحكمها وحوش تقدس المال لا الإنسان. لذا سيكون إعلان النصر النهائي على الفيروس مؤجلاً، إلى أن يحل الربيع في كل البلاد.

هذا هو الأمل الذي لا أريد أبداً أن أشفى منه.

انتهت كتابة هذا الكتاب في الأول من أيار 2020،

آملين أن لا نضطر لكتابة جزء ثان.

ووهان 1 أيار 2020

المحتويات

Notes

[1←]
فيروس كورونا المستجد – الصين. أخبار فاشيات الأمراض: أحدث المعلومات. 12 كانون الثاني/يناير 2020.

/https://www.who.int/csr/don/12-january-2020-novel-coronavirus-china/ar

[2←]
منذ ثلاثة أعوام تم تعديل «سياسة الطفل الواحد» وأصبح بإمكان الصينيين من قومية الهان إنجاب طفلين.

[3←]
كتبت هذا النص على صفحتي على فيسبوك في 14/2/2020

[4←]
كل النصوص التي تظهر تحت عنوان «داتا اليوم» مأخوذة دون أي تعديل من صفحتي على فيسبوك، وهي بمنزلة عرض يومي لمسار السيطرة على الفيروس.

[5←]
كتبت هذا النص على صفحتي على فيسبوك في 21/2/2020.

[6←]
هذه الأفكار منتشرة بين فئة الشباب الصيني، وأعتقد أن أزمة الوباء بكل ما رافقها من مواجهة داخلية على المستوى الصحي، وخارجية على المستوى السياسي، ستساهم في رفع الوعي السياسي للشباب الصيني الذي كان ينظر إلى الغرب الرأسمالي على أنه التجربة المثالية.

[7←]
طبعاً حتى داخل تلك المجتمعات هناك فئات واسعة كانت متضامنة، إلاّ أننا نتكلم على الطابع العام داخل المجتمع.

[8←]
رابط التقرير:

https://www.cdc.gov/flu/about/burden/preliminary-in-season-estimates.htm

[9←]

.Phylogenetic network analysis of SARS-CoV-2 genomes
https://www.pnas.org/content/early/2020/04/07/2004999117

[10←]

Statement in support of the scientists, public health professionals, and medical .combatting COVID-19 professionals of China https://www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140-6736(20)30418-9/fulltext

[11←]

The proximal origin of SARS-CoV-2. https://www.nature.com/articles/s41591-020-0820-9

[12←]

Offline: COVID-19 and the NHS—«a national scandal». 6736(20)30727-https://www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140-3/fulltext

[13←]

The effect of control strategies to reduce social mixing on outcomes of the COVID-China: a modelling study.19 epidemic in Wuhan, https://www.thelancet.com/journals/lanpub/article/PIIS2468-6/fulltext2667(20)30073-